الدكتور صلاح الدين القاسمي

١٣٠٥ - ١٣٣٤

آثاره

صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين

قدّم له وحققه

محب الدين الخطيب

١٣٧٩ - ١٩٥٩

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة. تليفون ٨٩٨٣٦٤

الدكتور صلاح الدّين القاسمي

١٣٠٥ - ١٣٣٤

آثاره

صفحات من تاريخ النّهضة العربيّة في أوائل القرن العشرين

قدّم له وحقّقه

محبّ الدين الخطيب

١٣٧٩ - ١٩٥٩

المطبعة السّلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة. تليفون ٨٩٨٣٦٤



الدكتور صلاح الدين القاسمي

في مدة نشاطه الأدبي والقومي

هذا الكتاب

... هذا الكتابُ الذي صار بين أيدي قُرّائه ، رَجعَ بي إلى أسعد أيام حياتي ، إلى بَدْء نشأتي ، ثم إلى رَيعان شبابي . . .

رجع بي إلى مرحلة دراستي الثانوية ، يوم لم يكن للدولة العثمانية في مدينة دمشق – أقدمِ مُدُن الحضارة الباقية على الدهر – إلاّ مدرسةٌ ثانوية واحدة كان عنوانها الرسمي « المكتب الإعدادي » ، وكان الدمشقيون يسمونها « مكتب عنبر[1] » .

في هذه المدرسة اكتشفتُ معادنَ الخير في أمثال صلاح الدين القاسمي ، وعارف الشهابي ، وصالح قنباز . كما سعدتُ في خارج المدرسة بصداقة لطفي الحفار ، ورشدي الحكيم ، وطائفة من زملاء الصبا وَلِدات الحياة في بواكير أزهارها ، عند تفتح أكمامها .

كانت لغةُ التدريس في هذه المدرسة الثانوية الأميرية اللغةَ التركية ، حتى نحوُ اللغة العربية وصرفها كنا نتعلمهما من كتاب باللغة التركية يسمى « المهذَّب » قررته نظارة المعارف العثمانية لمدارس الأَنضول والروم إيلي ، فكان مفروضاً على مدارس الحكومة في الولايات العربية كذلك أن تستعمله في تعليم أبناء العرب نحوَ لغتهم وصرفها . بل كان معلم العربية في مدرستنا شيخا تركيّاً مسنّاً أرسلوه إلينا ليعلمنا العربية في عاصمة العروبة والإسلام التي كان يؤمُّها جرير

---

(1) و « عنبر » هذا سرى إسرائيلي من أصحاب الملايين ، بنى لنفسه دارا واسعة الأرجاء في دمشق على الطراز الشرقي النفيس ، ثم صارت هذه الدار من أملاك الدولة ، فجعلتها مدرسة ثانوية للعاصمة السورية

والفرزدق والأخطل ليعرضوا فيها بدائع بيانهم العربي الخالد إلى اليوم ، وإلى يوم القيامة .

وكانت آمال النشء العربي في هذه المدرسة ، وفي كل مدرسة للدولة العثمانية في البلاد العربية ، أن يحذقوا لغة الترك تكلماً وإنشاء وأدباً ، ليتولوا بعد ذلك وظائف الدولة في بلادهم والبلاد العثمانية الأخرى ، وليعيشوا في ظل القومية التركية مثقفين بالثقافة التركية ، متقدّمين في خدمتها ، منفّذين لخططها الإدارية ، وسياستها الفردية ، التي عُرف بها زمن سلطنة الخليفة العثماني الخرِف عبد الحميد خان الثاني . أما العربية فلا تكاد تعلَّم يومئذ إلا في مدارس التبشير المسيحي ، والمدارس الطائفية غير الإسلامية ، بأساليب ركيكة ومنطق غير سليم .

هكذا كانت الحال في العواصم العربية : دمشق ، وبيروت ، والقدس ، وبغداد ، والموصل ، والبصرة ، ومكة ، والمدينة ، وصنعاء .

كانت العروبة يومئذ عنوانا لمدلول نسيه العرب منذ ألف سنة ، وتنكروا للمعدِن الكريم الذي صنعها الله منه ، ليقوم أهلها برسالة الإنسانية العليا ، فتعود بهم إلى أهداف الحق والخير .

في هذا الجوّ نشأتُ أنا ، ونشأ أخي النابغة العبقريّ صلاح الدين القاسمي . لولا أن الله سبحانه تداركنا فقيّض لنا آباء روحيين أنقذونا من هذا الجوّ الخانق ، وأقربُهم إلى أخي صلاح الدين شقيقهُ الأكبر علاّمة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي وإخوانٌ له في حلقة نورانية كانت تسمى « حلقة الشيخ طاهر الجزائري » ، وقد تولى وصفَها العالم المحقِّق الأمير مصطفى الشهابي في محاضرات له عن القومية العربية : تاريخها وقوامها ومراميها ، ألقاها على طلبة « معهد الدراسات العربية العالية » الذي أسستْه في القاهرة جامعة الدول العربية [1] .

(١) وقد طبعت جامعة الدول العربية هذه المحاضرات في هذا العام ، فبلغت ٣٦٤ صفحة كبيرة ، انظر فصل « حلقة الشيخ طاهر الجزائري » في ص ٤٩ ـ ٥٢ ، وحلقة « جمعية النهضة العربية » في ص ٥٢ ـ ٥٦ . ولنفاسة هذين الفصلين نقلتهما مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في مجلدها السادس ، قبل مثول كتاب الأمير مصطفى الشهابي للطبع .

إن الجو الذى كان يتنفس فيه صلاح الدين القاسمى برعاية أخيه الأكبر الشيخ جمال الدين ، واندماجه فى حلقة دمشق الصغيرة التى بدأتْ من « مكتب عنبر » سنة ١٣٢٠ وانتهت بقيام « جمعية النهضة العربية » سنة ١٣٢٤ وما بعدها ، الى نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٣٣٢ ، قد أيقظ عبقرية صلاح الدين فى رجولته المبكـرة ، فـكان ولمّا يبلغ العشرين من عمره فى نضوج النوابغ من أبناء الثلاثين ، وكأن الله الذى كتب له فى هذه الحياة الفانية العمر القصير ، قد عوّضه فى سن الشباب حكمة الشيوخ ومعارفهم وتجاريبهم .

كان مؤسسو جمعية النهضة العربية ، وكان كاتم سرها الدكتور صلاح الدين القاسمى ، يؤمنون بأن العروبة أكرم عناصر الجامعة الإسلامية ، وأن الله اختارها لحمل أمانات الاسلام فى عصره الأول لمزايا وخصائص فيها لا توجد فى غيرها ، وكانوا يؤمنون بأنها المسئولة الآن ـ كما كانت المسئولة فى البداية ـ عن حمل رسالة الإسلام وتجديد شبابه ، وأن أول ما أساء به المسلمون إلى أنفسهم قبل أكثر من ألف سنة كفُّهم يدَ العروبة عن إدارة دفة الإسلام ودولته وتوجيه تاريخه نحو أهدافه ، وقد بلغت هذه الإساءة ذروتها عندما ارتـكبت الدولة العثمانية خطيئتين لم تسبقها إليهما دولة إسـلامية أخرى قبلها فى شرق الأرض ولا فى غربهـا : أولاهما استعجام لغة الدولة الرسمية ، والأخرى تجاهل ما كان يقع فى الغرب من من نهضة Renaissance فى الصناعة والعلم والتنظيم ، فـكان ذلك من أسباب تقدم الغرب وتخلف المسلمين فى أسباب القوة والمنعة والغنى والسؤدد . وكانت الفجوة بين تقدم أوربا وتخلف المسلمين فى اتساع مخيف يزداد مع الزمن ، ما لم يستيقظ عملاق العروبة من سباته العميق ، وما لم يأخذ المسلمون بأسباب النهوض الصناعى والعلمى والإدارى ليلحقوا بركب الحضارة ، ويتمكنوا من أسباب القوة ، ويضعوا حدا لاتساع الفجوة بين تقدم الغرب وتخلف العالم الإسلامى .

كانت مهمة جمعية النهضة العربية تعريف شباب العرب المثقفين بعروبتهم ،

ودعوتهم إلى التعاون فى إصلاح المجتمع العثمانى الذى كان يتوقف على صلاحه صلاح المجتمع العربى من جبال طوروس إلى باب المندب . وكان لذين خافوا السلطان عبد الحميد على البلاد العثمانية وشعوبها أشد منه كراهية ليقظة العروبة ودعوة أهلها إلى النهضة والإصلاح . بل إن أصحاب النفوذ فى جمعية الاتحاد والترقى وفى الحكومة المسيرة بتوجيهاتهم قد استجابوا للدعوة التورانية التى بثها فيهم اثنان من متعصبى الترك الوافدين عليهم من روسيا الاسيوية وهما أحمد أغايف ويوسف آقجورا ، فانتشرت فى بلاد الترك أندية « تورك يوردى » و « تورك درنكى » ، وانتشرت فى شباب الترك عاطفة التمجيد والتقديس لطغاة المغول والتتار : أتيلا ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك . وأصبحت النزعة الإسلامية عندهم بضاعة للتصدير لا للقنية ، وكشكولا للاستجداء عند ما يرغبون فى ابتزاز أموال مسلمى الهند وسائر المسلمين باسم الاعانة للاسطول وللهلال الأحمر ولمنكوبى حرب البلقان وغير ذلك من وجوه الاحتيال على أموال المسلمين باسم الاسلام الذى تنكروا له ولأمجاده ، تعصباً منهم للتورانية وهمجيتها . واستفحل طغيان الشعوبية عند الترك لسحق كل دعوة فى بلاد العرب إلى اليقظة والحياة . وكان للصراع بين التورانية والعروبة تاريخ لا تتسع هذه المقدمة لبسطه ، غير أنى أشرت إليه بلمحة خاطفة ليعرف القارىء الجو الذى دوّن فيه صلاح الدين القاسمى ما فى هذا الكتاب من مقالات ورسائل ، وما انطوت عليه صفحاته من آلام وأمانى ، وما ترمى إليه من أغراض كان يُسرُّها فى كثير من تفثات يراعه فتبقى بين السطور ، أو يبوح بها فى القليل منها فتكون دليلا لما وراءها . . .

عاش صلاح الدين عبقريا سابقاً لسنّه ، منذ أمسكتْ أنامله القلم ليعبر به عما فى نفسه ، إلى أن اتى الله فى البلاد الحجازية سنة ١٣٣٤ قبيل قيام الدعوة فيها إلى تأسيس دولة عربية . إن مجيئه الى الحجاز كان عن حَدْس بما تتمخض به الأيام من أحداث منتظرة أراد صلاح الدين أن يكون من شهودها كما دلت عليه آخر قصيدة

نظمها . وهى فى آخر هـذا الـكتاب (ص ٣٠١ — ٣٠٥) . فأدركته المنية قبل أن نلتقى للمرة الأخيرة فى هذه الدنيا .

إن العبقرية هبة من الرحمن . يقوم صاحبها بواجب الشـكر عليها إذا أحسن استعمالها فى إقامة الحق وإشاعة الخـير على ما يرضى الله . وهـذا الـكتاب يشهد للدكتور صلاح الدين القاسمى بأنه قام لله سبحانه بواجب الشكر على ما وهبه من نعمة النبوغ ، وعلى ما ألهمه من السعى والـكفاح لاستعمال عبقريته فى بعث العروبة والاسلام وتجديد شبابهما ، يوم لم يكن فى الميدان بشير بهذه المعانى ولا نذير .

وكانت الحرب العالمية الأولى قـد قطعت أواصر الاتصـال بينى وبين أخى صلاح الدين ، بانقطاع المواصلات بين مصر والبلاد العثمانية ، حتى إذا دُعيتُ للحجاز عند إعلان الحسين بن على الثورة على الترك علمت وأنا فى مكة بوفاة هذا العبقرى المجـاهد ، وأنه قد دفن فى فِناء مسجد حبر الأمه عبد الله بن عباس فى الطائف . فلما ذهبت إلى الطائف فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٣٥ أخذت أبحث عن قبر هذا الصديق الحبيب ، إلى أن أُرشِدتُ إليه ، ولم يكن لقبره شاهد يدل على صاحبه ، فعملت له شاهدا كتبت عليه بخطى ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم

تارة أخرى

بارقٌ لاح فى غيوم الحياةِ ... فرآها كثيفة فتوارَى

صَقلته يدُ الحقيقة حيناً ... فتجلَّتْ له فملَّ الإسارا

آثر النور والخلود بعيدا ... عن ربوع رأى بهنَّ ازورارا

هام فى حبِّ هاشم وبنيه   فغدا اليومَ لابن عباس جارا

ذلك هو الطبيب الأديب

صلاح الدين القاسمى

الدمشقى

توفاه الله عن عشرين عاما ونيّف ، فى فجر النهضة العربية ، سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف . وإن صديقه كاتب هذه السطور محب الدين الخطيب يرجو من قارئها أن يتلو عن روحه الفاتحة .



قلت فى صدر هذه المقدّمة : إن هذا الكتاب رجع بى إلى أسعد أيام حياتى . والفضل فى ذلك ، وفى نشره ، للأستاذ الكبير ، عميد البيت القاسمىّ اليوم ، أخى الحبيب السيد ظافر القاسمى ، نقيب المحامين السابق فى دمشق ، ونجل علاّمة الشام أستاذنا الشيخ جمال الدين القاسمى صاحب المؤلفات النفيسة المنتشرة فى العالم الإسلامى ، وآخرها التفسير الكبير « محاسن التأويل » الذى كان للسيد ظافر فضل إحيائه بالنشر وتعميم النفع به ، فجزاه الله خيرا ، وأدام النفع بهذا البيت العريق فى العلم والفضل ، خلفا بعد سلف .

أمطر الله شآبيب الرحمة على أجداث الراحلين منهم ، وأجزل البركة والخير فى ذريتهم إلى يوم الدين .

محب الدين الخطيب



الدكتور صلاح الدين القاسمى

فى رحلة الحجاز — فى السنة الأخيرة من حياته

المؤلف

الدكتور صلاح الدين القاسمي

في مطلع هذا القرن الهجري ، كانت الديار الشامية جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وكانت معظم ولايات هذه الامبراطورية الواسعة غارقة في لجج الجهل والأمية ، فلا تكاد تجد في أي حي من أحياء أية مدينة من المدن الواسعة ، فضلا عن القرية الضيقة ، إلا أفرادا معدودين يلمون بالقراءة والكتابة ، إلماما أقرب إلى حل الطلاسم ، وتسويد البياض منه إلى الفهم والتفهيم . وكانت سياسة الدولة قائمة على الابقاء على هذه الحال الأليمة المحزنة ، حفاظا على سلطانها الغاصب ، وحماية لعمالها الظالمين ، وحرصا على تماسك أجزائها المفرقة باسم الخلافة الخلاب ، وشعارات الدولة الاسلامية .

والذين شهدوا تلك الفترة المظلمة من حياة العرب في ظل الترك ، مازالوا حتى يومنا هذا يذكرون ما وقع فيها بكثير من الفزع والدهشة . فالعلم لا يلقن إلا في الكتاتيب ، والصحف – إن وجدت – أقرب إلى نشرات الأخبار ، على ندرة من يقرؤها . وفريق كبير من رجال الدين جند نفسه في خدمة أغراض الدولة الفاسدة ، يدعو لها ، ويكفر من طالب بالاصلاح ، حتى في ظلها ، فأغلقت العقول ، وحجر على الأفكار ، وعمت الأمية ، وانتشر الجهل ، وما من داع ولا من مجيب .

وقامت سياسة الدولة على تتريك جميع العناصر التي يظلها لواؤها ، وارتكبت في سبيل ذلك من المظالم ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ونهجت في سياستها الداخلية نهجا هو أبعد ما يكون عن فكرة الدولة وتنظيمها ، فقد أطلق الحكم المطلق يد فريق من أعوانه في وظائف الدولة ، يبيعونها لأجل معلوم ، بدراهم معدودات ، فانتشرت الرشي ، وفسدت الأخلاق وساد المجتمعَ اضطراب عميق في نظامه ، وفقدت العدالة ، وأضحى الناس لا يأمنون على حق أن يضيع ، ولا يعجبون لباطل قد انتصر .

وكانت أكثر مرافق الدولة تعطى لأعوانها من المتنفذين بالتلزيم ، وتضع جنودها تحت تصرفهم ، ولا تسل عن ضروب الأذى والظلم التي كانت تلحق بالمواطنين ليحصل هؤلاء الأعوان على بدلات التزامهم .

وكان حبل الأمن مضطربا ، لا سيما وأن رجاله ممن ابتاعوا وظائفهم ، فلا همّ لهم إلا استرداد الأموال التي دفعوها إلى العتاة من رجال « الباب العالي » وغيرهم ، من المواطنين الفقراء .

وكانت المرأة شبه غائبة عن المجتمع ، فليس لها أي نصيب ، لا من الحياة العامة ، بل من خارج البيت . وإذا خرجت فإما إلى الحمام أو إلى بيت أهلها . وكان ذكر اسمها معيبا ، كثيرا ما أحدث الخلافات الدامية .

وكان رجال الدين ، إلا من عصم ربك ، غارقين في الكتب التي ألفوها ، من متون الفقه ، وبعض كتب اللغة ، التي كانوا يسمونها « الآلة » فلا تفسير ، ولا حديث ، ولا دليل ، ولا برهان ولا إعمال للعقل ، ولا ترويض للفكر . أما العلوم الحديثة ، كالجغرافية والتاريخ والهندسة والكيميا والفيزيا فدراستها حرام ، وتدريسها كفر ! .

أما الاجتهاد والقائلون ببقائه واستمراره ، ففاسقون مارقون ، أو كافرون ملحدون ، ومن اتهم به ألفت له محاكم استثنائية ، وحوكم وحبس[1] .

وكانت طريق السعاية بالخصوم ، اتهامهم بالحرية ، سواء أكانت سياسية أم دينية ، وكانت تلقى من الحكام آذانا صاغية ، لأن الحرية عدوهم الأول .

وكان وكان ، مما لا يزال يذكره الأحياء من أبناء ذلك الزمان .

فى هذا الجو العجيب الخانق ، ولد الفقيد صلاح الدين القاسمى[2] . وإنما أوجزنا وصف العصر الذى ولد ونشأ فيه صلاح الدين لترى مدى الجهد الذى بذله جبابرة الاصلاح فى تلك الحقبة من تاريخ العرب . نشأ فى حجر أبيه الشيخ محمد سعيد القاسمى ، إمام الشافعية فى جامع السنانية بدمشق . وكان فقيها غلب عليه الأدب ، رقيق الطبع ، عصبى المزاج ، ميالا إلى الموسيقى ، له المام بأنغامها ، حلو الصوت .

مات أبوه عام ١٣١٧ وهو فى الثانية عشرة من عمره . ثم كفله أخوه علامة الشام الأمام جمال الدين القاسمى . وكان قد عرف فى الفتى نبوغه المبكر ، فأحاطه بكثير من عنايته ورعايته ، وصرف همه إلى تعليمه ما فاته هو نفسه من علوم الزمان . وسلكه فى مدارس الدولة ، يتعلم التركية والفارسية والفرنسية ومبادىء العلوم الكونية ، إلى جانب ما يتلقى فى بيته من الدين وعلوم العربية . فلما أتم دراسته الثانوية أدخله كلية الطب ، وكانت تسمى « المدرسة الطبية » إلى أن نال شهادتها عام ١٣٣٢ (١٩١٤) .

نشأه أخوه على مبادئه القويمة ، ودفعه فى طريق مناهجه السليمة ، ولقنه

---

(١) راجع فى تفصيل هذا الموضوع كتاب : أبى جمال الدين القاسمى ، فصل محنة ١٣١٣ (قيد الطبع) .

(٢) وجدت بخط جدى رحمه الله ما نصه : جاء المولود المحفوظ الملحوظ صلاح الدين يوسف فى ١٩ صفر الخير ١٣٠٥ (٧ تشرين الثانى ١٨٨٧) .

أسس الدين الصحيح ، الخالى عن شوائب الخرافات والأباطيل . وكان أخوه جمال الدين إماما ، بكل ما فى كلمة الإمامة من المعانى : إماما فى المسجد الجامع ، وإماما فى الدعوة إلى الاصلاح وإلى مذهب السلف الصالح ، وإماما فى نشر الحرية الدينية ، وإماما فى الحرية السياسية ، وإماما فى التأليف . وكان بيته مراداً لجميع الأحرار فى ذلك العصر ، من رجال الدين ومن الشباب المثقف ، تعقد فيه الحلقات الخاصة ، للدروس الخاصة ، ويستطرد فيها الإمام والحاضرون لمعالجة مشاكل المجتمع الإسلامى والعربى . فكان هذا البيت مدرسة ثانية ، أو مدرسة أولى ، لصلاح الدين . أخذ فيه عن ربه صفوة الآراء والأفكار فى الدين والتاريخ واللغة والأدب والسياسة ، كما أخذ فيه عن رواده كثيراً من الفوائد العقلية والفكرية .

لقد لقنه أخوه ما فاته فى مدارس الدولة ، بشكل لطيف رقيق ، بعيد عن تعقيد المشايخ ، فدرس على يديه أمهات الكتب بأسهل أسلوب ، ثم دفعه لاستغلال مواهبه النامية بشكل مبكر ، فشجعه على الكتابة والنظم ، وروّض قلمه منذ صباه المبكر على الشعر والنثر . فأنشأ مجلة « نقطة الأدب » ، وهو طالب فى الثانوية ، وله من العمر خمسة عشر عاما أو أقل . وهى إن دلت على شىء فانما تدل على القريحة المتفتحة المبكرة . وفى بعض الشعر المشطر الذى تراه فى آخر الكتاب نماذج مما كان ينشر فيها من الشعر .

ثم أخذ يكتب دون انقطاع ، فى جميع المواضيع التى كانت تشغل المجتمع الإسلامى والعربى فى ذلك الحين من الدهر ، مما سنعرض لوصفه وتحليله وأسبابه بعد قليل .

والتقى مع إخوان له ، ثقفوا ثقافته ، واعتنقوا مبادئه ، واتفق معهم بالقناعة والآراء والأفكار ، أرادوا لهذا الشعب أن يهب من منيته ، ولهذه الأمة أن تستيقظ من رقدة العدم ، فألفوا قبل الدستور عام ١٣٢٤ (جمعية النهضة العربية) ،

يعملون لرفعة العرب ومجدهم ، ولنشر اللغة العربية بكل الوسائل ، ويجمعون الأموال من بعضهم ليفتحوا غرفا للقراءة ، ويعيّنون لها أميناً ، يدفعون راتبه من جيوبهم . ويهدفون ـ قبل كل شيء ـ إلى تعريف العرب بأنفسهم ، وبتاريخهم ، وبقوميتهم ، ويعملون لهذه الأغراض السامية بمختلف الوسائل والسبل ، السرية والعلنية . وكان صلاح الدين أصغر الأعضاء سناً ، لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره ، وقد كان أول كاتم سر لهـذه الجمعية التى تدين لها جميع الحركات الفكرية والسياسية والتحريرية فى هذا الشرق العربى بكثير من الفضل . فهى التى أرست القواعد الأولى للفكرة العربية فى ظل الحكم التركى المطلق ، وهى التى أشعرت العرب بشخصيتهم ، وأنارت أمام العاملين من بعدها طريق الثورة على الظلم والاستعمار . وكان رجالها ـ وفريق منهم ما زال حياً ـ صفوة المجتمع العربى فى أحلك فترة مرت فى تاريخ العرب [1] .

وقد أرخ صلاح الدين لهذه الجمعية فى محاضرتين من كتابه الذى بين يديك [2] عثرنا عليهما مع غيرهما بين أوراقه التى خلفها . وحاضر فى الجمعية ، يوم كانت سرية ، ثم بعد أن أضحت علنية ، فى مواضيع مختلفة ، قد تدهشك عناوينها اليوم ، فما بالك إذا عرفت أنها قد كتبت فى ذلك العصر السحيق ومن فتى لم يجاوز

---

(١) لم يفت الترك خطر هـذه الجمعية ، ودعوتها للعروبة ، حتى بعد استئناف الحياة الدستورية . يدل على ذلك أن فريقا من علماء الشام وأحرارها قد حوكموا بتهمة الاشتراك فيها أو تأسيسها أو التشويق لتأسيسها . منهم الامام جمال الدين القاسمى . فقد جاء فى مذكراته اليومية (١٤ رمضان ١٣٢٧ — ٢٨ أيلول ١٩٠٩) ما نصه : « دعيت اليوم لدائرة الاستنطاق فى العادلية . وملخص ماوشى علينا أن الفقير والشيخ عبدالرزاق البيطار وعبد الرحمن بك اليوسف ما أنشئت جمعية النهضة السورية إلا بتشويقنا ، وأننا من أركانها ، وأنها فرع لجمعيات فى البلاد كاليمن ونجد ، وأنها تطلب الاستقلال الادارى ، وتريد تشويش الأمور الداخلية بطلب حكومة عربية . . . » .

وفى ظنى أن هذا الكتاب بعد أن أضحى بين أيدى القراء ، لابد وأن يكون مرجعا لكل من يتصدى لتاريخ النهضة العربية الحديثة .

(٢) ص ٤ — ١٦ .

العشرين إلا قليلا . فنها : « العلم والاجتماع »[1] « والقومية فى الأمم »[2] ولعل هـذا البحث أول قلم امتد فى لغة العرب ، لتنبيه العرب إلى قوميتهم . ومنها : « التعليم بالعربيـة »[3] وبحث عن « الثورة الفرنسية »[4] وعن « الخطابة والخطباء »[5] .

ولست أحاول تلخيص هذه المحاضرات ، فالـكتاب بين يدى القارىء ، وهو واجد فى مطالعتها ما لا يمـكن أن يجده فى تلخيصها .

ثم يعلن استئناف الحياة الدستورية فى الامبراطورية العثمانية عام ١٣٢٦ ــ ١٩٠٨ ، وينعم الناس بشىء من الحرية النسبية ، فيرى صلاح الدين أن الواجب يدعوه لنشر مبادىء (جمعية النهضة العربية) وأفـكارها على نطاق أوسع ، فيلجأ إلى الصحافة ، ويعالج مواضيع هو أبو عذرتها ، وبارى قوسها ، ويكتب بقلمه وتوقيعه عن « المسألة العربية ونشأتها[6] » وعن « ضائقتنا العلمية[7] » وعن « العلم والعامة[8] » وعن « فوضى الأقلام[9] » . ثم يسمع أن شركة مساهمة عثمانية قد أسست عام ١٣٢٩ (١٩١١) لشراء الأراضى فى فلسطين ، فيفزعه هذا النبأ ، لأنه كان يعلم أغراض الصهيونية ومطامعها فى الأراضى المقدسة ، ويعلم أن انتقال سندات الشركات المساهمة لم يكن عليه أى قيد . فيـكتب فى التحذير من هذا المشروع ، ومن الصهيونية وأخطارها ، مقالا ترى أثر الفزع فى عنوانه ، فقد سماه « الخطران الأصفران[10] » الصهيونية والوباء ــ الـكوليرا ــ فقد قرن بينهما ، وكان الوباء يهدد البلاد فى تلك السنة . وأظنه أول مقال كتب فى لغة العرب ، نبه إلى أخطار الصهيونية وآثامها ، مما نعانى شروره فى هذه الأيام . كان هذا قبل نحو من خمسين سنة ، وأكثر الناس مازال يعتقد أن الخلافة قادرة على حماية الاسلام والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . وغير ذلك من الموضوعات المبتـكرة ، مما

---

(١) ص ١٧ (٢) ص ٤١ (٣) ص ٤٤ (٤) ص ٤٨ (٥) ص ٥٨
(٦) ص ٧٢ (٧) ص ٧٦ (٨) ص ٨٠ (٩) ص ٨٤ (١٠) ص ٩٣

تراه مبثوثا فى الكتاب تحت عنوان « مقالات توجيهية واصلاحية » .

ويُخلع السلطان عبد الحميد ، وينصب السلطان رشاد ، وتبتهج أقطار المملكة بهذا النبأ السعيد ، وتذهب الوفود إلى عاصمة الخلافة . وتؤلف دمشق وفدها ، ويذهب صلاح الدين عضوا فيه ، ومراسلا لجريدة « المقتبس » ، ويكتب مقالات عن هذه الرحلة هى أدنى إلى أن تكون صفحة من التاريخ ، منها إلى أن تكون مقالات للصحف[1] .

ويذهب للحجاز طبيبا فيبعث برسائله منها ، وإذا دراسات اجتماعية تاريخية وسياسية ، لم يظفر الحجاز بغيرها ــ فيما أعلم ــ عن تلك الحقبة[2] .

وخلال هذا كله يكتب مقالات علمية للعلم وحده . ولعل من أهم ما كتب فى هذا المجال ، دراسته ونقده لكتاب النظرات ، للمنفلوطى رحمه الله . فلقد كان لهذا الكتاب يوم ظهوره أثر ظاهر فى الحياة الأدبية والفكرية والاجتماعية ، لأنه طلع على الناس فى عصر لم يكن للناس فيه كبير اهتمام بالأدب والأدباء ، وكان فى أسلوبه ابتكار ، وفى لغته أناقة ، وفى مواضيعه طرافة ، فأقبل الناس عليه ، بين مادح له ولمؤلفه دون حساب ، وأكثر هؤلاء من شباب الجيل ، وبين غاضٍ منه معرض عنه ، منفّر منه ، وأكثر أولئك من مشايخ الطريقة القديمة فى اللغة والأدب . وقد تناوله صلاح الدين بالبحث والتحليل فى دراسة طويلة سماها « نظرة فى النظرات[3] » استغرقت ثلاثين صفحة من هذا الكتاب ، تناول فيها ــ بعد التمهيد ــ أسلوب المنفلوطى ، وموضوعه وآراءه ، ولغته ، ووصفه ، وروحه . وفى ظنى أن هذه الدراسة هى فى مقدمة الدراسات الأدبية الحديثة التى وضعت فى مطلع القرن العشرين على الطريقه الموضوعية المحضة ، والتى هدف فيها كاتبها إلى النقد الصحيح ، مع التبويب والترتيب . وإذا عرفت قلة الوسائل ، وندرة المصادر،

---

(١) ص ١٥٥ ــ ١٩٧ (٢) ص ١٩٨ ــ ٢١٦ (٣) ٢١٩ ــ ٢٤٩

وفقدان الأسوة ، وعدم وجود القدوة ، عرفت عبقرية صلاح الدين للبكرة التي وقفت إلى هذا البحث العلمي الرائع ، دون مرشد أو دليل .

ويُتّهم أخوه وأستاذه جمال الدين القاسمي بالوهابية ، من الحشوية والجامدين ، فيكتب مقالا للمقتطف عرّف الناس فيه بكثير من الجرأة والشجاعة عن « الحشوية والوهابية »[1] .

ويلتزم أخوه وأستاذه داره منقطعا عن إمامة الناس ، وعن دروسه العامة في المسجد الجامع ، لأن الحشويين قد هيجوا عليه العامة ، فيكتب مقالين بحث فيهما « ضراء العلماء[2] » يضرب فيه الأمثال لما أصاب العلماء والمصلحين من الاضطهاد ، ويبشر بانتصار نور هداهم على ظلام ضلال خصومهم .

أما شعره ، فهو كما ترى ، على قلته ، عنوان على الشاعر المطبوع . نظم الشعر في صباه المبكر . ثم انقطع عنه ، ولم يقله بعدها إلا في مناسبتين كبيرتين ، إحداهما رثاؤه لشقيقه جمال الدين القاسمي ، وسمى قصيدته « الدمعة اليتيمة » وثانيتهما لما تمخضت الثورة العربية الكبرى ، وكان طريح الفراش ، فنظم قصيدة للشريف حسين سماها « تهنئة وشكوى » وهو على فراش المرض .

أما ما ترى من شعر الصبا ، فهو على خفته ورونقه ، صحيح اللغة ، سليم الأداء جميل الصور .

حدثني الدكتور سليم العجة رحمه الله ، وكان طبيباً في الحجاز عام ١٣٣٤ (١٩١٦) : أن صلاح الدين القاسمي قد أصيب بخراج بارد في الكبد ، وأنه قد أجرى له عملية جراحية لاستئصال الخراج لم تنجح ، وتوفي على أثرها ، بعيداً عن أهله وأصدقائه ، غريباً عن مسقط رأسه !

---

(١) ص ٢٥٠ (٢) ص ٢٥٨

لم أعرف اليوم الذى توفى فيه على التحقيق ، ولكنه بين شهرى رمضان وشوال ١٣٣٤ ، وعمره تسعة وعشرون عاما وبضعة أشهر .

وبعد ،

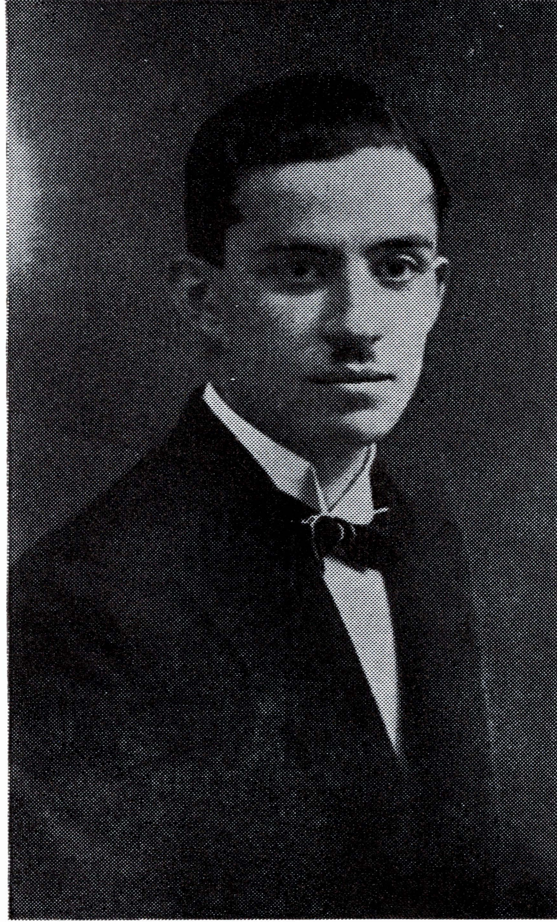
فهذا هو الدكتور صلاح الدين القاسمى !

آثاره التى بين يديك تدلك عليه ، فلا تتعرف عليه من غير طريقها .

جمعها ابن أخيه المرحوم الدكتور مسلم القاسمى ، وباشراف عمه المرحوم قاسم خير الدين القاسمى . وقد كان يرى فيه قدوته ومثله الأعلى . ولكن للمنية عاجلته فى سن أزرار الورد ، فى السنة التى نال فيها شهادة الطب .

رحم الله صلاح الدين القاسمى ، لقد كان أمله كبيراً ، وعمره قصيراً ، وانتاجه وفيراً .

ظافر القاسمي



جامع شتات هذه الآثار ، المرحوم

الدكتور مُسَلَّم القاسمي

جمعية النهضة العربية

٨ ذى القعدة ١٣٢٤

هذه الجمعية

هى رمز العزيمة الأولى لبعث العروبة ، بعد أن هجعت ألف سنة أو تزيد ،

هى أولى الجمعيات العربية لايقاظ العملاق الإنسانى الأعظم .

تأسست بجوار عرش السلطان عبد الحميد ، وهو فى عرين جبروته .

شباب عربى كان يتدفق حيوية ورجولة ، يقوم بواجبه نحو ماضى العروبة والاسلام ،

حفنة صغيرة من شباب العرب ، تنوب عن جميع العرب فى حمل أعباء هذا الواجب .

ما كان يراه هذا الشباب المتوثب واجبا ، كان الحكم التركى يراه جريمة . . .

هذه الجمعية العربية الأولى مثلت الصراع من وراء ستار بين الواجب والجريمة !

كانت الطليعة لكل دعوة عربية قامت بعدها ، ولا سيما المنتدى الأدبى .

لجمعية النهضة العربية فى سنة تأسيسها تاريخ حافل ، تأخر نشره إلى أن يأذن به الله .

والصفحات التالية لمعة من تاريخ هذه الجمعية بعد أن تحول مركزها العام من القسطنطينية الى دمشق .

كانت هذه الجمعية فى القسطنطينية قنبلة ذرية متوارية ، ثم ظهرت فى دمشق قلعة ثقافية متحررة .

هذه الصفحات من تاريخها فى دورها الثانى بقيت محفوظة بخط كاتم سرها فى ذلك الدور .

هو مثل كامل للشباب الكامل ، هو الدكتور صلاح الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٤ .

ثم نقلها بخطه ابن أخيه الدكتور مسلم القاسمى المتوفى ١٣٥٠ (١٩٣١) .

وعن هذه الوثيقة التاريخية ننشر ما انطوى من جهاد طليعة العروبة للبعث والتحرير .

ومتى أذن الله ، ستنشر صحيفة ذلك الجهاد كاملة متسلسلة ، مؤيدة بوثائقها ومواثيقها .

إن العروبة وهى تخطو الى أهداف كمالها ، فى حاجة الى من يضع تاريخها كاملا بين يدى نهضتها المباركة . وهذا التاريخ الكامل سيكون تاج النهضة العربية ، ودليل تقدمها نحو الأهداف . . .

م

كلمة

فى تاريخ الجمعية

اخوتى أعضاء الجمعية ،

هذه أول جلسة قانونية عقدت بعد تنظيم القانون . والآن أفتتحها بكلمة موجزة فى تاريخ الجمعية قبل الدستور و بعده ، والبحث عما أتت به من الأعمال خلال هذه المدة ، وهى كما تعلمون قد دخلت فى السنة الثالثة من حياتها . وليس بعزيز أن تنمو وتبلغ أشدّها بقلوب ضمتها صدوركم ، وهمم تظهرها نفوسكم ، لا زلتم ناهضين بالوطن ، ويتقدم الوطن بكم .

إخوتى ،

أربعة من الأصدقاء كانت تربط فى أول الأمر قلوبهم بعضها ببعض رابطة صداقة صميمية ، ثم مالبثوا أن أصبحت تجمعهم جمعية واحدة ، والرابطة الأولى لم يتغير شكلها ، بل انقلبت بعد ذلك إلى ما هو أمتن وأرصن . أصبحوا مشتركين فى المبادىء والإحساسات . . . ينظرون بعين واحدة إلى سماء واحدة . . . وأفق واحد . . . وكانت القبلة التى يولون شطرها هى السعى وراء سعادة الأمة العربية ، وإحياء ذلك المجد العربى الباذخ الذى أسلم نَفَسَهُ الأخير فى أرض الأندلس ، وذابت آخر قطرة من شمس تلك المدنية فى مجاهل سمائها . . .

بدأت الجمعية بادئ بدء صغيرة ، متبعة ناموس النشوء العام فى ارتقائها ، فكانت ذرة حية فعالة ، تسعى فى أن تلفّ حولها أبناء الأمة العربية جمعاء ، وإن هذه الذرة كان مهدها الأول محيط القسطنطينية ، ومولدها ٧ ذى القعدة عام

١٣٢٤ هـ ، حيث ردُّ الفعل يهيء للانسان أسباباً سريعة كبرى قلما يعرف لها لأول وهلة معنى . . .

فكان أولئك الأصدقاء الذين انصبغت رابطة صداقتهم بصبغة (جمعية) يجتمعون فى غرفة أحدهم و يقرءون فى ليلة من كل أسبوع درساً عربياً غايته إحياء نفوسهم بإحياء اللغة العربية ، لأنهم كانوا يعلمون أن اللغة من أحكم الصلات بين البشر ، وأنها من أعظم عوامل النهوض والارتقاء فى حياة الأمم العلمية والاجتماعية والسياسية .

وكانوا بعد أن كثر عددهم يمشون على قانون عرفىّ سنُّوه فيما بينهم سراً ، فكان يضع كل واحد من الأعضاء فى كل ليلة قطرات قليلة من المال يقتصدونها من مداخيلهم .

و بعد فإن هذه الجمعية ما زالت تتقدم بهمة أعضائها ومثابرتهم ، حتى قويت لحمة الارتباط بينهم ، وعلى هذه النسبة قويت آمالهم وميولهم ، فكانت أول حفلة أقامتها الجمعية هى من قبل المركز العام فى متنزّه الحديقة البصرية (مصيف فى القسطنطينية مشهور) فى ٥ جمادى الآخرة عام ١٣٢٥ هـ ، وقد ألقى الأخ محب الدين الخطيب ــ مؤسس هذه النهضة ــ خطاباً عنوانه « واجباتنا » ، والأخ عارف الشهابى قصيدة عنوانها « نحن والأغيار » .

كان لبعض أعضاء الجمعية أصدقاء فى دمشق لهم عندها من الثقة ما يؤهلهم لأن يلتحقوا بهم و يؤلفوا لهم فرعاً فى الفيحاء . فبعث الأخ محب الدين الخطيب رسالتين فى بريد واحد . الواحدة للأخ « صلاح الدين القاسمى » والثانية للأخ « لطفى الحفار » ينبئهما عن تأليف الجمعية فى القسطنطينية ، و يقترح عليهما أن يشتركا معهم ، وكان قد أشار الكاتب على كل منهما بأن يُرى أحدهما كتابه للآخر ، فاجتمع هذان معاً وتذاكرا ملياً ، وقرّ رأيهما فى الختام على الالتحاق

بالمركز الأول فى القسطنطينية ، وقاما بتأسيس فرع لها مؤلف من خمسة أعضاء ، فكانوا يجتمعون ليلتين من كل أسبوع ، ويوفرون شيئاً من المال فى صندوق صغير .

لم يمض على ذلك إلا حقبة من الزمن لا تزيد على ثلاثة أشهر تقريباً حتى اجتمع أغلب أعضاء المركز فى العطلة المدرسية بالفرع المؤسس بدمشق . ومن ثم توحد الفرع والمركز ، وقر رأى الجمعية على جعل المركز العام فى (دمشق) حاضرة الشام ، وتعاقدوا جميعاً على خدمة المبادئ الأصلية ، بعد أن توثقت بينهم عرى الاتحاد والوئام .

وقد أقام الأخ صلاح الدين العظم فى ٧ رجب عام ١٣٢٥ ﻫ مأدُبة فى أرض الوادى بدمشق ، فى حفلة ضمت أغلب أعضاء الجمعية ، وقد ألقى الأخ رشدى الحكيم خطاباً فى (التقدم الذاتى) ، والأخ ذكى الخطيب خطاباً فى (الإنسان والتربية) ، والأخ صلاح الدين القاسمى خطاباً عنوانه (العلم والاجتماع) ، والأخ لطفى الحفار فى (اللغة العربية) ، والأخ محب الدين الخطيب خطاباً عنوانه (الدين والإصلاح) ، وارفضّت الحفلة وقد عاهد بعضهم بعضاً على خدمة الأمة العربية وأبنائها .



كانت مبادىء الجمعية فى العهد المنصرم هى عين المبادىء التى تختط أثرها اليوم فى قانونها ، بيد أنه كانت تمازجها روح السياسة . أما وإنه كان القضاء على تلك الحكومة المطلقة بيد جمعية سياسية أخرى لم تر بدّاً اليوم من تعديل مبادئها بعض التعديل ، وإن كانت النقطة الأصلية البراقة من تلك المبادىء هى إبرة العمل اليوم لمركز الجمعية ولعامة فروعها فى أنحاء المعمورة .

وكانت الجمعية فيما مضى تأتى من الأعمال بقدر ما يساعدها المحيط ، فكانت

تجتمع سراً وتضع البرامج اللازمة التي يجب أن تمشى عليها الجمعية فى الحال والاستقبال .

وقد عقد المركز العام للجمعية منذ سنتين فى دمشق جلسة عامة ، وقرر إنشاء مكتبة صغيرة واقتناء بعض المصنفات النافعة والمجلات العلمية ، وكذلك فعلت . وأضاف بعض الأعضاء ما سمحت به نفسه من الكتب ، وأعدوا لها خزانة خاصة فى دار عثمان مردم ، ومن ثم بدأ يختلف إليها من الأعضاء من يريد .

وفوق هذا كله ازمعت الجمعية فى ذلك الدور المنصرم ، وهى بين السيف والنار ، على طبع بعض المصنفات العصرية تمشياً مع مبادئها ، فقررت طبع كتاب « عمران دمشق » تأليف الأخ الفاضل « محمد كرد على » منشئ جريدة ومجلة « المقتبس » ، ثم عدلت عنه إلى طبع كتاب (الحرية) لجول سيمون العالم الاجتماعى المشهور وتعريب صاحب كتاب « عمران دمشق » ، لكن الظروف لم تساعدها والأمور مرهونة بأوقاتها .

وهكذا أخذت الجمعية تدرج من عشها شيئاً فشيئاً حتى انبثق فجر الحرية ، واستردت الأمة دستورها وحريتها ، فكان للجمعية من الابتهاج أوفر حظ فهتفت مع الهاتفين ، ورددت صدى هتافها حفلة أقامتها فى مسرح القوتلى فى ٨ رجب عام ١٣٢٦ وألقى من الأعضاء فى تلك الحفلة الأخ رشدى الحكيم خطاباً عنوانه « أمنيةٌ ولا كالأمانى » ، والأخ ذكى الخطيب خطاباً أيضاً عنوانه « على سلم الارتقاء » ، والأخ صلاح الدين القاسمى خطاباً بعنوان « سماء تركيا » ، والأخ لطفى الحفار فى « الماضى والحاضر » .

هذه الجمعية وهذه أعمالها فى بدء الانقلاب فرحاً بالدستور ، ولكن الفرح أيها الإخوة لا يوصل إلى الغاية المقصودة ما لم يقترن بعمل يذكر . وعليه فلم يروا آنئذٍ أنفع من تأسيس غرف عامة للقراءة يختلف إليها الشعب من حين إلى آخر .

فراسلت الأعضاء فى الأقطار الأخرى للقيام بهذا المشروع فارتاحوا له وأقروا على ذلك ، ومنذ ذاك أكتروا محلا يحتوى على غرفتين كبيرتين وغرفة صغيرة حشدوا إليها من أنواع الأسفار الخاصة والعامة فى كل علم وفن ما وصلت إليه يد الإمكان .

وكان إذ ذاك اقترب انعقاد مجلس الأمة ، فاتخذوا ذلك وسيلة لافتتاح الغرف فأقاموا حفلة فى غرف القراءة افتتحها الاخ محمد كرد على بخطاب ذكر فيه تأثير مكاتب الشعب فى الامم وما ينجم عنها من الفوائد فى إنارة العقول وتهذيب المدارك ، وتلا من أعضاء الجمعية الاخ أحمد كرد على خطاباً فى « مكاتب الشعب » ، والأخ ذكى الخطيب خطاباً عنوانه « جمعيّاتنا » ، والاخ لطفى الحفار خطاباً فى « الجمعيات » . إلا أن الجمعية رأت بعد ذلك أن أكثر أبناء التجار والصناع لم تمكنهم الظروف من تلقى دروس عربية ، وكان إشاعة اللغة العربية من أهم مبادىء الجمعية كما هو مصرح فى المادة الـ (٢) فارتأت أن يلقى درس فى اللغة العربية فى غرف القراءة ليلا وندبت لهذه المهمة الاستاذ الشيخ أحمد النويلاتى ، وقررت ذلك فى ليلتى الثلاثاء والخميس من كل أسبوع ، وبدأ فى التدريس مساء ١٠ المحرم عام ١٣٢٧ ، (١٦ شباط عام ١٩٠٩) .

وقد قررت الجمعية خدمة لمبادئها تمثيل رواية يخصص ريعها لغرف القراء التابعة لها فقامت بتمثيل رواية « فتاة الدستور » للمرة الاولى فى ٧ صفر عام ١٣٢٧ فى مسرح دار الإصلاح (الاصلاحخانة) . وبعد ذلك عقدت الجمعية جلسة عامة ووضعت فيها موضع البحث تمثيل الرواية نفسها مرة أخرى ، وقر رأيها على ذلك فقامت بتمثيلها للمرة الثانية فى مسرح (زهرة دمشق) فى غرة ربيع الاول عام ١٣٢٧ وخصص ريعها فى هذه المرة أيضاً لغرف القراءة المذكورة .



لم يكن للجمعية حتى ذلك العهد قانون خاص مكتوب ترجع إليه . ولكنها



جمعية النهضة العربية

التي أسست في ٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٤هـ

الجالسون من اليمين السادة : الأمير نجيب الشهابي . زكي الخطيب . محب الدين الخطيب . صلاح الدين العظم . عثمان مردم بك

الواقفون من اليمين السادة : محمد الحفار . الأمير عارف الشهابي . صلاح الدين القاسمي . لطفي الحفار . سامي العظم . جميل المليحي

كانت تمشى فى عامة أعمالها على قرارات شتى تقررها هى لنفسها ، ومن ثم تشرع فى تنفيذ ما يعهد به إليها ، أو إلى البعض من أعضاء الجمعية ، من مهام الأعمال .

من أجل هذا مست الحاجة لوضع قانون خاص للجمعية كما هو شأن سائر الجمعيات ، فعقدت جلسة عامة للبحث فى وضع قانون لها ، فانتخبت فى هذه الجلسة من مجموع الجمعية سبعة أعضاء فحاز أكثرية الأصوات الأخ أحمد كرد على والأخ جمال الحفار والأخ رشدى الحكيم والأخ رضا مردم والأخ ذكى الخطيب والأخ صلاح الدين القاسمى والأخ محب الدين الخطيب . ثم انتخب هؤلاء بالرأى السرى رئيساً لهم فحاز أكثرية الأصوات الأخ محب الدين الخطيب . وعلى أثر ذلك قدم الأخ جمال الحفار استقالته للجمعية لأسباب مشروعة فقبلت اللجنة استقالته وقام مقامه العضو المرشح الاخ لطفى الحفار .

وبدأوا منذ ذلك الحين يعقدون جلسات متوالية أسفرت عن تنظيم لائحة أصبحت قانوناً بعد أن عقدت الجمعية جلسة عامة وأجيز القانون من قبل عامة أعضائها فى١٣ ربيع الاول عام ١٣٢٧ ، وليلتئذ قرىء أيضاً أمام أشخاص دعتهم الجمعية وهم حضرات الإخوان : حكمة المرادى وجمال القوتلى وفتاح الجندى وكمال الحلباوى وصبحى المليحى وفائز الشهابى ممن خدموا الجمعية ورأتهم جديرين بأن يمدوا إليها يد المساعدة ، فأقروا على مواد القانون ، وانتظموا فى سلك أعضاء الجمعية .

ثم اجتمعت الجمعية فى جلسة عامة فى ١٥ ربيع الاول عام ١٣٢٧ وانتخبت أربعة عشر عضواً من مجموع عامة الاعضاء سبعة منهم للجنة الإدارية والباقون مرشحون كما هو مصرح فى المادة (١٢) من قانون الجمعية ، فحاز الأخ رشدى الحكيم ١٦ صوتاً ، وسبعة أعضاء وهم الاخ جمال الحفار ، والاخ حكمة المرادى ، والاخ رضا مردم ، والاخ ذكى الخطيب ، والاخ فتاح الجندى ، والاخ محب الدين الخطيب ، والاخ لطفى الحفار : ١٥ صوتاً . والباقون ومنهم الاخ صلاح الدين القاسمى ١٤ صوتاً . وكل من الاخ سامى العظم ، والاخ عثمان مردم ١٣ صوتاً .

وكل من الاخ أحمد كرد على والاخ كمال الحلباوى والاح محمود كرد على (١١) صوتاً .

وإذ تساوى سبعة من الاعضاء فى الاصوات اقتضى أن تنتخب الجمعية فى جلسة عامة ستة منهم وفقاً للمادة (١٢) فحاز الاكثرية كل من الأخ جمال الحفار والاخ حكمة المرادى ، والاخ رضا مردم ، والاخ ذكى الخطيب ، والاخ فتاح الجندى والاخ محب الدين الخطيب ، وأخذ أعضاء اللجنة الإدارية فى انتخاب رئيس لها ، ونائب رئيس ، وكاتب ، ومحاسب ، وأمين صندوق ، كما هو مصرح فى المادة الـ (١٢) .

فكان الاخ محب الدين الخطيب رئيساً والاخ رضا مرم نائباً له والاخ رشدى الحكيم محاسباً والاخ جمال الحفار أمينا للصندوق والاخ ذكى الخطيب كاتباً .

وبعد حين دعت الحال إلى أن يغادر الاخ الرئيس محب الدين الخطيب دمشق قاصداً القسطنطينية ، فحل محله نائبه الاخ رضا مردم فأصبح رئيساً والاخ حكمة المرادى الذى حاز فى الانتخاب الاول أكثرية الأصوات بعد الأخ محب الدين الخطيب ، والاخ رضا مردم ، نائب الرئيس ، والاخ لطفى الحفار الذى أحرز أكثرية الاصوات فى الانتخاب وفقاً للمادتين الـ (١٦) و (١٥) من قانون الجمعية والأخ جمال الحفار الذى أحرز أكثر الاصوات فى الانتخاب عضواً فى اللجنة الإدارية وفقاً للمادة الـ (١٢) .

هذا ولما كثرت الاشغال وتكاثرت على الكاتب اجتمعت اللجنة الإدارية وانتخبت معاوناً له كما هو مصرح فى المادة الـ (١٢) ، فحاز أكثرية الاصوات من الاعضاء المرشحين الأخ : صلاح الدين القاسمى .

المحرم عام ١٣٢٨

عقبات
فى طريق الجمعية



سادتى وإخوانى ،

إن جمعية النهضة التى سمعت بها العامة وعرفتها الخاصة وذاع اسمها فى هذه الحاضرة ومعظم المدن العربية على أثر إعلان الدستور لم يتح لها أن تتقلب فى أدوار النشوء التدريجى ليتأتى لها أن تقوم بما سنته لنفسها من المبادىء والغايات حتى يكون حظها من التقدم حظ غيرها من الجمعيات الناهضة .

فبينما كانت تسير فى أعمالها ، إذ قام فى وجهها من العقبات ما أوقف سيرها .

ويسوءنى أن أذكر لكم أن حكومة الاتحاد والترقى كانت تناوئها ، فكانت تظهرعدم الميل إلى إجازة قانونها ، وهو كما تعلمون إبرة العمل ، وبه تمنح حق البقاء .

نعم ، إن الجمعية ، لم توهب خلال تلك السنين حياة سعيدة ، ولكن ليس معنى ذلك أنها فقدت كل مقومات حياتها ، وأنها كانت عطلا من كل عمل ، كلا ، كانت تتعهد الغرف طول تلك المدة ، وتطلب من الحكومة إجازة القانون ، كما أنها كانت تعنى بتمثيل عدة روايات وإقامة بعض حفلات .

لا جرم أن الحكومة لو أجازت قانون الجمعية يومئذ لكانت أتت بأعمال يحمدها عليها العدوّ قبل الصديق ، ولاتضح أمامها منهاج العمل فتذرعت بذرائع من شأنها أن توسع نطاق الجمعية التى ظلت محجوبة عن الخلق كل تلك السنين ، لا لعلة سوى أنها لم تعترف بها الحكومة رسمياً ، وجمعية هذا شأنها لا يمكن أن تظهر أو تأتى بعمل ظاهر ، وهب أنه أمكنها ذلك فالقانون لا يخوّلها هذا الحق ما لم تكن معدودة فى نظر الحكومة من الجمعيات الرسمية ، وما كنا لنظن أن عاقلا من

عقلاء هذه الأمة يأخذ على الجمعية طريقها أو يضع فى سبيلها العقبات بعد أن عرف الناس نياتها الحسنة ، وأنها تتمحض للخدمة العامة ، وبعد أن وضعت قانونها وبينت فيه للملأ مبدأها وغايتها وصح عنها أنها جمعية علمية فقط ، لا تقصد إلا إلى ترقية الأمة من طريق التربية والتعليم .

ولكن يظهر أن بعض أعداء الإصلاح من عبدة الجاه قاموا ينفثون فى روع رجال الحل والعقد بأن هذه الجمعية ترمى فى أعمالها إلى غاية سياسية ، وهؤلاء كانوا يصغون لكل من يوسوس لهم ، ويحبذون تلك القالات والمقالات على عادتهم فى الانقياد إلى رواة السوء وتصديق كل ما يقال إن صدقاً وإن كذباً ، حتى كان من شأنهم المطل والتسويف . وما زال هذا دأبهم حتى أقيل ... من منصبه وظلت الجمعية تتوقع انفراج الأزمة بعد أن ذهب الزمان بما كان ينتظره الشعب من نجاح سعيها .

من أجل هذا لم يكن أعضاء الجمعية يجتمعون إلا غبا ، وإذا قدر لهم الاجتماع كانت الجلسات غير قانونية لأن الجمعية لم تكن ممتعة بتلك الحرية التى حباها إياها القانون فيما لو كانت معترفاً بها رسمياً . وذلك ما دعا إلى أن تصير إلى برزخ بين الضعف والقوة لا يدرك كنهه ، وأن تظل أعمالها محدودة ويكون سيرها بطيئاً .

وقد كانت الجمعية فى حاجة شديدة إلى اجتماع يؤلف ما تفرق من شتاتها وينظم ما انتثر من شملها على قانون نظمته هى وقبلته لنفسها دستوراً ، وقد بذلت فى تنقيحه جهدها ليكون منطبقاً على قانون الجمعيات الحديث ، حتى إذا ما تم على تلك الصورة قدمته للحكومة مشفوعاً بالبيان وما زالت هى والحكومة بين جدال طال أمده حتى وفقت إلى إجازته وكان فرحها به عظيما .

يدلك على هذا أنها لم تكد تحظى بأمنيتها تلك حتى عقدت جلسة خاصة انتخبت فيها لجنة إدارية جديدة ، وانتخبت من بينهم رئيساً ونائباً للرئيس وكاتباً ومحاسباً وأميناً للصندوق ، وشرعت تفكر فى الوسائل التى تعيد إلى الجمعية شبابها

الأول وها قد مضى عليها شهر واحدعقدت فيه ست جلسات ما بين قانونية وطارئة حتى جاءت هذه الجلسة العامة القانونية التي جمعتنا تحت سقف هذا المعهد العلمي ، والتي صرح القانون بأنها تعقد كل شهر مرة .

فالجمعية إذن حديثة عهد بالحياة وإن كانت قديمة النشأة ، وليس لنا بعد أن أجازتها الحكومة إلا أن نسعى يداً واحدة لتحقيق غايتها ، وهى كما تظهر من مطالعة المادة الـ (١٢) : العناية باللغة العربية وآدابها و إقامة أوضاع علمية وخيرية .

وهذه المادة كما ترون ليس فيها رمز إلى سياسة ولا تعرض للدين . وليس فيها أثر من الدعوة إلى القوة إلا نحو ما يراد من ترقية عنصر يؤلف بمجموعه أكثر من نصف الدولة عدداً ، فإذا بلغ من العلم والنور مبلغاً أدرك معه معنى حقوقه وواجباته ونفذت إلى قلوب أبنائه شعلة من ذلك الضياء الأبدى ، وهو العلم الذى يستحث العزائم الخامدة والهمم الجامدة ، نكون قد رفعنا من قدر الأمة العثمانية على السواء .

فأى حياة تبقى لجسم هذه الدولة وقد أصيب أكثر من نصفه بالموت فيما لو أصبحت الأمة العربية بأسرها تتسكع فى ظلمات الجهالة وتتدهور فى دياجير الحيرة وهى من أمرها فى غفلة دائمة طال عليها الأمد .

إنه ليس أمامنا إلا هذه الغرف يجب أن نبذل الجهد المستطاع لترقيتها بحيث نزيد على ما فى خزانتها من المصنفات وهى تربو الآن على ألف كتاب ، وكلها من الكتب الممتعة المؤلفة فى أغراض شتى فى التاريخ والاجتماع والأدب ، ونسعى لأن تردها عامة المجلات النافعة والجرائد المشهورة من عربية وتركية وافرنسية ، وذلك لا يتأتى إلا إذا طلبنا من المؤلفين والصحفيين بعض مؤلفاتهم وآثارهم كما فعلنا فى العام الماضى ، فإذا لبى طلبنا بعضهم وتلكأ آخرون ادخلنا فى باب النفقات من الميزانية قدراً غير يسير نخصصه للاشتراك فى المجلات والجرائد ولابتياع كل ما نراه نافعاً ومفيداً من المؤلفات التى تصدر فى مصر والشام .

والرجاء أن نحقق هذه الفكرة فى الأعوام القادمة . وذلك متى زاد عدد الأعضاء وتهيأت لجمعيتنا موارد غير مرتباتهم لأن واردات هذا العام لا تقوم إلا بالغرف فقط على النحو الذى عليه الآن . على أنه لا يمكننا غير ذلك ما دام أعضاء الجمعية لا يتجاوزون العدد الراهن ، وبعضهم فى بيروت وآخرون فى قروق ومنهم من ذهبوا لفرنسا وانكلترا لدراسة الحقوق والتاريخ والآداب ، ومجموع ما يجمع منهم فى السنة على وجه التقريب ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبعة قروش ، و إذا أضفنا إليها ألفا وخمسمائة قرش وهو ما يرد للصندوق من تمثيل الروايات كان مجموع وارداتها خمسة آلاف ومائتان وثمانية قروش . وأما النفقات فهى تبلغ – مع راتب القيم[1] وأجرة الغرف ومصارف متنوعة – أربعة آلاف ومائتى قرش ، فالفاضل من ذلك ألف ومئة وثمانية غروش .

على أن هذا المقدار قليل لاية جمعية تريد أن تأتى بأعمال نافعة ، وتعد لنفسها مستقبلا حسنا ، ولذا كان من الواجب علينا أن نفكر فى الوسائل التى تهيىء لنا طرقا نستورد منها من المال ما نستعين به على تحقيق آمال هذه الجمعية وقضاء حاجاتها .

وزيادة الواردات يتوقف على التفكير فى الموارد وكثرة الايدى العاملة فى جماعة اتحدت مناحيهم ومنازعهم وتوحدت ميولهم وآمالهم ونشأوا على تربية عالية واجتمعوا لتحقيق غاية واحدة وكانوا من محبتهم للنفع العام بحيث يضحون بشىء من مصالحهم الذاتية — أمثال هؤلاء يرجى لهم أن يهيئوا للجمعية من الواردات الجديدة ما يزيد فى ثروتها .

ولهذا وجب علينا أن نسعى لإدخال أعضاء من عامة الطبقات على شرط أن يكونوا ممن عرفوا بحب العلم والفضيلة ، لتنال الجمعية ثقة الشعب ولتكون بمنزلة

(١) الشيخ سعيد المسوتى

بعض قواها المسخرة لجلب منافعها أو درء مضارها حتى يكتب لها البقاء والارتقاء .

ومن المهم أيضا أن تقف الجمعية على أحوال البيئة الرُّوحية التى تعيش فيها وتعلم أن سكانها أشد ما يكونون تأثراً إذا لامس المرء معتقداتهم ، كما أنهم ينفرون ممن يريد أن يحملهم على الإصلاح دفعة واحدة ، وأنهم بعيدون عن الروح السياسية والاجتماعية ، متشبعون بالنزعات القديمة ، فلا يمكن أن يداخل التجدد نفوسهم إلا تدريجا فى زمن طويل ، ولذا كانت الجمعية لا تتعصّب لطائفة من الطوائف الملية ولا تأخذ برأى جمعية من الجمعيات السياسية لان الجمعية علمية ، ولكن ذلك لايمنع أى عضو من أن يدين بأى دين أراد أو يحمل فى قلبه مبدأ من المبادىء إلا ما يمس مبدأ الجمعية الحقيقى الذى أسست لاجله ، إذلا تسأل عن أى عمل يأتى به أحد أعضائها .

وقد أطلقت الجمعية اليد للرئيس وخولته حق الإشراف على أعمال الجمعية ، وأن يرأس الجلسات العامة والخاصة ، فإذا وقع ما يتوقع وقوعه عادة فى كل جمعية من اختلاف فى الرأى يسبب حدوث مشكلة من المشاكل رد الامر إليه وكان هو الحكم العادل . وكذلك إذا رأى من عضو تراخيا فى وظيفته نبهه لذلك صونا لمصالحها وخشية أن تعبث بها أيدى الضياع . وبالجملة فهو مسؤول عن كل كبيرة وصغيرة تحدث فى الجمعية .

وللأعضاء أيضا الحق بمطالبته ، فإذا رأوا منه تساهلا أو استبداداً أشاروا عليه بذلك أو أوقفوه عند الحد الذى منحه إياه القانون .

وقد فرضت الجمعية على العضو مشاهرة من ربع المجيدى فصاعداً وذلك ليكون باب الدخول فيها مفتوحا أمام الجميع ، ولئلا يستكثر الراتب إذا كان أكثر من ذلك من لم تسعده حاله فلا يقدم على الدخول فيها ، وفيه من الاستعداد العقلى والذكاء الفطرى والتربية الصحيحة ما تستفيد الجمعية منه فائدة عظيمة .

وانقسم أعضاء الجمعية إلى عاملين ومساعدين وهؤلاء هم الذى تمكنهم أوقاتهم أن يحضروا الجلسات أو يكونوا من أعضاء اللجنة الإدارية ، وما على أمثال هؤلاء إلا أن يدعوا بدعوة الجمعية و يُشعروا حبها قلوبهم ويؤازروها بكل ما تصل إليه يدهم ويدفعوا لها راتبا بقدر طاقتهم .

وهكذا يجب أن يكون فى صندوق الجمعية على الأقل خمسون ذهباً فى السنة وهو مبلغ لا يصعب علينا جمعه إذا عرفنا الطرق الموصلة إلى ذلك ، ويمكننا أن نستفيد جداً إذا راقبنا سير الجمعيات الأخرى التى استطاعت أن تنشىء المدارس على حسابها وتتوفر على طبع المصنفات النافعة وتعلم النوابغ من التلاميذ وتبعث بهم إلى أوروبا على نفقتها ثم بعد أوبتهم منها يؤدون مالها عليهم . ومن المحقق أن تلك الجمعيات لم تبلغ هذا المبلغ من الرقى إلا بإيجاد طرق اقتصادية توفر فى صندوقها مبالغ جمة وإلا فيستحيل أن تقوم بذلك من رواتب أعضائها فقط .

و إذا أصبح للجمعية غداً موارد جديدة وكثرت أعضاؤها فأول ما تعمله هو الانتقال إلى ناد تجعل فيه مكانا للمطالعة بدل هذه الغرف وتخصص فيه ردهة للخطابة وعندئذ يشترك فى النادى فيما أظن أكثر من مائتى رجل وكلهم من أذكياء هذه الحاضرة ، وتحيى فيه كل شهر ليلة يُلقى فيها أحد المعروفين بالعلم والفضل محاضرة علمية أو أدبية وتكون بذلك لهذه المدينة فى هذا المنتدى ليال ساهرة بالمحاضرات يذكرها التاريخ .

وهكذا فالجمعية لا تزال تدرج فى مدارج الرقى حتى تقيم من الأعمال ما تتصاغر دونه قوة المعارضة فترسخ مبادؤها السامية رسوخ الرواسى ، ويكون الخير للشعب فى اتباع مآثر أسلافه إلى أن تظفر البلاد بالعزة وتعز بالمنعه إن شاء الله .

٢١ المحرم عام ١٣٣٠

كاتب الجمعية

صلاح الدين القاسمى


جمعية النهضة العربية
التي أسست في دمشق سنة ١٣٢٤هـ الموافق لسنة ١٩٠٦م
الجالسون من اليمين السادة: محمد جمال الحفار زكي الخطيب لطفي الحفار محب الدين الخطيب محمد كرد علي احمد كرد علي رضا مردم بك الدكتور حكمت المرادي عبد الفتاح الجندي
الواقفون من اليمين السادة: الأمير فايز الشهابي جميل مردم بك محمود كرد علي جمال القوتلي محمد الحفار عثمان مردم بك رشدي الحكيم الدكتور صلاح الدين القاسمي صبحي المليجي اديب مردم بك كمال الطباوي

العلم والاجتماع [1]

اخوانى الفضلاء ،

تعلمون علم اليقين ، أن قانون النشوء والارتقاء ، قد خضع له كل ما يجرى على هذه الـكائنات من الحوادث ، سواء كان ذلك نتيجة أثر طبيعى ، أو محصول فـكر بشرى ، فما من حادث تلده الطبيعة ، وينتجة الفـكر البشرى إلا وتتناوله الأحقاب والقرون فى بادىء الأمر وتلقيه فى كبد الأدوار التى تغشاها ، وثمة يكون بين تقلب تارة ، وتقدم أخرى ، إلى أن يدرج من حجر أمه وقد بلغ أشده ، فحياته تلك المسيَّرة بقوة النمو هى (النشوء) ومصيره إلى الحالة بعد ذلك هو (الارتقاء) وهما بمجموعهما يشكلان ذلك (الناموس العام) الذى تسير عليه الحوادث فى هذه الـكائنات .

فهذه الأرض ـ ام المخلوقات الأرضية ـ تعلمنا ذلك القانون ، وعلى فضائها نقرأ سطوره الأزلية ، وذلك منذ كانت كتلة نارية تقذفها أفاعيل الاضطراب فى هذا الفضاء المجهول الذى يرجعُ البصر خاسئا حسيراً ، إلى أن سكن اضطرابها ، وبرد أوارها ، إلى الزمن الذى كانت فيه السيول الطوفانية تتدفق من سمائها ، وأفواه البراكين تطغى فتحدث طوفاناً ناريا يتفجر من صخورها ، حتى وجود هذ الإنسان الذى لا يعلم من أمره إلا أنه حيوان أخذ يدب على هذه الأرض ، حتى نما

---

(١) خطبة ألقيت فى حفلة لجمعية النهضة العربية أقيمت بأرض الوادى بدمشق يوم ٧ رجب عام ١٣٢٥ ، وتقدم الحديث عنها فى صفحة ٦

فكره ، و اتسعت مداركه وأتى بما أتى به من المعجزات والخوارق التى نرى آثارها الباهرة ونتائجها المدهشة اليوم .

ولقد كان الإنسان فى بدء الخلقة شريك الحيوان الأعجم لولا ما أوجدته فى نفسه يد القدرة الفاطرة من تلك البارقة الذكائية التى أخذت تشع من فكره شيئا فشيئا ، فبدأت تنعكس على هذه الموجودات وتنفذ إلى ما وراءها نفوذ الأشعة الرنتجينية ، وتكشف عما استطاعت من حجب الخفاء ، وجعلت تجتهد فى حل معميات هذه الكائنات حتى وضعت على ساحة الظهور والمعرفة من الأشياء ما وجدت به إلى حلها سبيلا .

ألا وإن تتبع النتائج الفكرية فى كل دور من الأدوار التى مرت على هذه الأرض يبين لنا (تاريخ ارتقاء البشرية) من حيث « العلم والاجتماع » ، و يأخذ بيدنا إلى تلك الأدوار البعيدة التى دفنت طبقاتها تحت ظلمات الماضى ، و به أمكننا أن نقلب تلك الصفحات المديدة ، ونقرأ عليها بنظر يخرق أعماق هذه الأرض ماتوارى فى تلك الوهدات العميقة من الرمم التى تنطق بعظمتها آثارها ، وتردد ذلك الصدى العلوى ، صدى المجد والحضارة والمدنية ، وما أتى به الجنس الإنسانى من جلائل الأعمال !

ولعلّى استسلمت فيما كتبت إلى اللسان الشعرى الذى تغرق فيه روح الحقيقة ، أكثر من اللسان الخطابى ، ولهذا فإنى أعيد عليكم ثانيا أن الفكر الإنسانى هو الباعث الأكبر على توليد كل من المباحث العلمية والاجتماعية ، وأنها تقوم بالعوامل التى يقوم بها الفكر ، وتقعد بمثلها عينا بعين ، وأن الحاجة إلى العلميات والاجتماعيات فى الحالات العامة تتناول الأمم على السواء ، غير أنها ترجح الواحدة عن الأخرى فى الحالات الخاصة شأن كل حاجة حقيقية يوجد لها تأثير فى هذ العالم .

نعم ، ان الحاجة العلمية تعدل الحاجة الاجتماعية فى الحين الذى يُعلم فيه معنى

العلم والاجتماع ، وماهو المقصود من حياة الجمعية البشرية على هذه السيارة ، فمعرفتنا بالنواميس الطبيعية تعدل معرفتنا بقوانين الأمم ، وكما أن هذا يقدمها فى عاداتها وآدابها ، ويمهد لها سبل الانتظام فى المعاملات التى لا غنى للبشر عنها ، فان ذلك يقدمها فى حركتها ، ويبث فيها حياة النشاط والإقدام ، ويعينها أحدهما على تربية الدماغ كما يعينها الثانى على تربية النفس والعقل معا .

أرأيتم لو بلغت أية أمة من الأمم مبلغا عظيما من العلوم والمعارف فزادت فى نشاط الأمم وإقدامها ، فهل يستتب لها الهناء ، وتستكمل فيها السعادة والراحة ما لم تكن ثمة قوانين تحميها ، وتدفع عنها جائحات الخراب ؟ وهل يكون وجود المعامل ، والبواخر ، والأسلاك البرقية ، والسكك الحديدية ، تقدما يؤدى إلى سعادة البشر إذا لم توجد نواميس تحدها وتسلك بها سبيل الانتظام ؟ أو هل فى إمكان أى شعب من شعوب هذه الأرض أن يبلغ ذرى المدنية والحضارة اليوم دون أن تعم بين كل طبقة من طبقاته حقائق العلوم ؟ أو هل يكون فيه مقاومة للثبات فى جهاد هذه الحياة ، ويعيش عيشة طيبة ، ما لم تخترق أسلاك الكهرباء بلاده ، وتعلو الأبخرة أجواءه ؟ اللهم إلا تلك الحياة الحيوانية المحضة !

ولا يغرب عن أذهانكم بعد هذا أن التقدم الذى نراه اليوم هو نتيجة تأثير كل من العلماء والاجتماعيين الذين وصلوا بالجمعية البشرية إلى هذا الحد ، وأن المخترع والطبيب والكيماوى لا يقل درجه فى التأثير عن المشرع والمحامى أو الاقتصادى أو المؤرخ وغيرهم .

وما منكم من لا يعلم أن هذا الارتقاء المادى والأدبى هو ثمرة أتعاب أدمغة الدهاة من العلماء والاجتماعيين أمثال « لايبنيخ » و « كانت » فى الفلسفة ، و « لا بلاس » و « هرشل » فى الهيئة والرياضيات ، و « آدم سميث » و « تورغو » فى العلوم الاقتصادية ، و « فرانكلن » و « ولتا » و « غلوانى » فى علوم الطبيعة

و « لا فوازيه » و « كاوانديش » فى العلوم الكيماوية ، و « فولتر » و « روسو » و « مونتسكيو » و « كوبه » و « شيللر » فى الحكميات والأدبيات وغيرهم من المفكرين .

وأرى — إن كنت ممن يرتئون — أن تفكير ذلك العالم الذى ينزل ببصره إلى الأرض ، ويتطاول به إلى السماء رجاء حل مسألة علمية يخدم بها الإنسانية والعالم أجمع ، لهو عين تفكير ذلك المصلح الاجتماعى طلباً للفصل فى مشكلة اجتماعية قد وقفت عقبة فى سبيل الخير الإنسانى حتى يصل بالإنسان إلى طرق الصلاح والنجاح .

وخدمة الطبيب الإنسانية فى حفظه الأجسام البشرية من الطوارىء والنوازل عين النتيجة التى يفيدنا إياها المحامى فى دفع ما يطرأ على النفوس ، والمدافعة عن حقوقها .

ونظر « باستور » فى مكبرته لكشف تلك الجراثيم القتالة ، وكيفية تولدها ونموها ، وتسببها تلك الأدواء الدوية ، كنظر (تولتستوى) فى مكبرة التفكير التى بها يطل على العالم بأسره ، لاكتشاف جراثيم هذا الاجتماع ، وكيفية تولدها وسريانها فى جسم الهيئة الإجتماعية ، وهكذا فان غاية الفريقين وتأثيرهما فى الأمم على السواء .

بيد أن موجبات الأسباب والمؤثرات دعت الطبيعة أن تفتح خزائنها المكنوزة طى طبقات هذه الأرض فى وجه العلم ، أكثر منه للاجتماع . لذلك كانت العلوم الكونية أسرع نموا من العلوم الاجتماعية ، وأكثر ثروة ، فكانت أغزر ثمرة لاكتشاف الانسان كثيراً من المجهولات الكونية ، على حين أن كثيراً من المسائل الاجتماعية لا تزال تحت حجب الغموض والخفاء .

ولم يستدع سبق العلم الاجتماع انحلالا فى تلك الرابطة الأساسية التى يشتركان

بها من حيث النتيجة ، بل زادتها وثاقا فيما أعلم وأرى ، فالعلم يُوجد الحركة ، والاجتماع يسعى لتنظيمها . والعلم يجتهد فى تكثير الأشياء ، والاجتماع يضم بعضها إلى بعض . والعلم يعمل لسد الحاجيات ، والاجتماع يوزعها . وهكذا الرابطة لم تزل ولا تزال قوية متينة ما دامت النتيجة هى ازدياد نشاط الجمعية البشرية ، وسيرها على قانون الارتقاء .

ومهما يكن من الأمر ، فإن العلم لم يقف عند حد ، ولم تكن لتقوم فى سبيله عقبة تمنع سيره ، فإنه رغما عن تلك الرابطة قد تغلب على الاجتماع وأعانته الأسباب الطبيعية على أن يكون أشد تأثيراً ، وأمدَّ ظلا .

وما هذه الآثار التى تصادم أنظاركم ، وتؤثر على إحساسكم ، وترون صداها فى آذانكم سوى نتائج العلم مثل : الفيزيولوجيا (علم منافع الأعضاء) والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وعلوم الأحياء والطبيعيات التى نهضت بالأمم إلى ما ترونه اليوم ، والتى أوصلت العالم إلى هذه النتائج .

ولقد أتى على هذه العلوم حين من الدهر كان فيها مذهب الظن مشاعاً ، والمسائل العلمية أقرب إلى الحدس والتخمين منها إلى التحقيق المبنى على التجربة والاختبار ، حتى أتى العلم اليوم وأبطل بحقائقه مزاعم المتقدمين ، وما كانوا يظنونه عن الأجرام السماوية وحركتها ، ودك عروش تلك الأوهام التى لم تستند على دليل علمى ، ولا برهان نظرى ، كاعتقادهم بأن الأرض بسيطة وساكنة وبأن الشمس تدور على أطرافها ، ونسف بقوتى النظر والعقل معاقل تلك الأفكار كتوهمهم هيئة الأفلاك ، والأثير والعناصر الأربعة ، ونزوعهم الى تلك الأوهام فى عالم السكون والفساد كل منزع . . .

من أجل هذا كان العلم اليوم غير العلم منذ قرون ، وأن ما جاء به « أرسطو » و « أفلاطون » و « اقليدس » و « فيثاغورس » و « ابن رشد » و « الفارابى »

و « ابن سينا » لايشبه ما جاء به «با كون » و « كانت» و « بوفون » و «دارون» و « نيوتون » ، كما أن ما أتى به « هيكو » و « اسكندردوماس » و « فولتر » و « روسو » و « لا فونتين » غير ما أتى به « بالزاك » و « زولا » و « الفونس دوده » .

وان نظريات الفلاسفة المتقدمين التى وضعوها غير نظريات المتأخرين ، كما أن أقلام الكتاب والشعراء من الفئة الأولى غير أقلام الفئة الثانية .

ولا أقصد مما قلت الغض من منزلة العلماء المتقدمين ، ولا أن أغمط من حقوقهم أو أن أسفه تلك الآراء ، كلا ، فأن عليها تأسس مجد أمم عظيمة بلغت من المدنية شأواً كبيراً ، كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والصينيين والمصريين والكلدانيين وأمثالهم من الأمم ، فإن سور الصين ، وبرج بابل ، وأهرام مصر ، وخرائب تدمر ، وقلعة بعلبك ، وآثار عمان كلها ألسنة تنطق بفضل المتقدمين ، وتقدمهم فى العلوم والمعارف ، وتدل على قوة بشرية اتخذت العلم عضداً لتخليد هذه الأعمال التى كانت ولاشك فوق الطاقة البشرية لولا النتائج العلمية التى مهدت لمثل هاته الأعمال السبيل . غيران العلم اليوم أتى بنتائج فوق تلك من جهة ، وأوجد من الأعمال ما لم يكن ليمر بخاطر المتقدمين من جهة أخرى . وكذلك أتمت أيضاً بعض المساعى التى بذل الأقدمون جهدهم لتحقيقها ، وحاولوا وضعها موضع العمل ، ولكن أعيتهم الحيلة ، وضرب عليهم العجز ستاراً مجهولا . ومن ذلك : الكهربائية التى فكروا بها إذ علموا أن نتيجة الاحتكاك حرارة فقوة تجذب ، فكروا فى ذلك ثم وقفوا عند هذا الحد مستسلمين لعوامل العجز والتقصير ، ولم يكن ليقوم بفكر أحدهم (سر الجريان) ، وأنه يمكن خزنها بمخازن كبيرة نطلقها متى نشاء ، ونحبسها كيف نشاء ، وبهذه الواسطة تنتقل إلى أسلاك دقيقة تتشهب فتطلع أقماراً ونجوماً تزرى بأقمار هذه السماء ونجومها ، وتدير فى صدور المعامل دواليب عظيمة ، وتحمل أثقالا جسيمة ، وتسحب مركبات ، كالجبال الراسيات !

وكثير من أمثال هاته المسائل التى فكر بها المتقدمون وعجزوا عنها ، ثم حلتها بعد ذلك القرون المتأخرة ، يذكر التاريخ بكل افتخار أهمها : القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين .

ففى هذه القرون الثلاثة امتدت قوة العلوم والمعارف ، وظهرت نتائج الطبيعيات والرياضيات والفلسفيات ، فأسفرت الفلسفة الطبيعية عن اكتشافات مدهشة قلبت عالم الطبابة وهيئة الأفلاك كاكتشاف المكبرات والمجاهر فأصبحت الأولى ترينا الذرة الصغيرة عالماً كبيراً ، والقطرة الهادئة بحراً هائجاً متموجاً يجول فيه من العوالم ما لا يحده الحصر ، وغدت الثانية تقرب لنا الأجرام السماوية — على ما بيننا وبينها من البعد الشاسع ، وصرنا ننظر إلى بعض الأجرام نظرنا إلى قسم من عالمنا الأرضى ، كما أنها كانت السبب فى اكتشاف كثير من السيارات وما فيها من الهضاب والوهاد ، والسهول ، والنجود ، والقفار ، والبحار ، وما فيها من الحياة النباتية والحركة الحيوانية .

ومنذ ذاك أخذت تتطاول بنظرها إلى العلاء بعد أن سخرت لإرادتها كثيراً من القوى الطبيعية ، وجعلت ترسل رائد الفكر إلى ما فوق ، إلى ما فوق هذا المحيط . . . وما زالت تعالج تلك الوسائل والوسائط حتى استتب لها الأمر وخضع لها كل شيء ، وآنئذ أخذت تسبح فى الهواء ، وتحلق فى الأجواء ، فنجم عن ذلك فوائد عديدة كانت بطون كتب المتقدمين فارغة منها ، وأفكارهم مفعمة بغيرها من الآراء ، فعلمت هذه الكرة الهوائية وبُعْدها وتخلف كثافتها وتأثيرها على المسافات ، والدورة الدموية بضغطها على الجسم ومقدار ذلك الضغط المتحصل من طبقات الهواء بعضها فوق بعض ، ودحرت من الأوهام ما كانوا يظنون أن هذه الكرة يعلوها بحر ، وبينت لنا زرقة هذه السماء التى تبهج الناظرين ، بأنها ليست سوى انعكاس أشعة الشمس وتطبيقها على ما نرى كالحادثات السرابية التى يراها المسافر فى الصحارى والبرارى .

والرياضيات اليوم قد أبدت من النتائج وحلت من المسائل الدقيقة مالو كانت بمجرد السماع لضرب بها عرض الحائط . أما وإنها مبنية على أدلة عقلية وبراهين رياضية فإنه لم يخالج فكر أحد من الطبقة المنوّرة بارقة شك فى ذلك : مثل حساب نصف قطر الأرض ، وأخذ مساحتها السطحية والحجمية ومعرفة كثافتها ، ومن ذلك يتبين وزنها ، وقد أصبحت ألعوبة بين أيدينا إذ اتخذناها مقياساً نقيس به بقية الإجرام السماوية فنعلم أبعادها ومقدار حركاتها بكل دقة ، كما أنا نقدر أن نعلم ارتفاع بعض الجبال التى تعلو هذه السيارات ، وذلك كله بعمليات بسيطة لا تتعدى القلم والقرطاس .

وسيول هذه الترقيات قد أغرقت أيضاً بعض العلوم الأخرى كالكيمياء والتشريح وعلم الحيوان وغير ذلك ، وأتى العلم اليوم بما لو سمع به الأقدمون لنظر بعضهم إلى بعض دهشين . فالعلم اليوم أخضع الجبال ، وسكن البحار ، وبدل الأرض غير الأرض ، فأصبح كل مكان مشغولا بنتائج تقدم العلوم ، وغدا جوها وسطحها وقاعها مكاناً للحركة البشرية ومسرحاً تجول فيه الطرق الحديدية ، وتنساب فيه الجبال . لقد وصل العلم اليوم الممالك البعيدة والأقطار الشاسعة بعضها ببعض ، وأصبح الإنسان فى الشرق يشهد حركات من فى الغرب ، ويتكلم الواحد فى الشمال فيسمعه من فى الجنوب .

ذلك أنموذج من نتائج العلم المادية والمعنوية ، فهل كان للعلوم الاجتماعية حظ من هذه النتائج ، وهل أحدث فيها روحاً جديداً يا ترى ؟

لقد توهم قوم ممن لم يشرفوا على (تاريخ العلم والاجتماع) أن بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية سداً منيعاً لا يحرقه شرر الكهرباء ، ولا تخرقه قوة القنابل ، على حين يتبين للمدقق فى تاريخ كل منهما : أن تقدم العلوم والمعارف قد نفذ إلى صميم روح العلوم الاجتماعية ، كالاقتصاد واللغة والتمثيل والروايات والشعر

وغير تلك العلوم . وفوق ذلك فإن العلم اليوم كان سبباً قوياً لا يجاد بعض الفروع الاجتماعية ، كما كان باعثاً على توسيع البعض الآخر .

أما الاقتصاد ، فإنه استفاد كثيراً من المخترعات الجديدة والمكتشفات الحديثة التى كان العلم هو العامل الأكبر على إيجادها بسائق الحاجة مجاراة لذلك الميل الانسانى إلى اكتشاف المجاهيل ، والوقوف على حقيقة كل شىء وقوف العليم الخبير .

ولا أكون مبالغا إذا قلت بأن العلم اليوم هو الذى قام بالاقتصاد دافعا إياه بقوتى البخار والكهرباء إلى ما نراه له من المكانة العالية فى الأعمال البشرية ، وهو ، نعم هو ، نظّم مباحثه الدقيقة ، وإنشأ مباحث جديدة لم تكن لتوجد لولا مؤثرات العلم عليها ، وتطبيقها عليه تطبيقاً علمياً وعملياً .

وليس بخاف عليكم أن مسائل علم الاقتصاد ترجع إلى ثلاثة أبحاث ، هى ينبوع الثروة ومنها تنفجر وتسير ، ألا وهى : الزراعة ، والصناعة ، والتجارة . ومن ذا يعاند الطبيعة وينكر بلوغ هذه الثلاثة أفق التقدم منذ تولدت المخترعات والمكتشفات ، وتوسع الفكر البشرى ، وأخذت الحادثات الكونية تتبع خطوات النشوء والارتقاء ، فتقدمت وسائط النقل إلى هذه الدرجة التى ترونها اليوم بأعينكم ، فكانت روح أمهات الثروة الثلاثة وخصوصاً التجارة ، وذلك حينما اخترقت المركبات قلب البلاد والممالك فقلبت ما كان فيها أولا وبدلته بما هو أرقى منه . وهكذا كانت الخطوط الحديدية شرايين البلاد ، بها تنبض عروق الحياة ، وعليها تضرب روح الحركة ، ومنها ترى حرارة ابن الإنسان !

وكما أن وسائل النقل كانت سبباً لحركة التجارة ، كذلك الآلات الميكانيكية كانت سبباً فى نمو الزراعة والصناعة معاً ، فلقد كان الإنسان فيما مضى يعتمد لدفع حاجياته على يديه الضعيفتين القويتين مستعينا بالأسباب البسيطة ، فكانت تلك القوى التى تصرف فى ذلك السبيل تربو على المنفعة التى عزم على استحصالها من جراء ذلك وتزيد . فعمد إلى أسباب أخرى ليس وراءها سوى منفعة تعادل تلك

القوة التى يصرفها ، ثم فكر فى وسائل غير تلك بحيث تكون الثمرات المستحصلة من ورائها أكثر من الصرفيات ، وأغزر ، فكانت نتيجة هذا التفكير وجود الآلات الميكانيكية التى أكملت أدوار الأعمال ، وذلك بانتقالها من الحالة اليدوية الى الآلية فالميكانيكية .

و بهذا يعلم تأثير العلم على أمهات الثروة تلك ، ويستنتج من ذلك تأثيره على الاقتصاد لاحتوائه هذه الكليات الثلاث .

وتناول هذا التأثير (التاريخ) فإن الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) خط لنا خطاً منوراً يرى لمعقبه حقائق بيضاء كان الإنسان فى معزل عنها ، فبه يعلم ما كانت عليه تلك الأمكنة التى كنا نظنها خاوية على عروشها خالية من المدنية والحضارة ، وكيف كانت آهلة بالسكان ، ومعمورة بأعمال ابن الانسان التى دفنتها أفاعيل الطبيعة فى أعماق الأرض ، وخزنتها أحقاباً طوالاً . . .

ولقد زاد العلم التاريخ قيمة منذ تأثيره عليه ، لأن به توسعت الفلسفة التاريخية وأصبح من واجباته الأولية البحث عن مدنية الأمم ونهضتها العلمية والاجتماعية ، بعد أن كانت تتلقاه العقول مجرد قصة تسرد حوادث فارغة ، وما من غاية له إلا تفكهة الانسان ، وتسليته فى أوقات الفراغ .

ولقد كان الانسان فيما مضى يمر بالوقائع التاريخية ، وخصوصاً القديم منها فيستسلم لها عقله الضئيل على ما فيها من المبالغات الخارقة ، والاغراق البالغ النهاية ، وما يتخللها من تحريف أو تخريف ، وهذا السبب هو الذى دعا علماء العمران إلى وضع حد نعرف به الصدق من الكذب ، والصحيح من السقيم ، والغث من السمين ، وهى ـ على مالها من التنقيح لبعض المسائل وتحريرها ـ لا تفيدنا فى بعض الأشياء التى تحتاج إلى تدقيق شديد شيئاً .

ولهذا فأنه رغماً عن تمحيص العمرانيين والاجتماعيين لحوادث التاريخ بتلك القوانين التى وضعوها أصبح الباحث لا يعتمد فى بعض المسائل إلا على ما ينطبق على الحفريات الجديدة ، وقواعد الآثار القديمة ، ودعاه التحقيق إلى أن يتوقف فى بعض الحوادث الأخرى ، كسد يأجوج ومأجوج ، وحوادث سبأ ، وإرم ذات العماد ، والوقائع الاسرائيلية التى حدثت فى طور سينا وغيرها من الحوادث .

فالعلم نقل التاريخ من دور مبهم كان فيه مستتراً تحت حجب الخفاء ، وأصبح الكثير من مسائله يستند على كشفيات جيولوجية تبين للناس ما كانوا يجهلونه من أدوار حياتهم ، وزادت على الحوادث التاريخية حوادث أخرى تبين لهم ما كانوا عليه بادئ بدء ، ثم ما وصلوا إليه من العظمة والمدنية ، وما أتوه من جليل الأعمال ، وباهر الآثار .

ولقد تعدى تأثير العلم إلى اللغات ، فإنه منذ انتشر توسع باب النحت والاشتقاق توسعاً أفضى إلى إيجاد الألوف المؤلفة من الكلمات العلمية والاصطلاحات الفنية ، ولغتنا العربية هى موضع الدقة فى هذا الموضوع ، إذ أنها لا تشبه بقية اللغات من افرنسية وانكليزية وألمانية . فإن تلك اللغات كالجسم المرن ، يقبل كل كلمة سواء كانت يونانية أو لاتينية أو غير ذلك ، وتكتفى فى تبديلها بعض التبديل . غير أن اللغة العربية لا تكتفى بهذا المقدار الطفيف من التغيير ، ولهذا فإنها فى أشد الحاجة إلى مفكرين يعمدون إلى تلك الكلمات الأجنبية ويطرقون باب النحت والاشتقاق فيعربون الكلمات العلمية والاجتماعية بما يلائمها إن لم يكن بما يرادفها تماماً .

ولقد فكر جماعة من أهل العلم والفضل فى هذا الاصلاح اللغوى فى مصر فى عهد محمد على ، بعد تحققهم أن باصلاح اللغة إصلاح حال الأمة ، وبقدر

محافظة الأمم على لغتها ، وعنايتها بآدابها ، تزداد قوى جامعتهم صلابة وتكون لهم من عاديات الغيَر خير ملجأ أمين ، فقاموا يبذلون الطارف والتليد ، ويصرفون كل مرتخص وغال لجمع الأسباب التى تبلغهم هذه الغاية من تعريب الألفاظ ، وتوسيع الكلمات ، ولكن وا أسفاه قد وقف فى سبيلهم من العقبات والعراقيل ، ماأثنى هممهم ، ولوى بعزائمهم وخار بقواهم . وعرض لذلك المشروع من الانحلال ما يعرض المشاريع الشرقية .

ولا إخال ذلك الصوت الذى رن صداه اليوم فى الديار المصرية ، فتسمع له فى أكباد المصلحين أنيناً ورنيناً ، إلا أسمعكم حفيفه المنبعث من ذلك الرنين والأنين . فقد تألفت منذ أشهر جمعية عولت على تعريب الآثار النفيسة لمشاهير العلماء والأدباء من الأمم الغربية ، ولم تأل جهداً فى الأخذ بأطراف الأسباب التى تنمى اللغة ، وتزيد فى ثروتها ، بحيث لا تدع الناطقين بالضاد أن يأخذوا العلم إلا عن لغتهم . وقد أذكرتنى هذه الحادثة عهد المأمون وجمعه حول سريره العلمى فئة من أهل العلم والأدب وأولى الباع الطويل فى الترجمة ، فقطرت من عينى دمعتان حارتان ، دمعتان أولاهما ممزوجة بظلام اليأس ، والثانية مشرقة بأشعة الأمل : دمعة حزن ، ودمعة سرور . قطرتهما عيناى ذكرى ، نعم ، ذكرى لذلك المجد العربى القديم ، وهذه النهضة العربية الجديدة . .

ولا ينكر أحد أن جماعةً فى مصر قد خدموا اللغة خدمة جليلة فأنشأوا يعنون بوضع مرادفات للألفاظ الجديدة المتولدة من العلم ، ويشتقون أيضاً منها كلمات جديدة ، ويكسونها ثوباً من العربية قشيبا ، كوضعهم لفظ «المكبرة» للمكرسكوب و « المجهر» للتلسكوب و « المنطاد » للبالون ، و « البرق» للتلغراف و «اللاسلكى» أو « الأثيرى » لتلغراف ماركونى و «التصوير الشمسى » للفوتغراف و « الحاكى » للفونوغراف ، و « الصور المتحركة » أو « الألعاب السحرية » للسينماتوغراف

و «الشارى» لقضيب الصاعقة ، وغير تلك الكلمات . وكاشتقاقهم لفظ «التكهرب» من الكهرباء و «التمغنط» من المغناطيس و «التأكسد» من الأوكسيد و «التبلر» و «التشهب» وغير ذلك من الألفاظ التى دعت أهل اللغة إلى وضعها تصويراً للأفكار ، و إعراباً عن المشاعر .

هذا هو تأثير العلم على اللغة ، فمن منا لا يحس بحاجة اللغة إلى التعريب والاشتقاق لنقل تلك الكلمات التى ملأت بطون الكتب منذ أخذ العلم يتدرج فى سنة الارتقاء ؟ ومن منا لا يتألم لام اللغات وهى على قابليتها واستعدادها قد حرمها أهلها حق تلك القابلية التى منحتها إياها الطبيعة ، خلا رجلا يمد لها يد المعونة و يوفيها حقها و يكون لها من الناصرين ؟ اللهم إلا البعض من تلك الفئة القليلة والأفذاذ المعدودة وقليل ما هم .

وسرى تأثير العلم إلى التمثيل فاستدعى ذلك قربه من مظاهر الحقيقة ومناظر الطبيعة بينما كان يهيم فى أودية الأوهام والخيالات ، فاستبدلت تلك المظاهر التى تنم عن التكلف المحض ، وكان وجودها لمجرد الزينة فقط ، بمظاهر أخرى تمثل زينة الطبيعة وجمال الكائنات ، لدرجة أنه إذا احتيج فى بعض الأمور إلى وضع شىء من المخترعات الجديدة يضعونها حرصاً على الحقيقة ، وتمسكا فى أن يبثوا حس حياتها فى أرواح المشاهدين .

وللعلم فى التمثيل تأثير غير هذا ، فإنه قضى عليه قضاء مبرماً أن يراعى الحركات الطبيعية كما هى : كالمحيط ومؤثراته من التولد والنشوء والتربية ، بحيث إذا شهدت مشهداً منه أو فصلا كأنك تشهد إحدى البلاد التى تعلمها ، أو تدرس تاريخ بلدة لم تكن لتعلمها من ذى قبل .

ولم يختص التمثيل وحده فى هذا التأثير طبعاً فإنه تدرج إلى الروايات أيضاً .

ومذ ذاك تشعبت مذاهب الروائيين فى أوروبا فكان منهم الخياليون الذين

فضلوا أن يكتبوا ما تمليه إحساساتهم وقرائحهم ، و بعبارة أخرى : ايثار المؤلف كتابة ما يجب أن يكون . ومنهم « الحقيقيون » ، الذين يكتبون ما تمليه عليهم الطبيعة أو ما هو كائن فعلا . ومنهم : من كان يبث الحقائق العلمية فى قالب رواية ، كالسياحات القمرية ، أو الصعود فى المنطاد فى الهواء ، أو الرحلة إلى الأقطاب الجليدية ، و يقال لمثل هذه الروايات « الروايات العلمية » .

ولقد نشأ من « الحقيقيين » ـ كما نشأ أيضاً من الخياليين ـ مذاهب أخرى لن تفرق عنها إلا بأشياء قليلة ، منها المذهب الذى اتبعه جول فرن فى كتاباته الروائية . ومنها المذهب الذى يدعى بالطبيعى « ناتورالیزم Naturalisme » . وهذان المذهبان متشابهان بعض التشابه ، لـكنهما فى الحقيقة معدودان من فصيلة واحدة ، غير أن الفارق بين هذين المذهبين هو أن « جول فرن » كان يمزج تلك الحقائق بخيالات غريبة ، والمذهب الطبيعى عار عن تلك الخيالات .

ولا تنسوا أن كلا من هذين المذهبين قد اتخذ الأسلوب العلمى أساساً ، ومعنى ذلك أن أربابه كانوا يكتبون الوقائع مستعينين بالروح العلمية معاً ، كما كان يكتب أرباب « الروايات العلمية » بقوة العلم حقيقة وحساً ، وأنصار ذينك المذهبين لا يهتمون بشىء سوى إظهار الحقيقة بكل تفرعاتها وتمثيلها عارية مجردة من رداء التموية الذى يغشى رداؤه الظاهرى الأنظار ، وتغش برقشته الملونة الأبصار .

ولقد كتب عن المذهب الطبيعى بعض كتاب الأفرنسيس ، قال : « إن المذهب الطبيعى لم يكتف بالتدقيق والمشاهدة ، بل قام بدعوى عمل التجربة والاختبار ، فتصوير أشخاص الوقائع ، وربط إحساساتهم وحركاتهم بماضيهم ، وتدقيق المحيط المادى والاجتماعى ، والبيئة من أجل إيضاح سبب تشكل أشخاص فى ذلك السبيل ـ كل ذلك معناه تتبع أصول خاص بالعلم » ، ثم قال : « إن الروايات فى فرنسا قد عقدت عزما قطعياً ، وأزمعت على تصوير الحقيقة ـ التى هى نتيجة

العلوم والفنون ـ بأجمعها ، وقد عقبت ذلك العزم القطعى فى ظرف ثلاثين سنة من الزمن » .

ذلك تأثير العلم على ذينك المذهبين، وعلى الروايات، من حيث دس القوانين العلمية فيها. وكلكم، أو بعضكم قد قرأ فيما أظن بعض تلك الروايات التى دبجها يراع الحقيقة: فإن الناظر إلى تلك الروايات، والمتتبع حوادثها بالدقة التامة ليُحِسُّ عند قراءتها بنابض الحركة، فيرى قلباً يضطرب، وفؤاداً يختلج، و يشعر بحركة أشخاصها الحقيقية، و يتحسس بتلك التأثرات والانفعالات، و يشعر خلالها أن نَفَسَاً يمر على شعوره فيهب حاراً مديداً . . .

ولم يقف تأثير العلم عند هذا الحد ، بل قد تعدى إلى الشعر بعد أن قد ظن قوم أن العلم سيسدل على الشعر ستاراً أبدياً فلا يعود من الممكن أبداً أن تخترق أشعته المذهبة ذلك الستار الكثيف، حتى بلغ الوهم بالبعض إلى أن هام فى اعتقاد أن الشعر ، سيسود على خيالاته المزهرة دخان المعامل ، وستسحق روحَه الرقيقة أثقال الحديد !

ولا يسعنى وأنا فى موقف كهذا أن أدفع تلك الأقوال الواهية الواهنة ، أو أن أجيب عن مثل هاته الآراء السخيفة، إلا بما أجاب به الشاعر العظيم (فيكتور هوغو) حينما أُلقى هذا البحث على سمع منه : « إن دعوى تغلب العلم على الشعر تشبه قول من يقول : قد نفدت الورود من هذا العالم والربيع قد أسلم روحه ، والشمس قد فقدت ما تعودته من الشروق، ومهما جلتم فى الحقول كلها لاتصادفون فراشة طيارة، ولم يبق قمر يضيء، ولا بلبل يغرد، ولا أسد يزأر، وكأن شواهق هذه الجبال البالغة عَنان السماء ليست أمامنا فى هذه الباحات ، وليس ثمة فتيات جميلات ، ولا فتيان ، ولا من مفكر فى القبور ، ولا فى صيحة هذه الحياة . . . وقد انقطعت عواطف الحب المتصلة بين الأمهات والأطفال ، والسماء قد انكدرت

ومات قلب البشر ! وأمثال هاته الأقوال المخالفة للحقيقة » .

وليس المقصود من تأثير العلم على الشعر أن ننظم الكتب العلمية ، أو أن نبيّن بعض القوانين العلمية بلسان شعرى ، كلا ، ثم كلاّ . . . فإن مثل هاته الأعمال لا تعد سوى اسقاط لمنزلة الشعر التى خلقت له ، بل المقصود إظهار بعض النتائج التى يسببها العلم و يربطها بالحياة الإنسانية ، فننظر إلى العامل وهو يشق ظلمات هذه الأرض لينتشل من تلك الطبقات تلك الخزائن الطبيعية ، وقد حرمته الحياة أشعة الشمس المشرقة وحرارتها ، ونرصد حركاته وهو يعمل فى تلك الحفرة التى ملئت بالغازات السامة فتعذر عليه تنسم الهواء تارة ، وقد قتلته تلك الغازات التى لا تصلح للتنفس بسمومها ، وتفجرت عليه براكين المنجم فأبادته بنيرانها تارة ، وتداعت على أم رأسه فسحقته بأثقالها تارة أخرى . . .

وهكذا إذا دققنا مجرى حياته العملية ، نعلم أن ذلك كله لم يكن إلا من الحياة ، ولأجل الحياة ! . . .

ذلك ما نقصد من تأثير العلم على الشعر ، وتحريكه اللسان الشعرى ، لتصوير شقاء هذه الحياة وما يحفها من الآلام المرة فى هذا العالم المادى ، ونقشها بيراع مضطرب . . . حزين . . . بيراع أسود ، يهيج العواطف الملكية من أجل هذ الإنسان .

على أن للشعر طرقاً أخرى جمة لإظهار بعض النتائج العلمية من غير تلك الطريق ، فالشعر ساعد أمين يعلى من شأن أرباب العلوم والمعارف الذين آلوا أن يسموا بمراتب العلم إلى سماء الكمال ، ويستقبل تضحيتهم بنفوسهم تلقاء اكتشاف المجاهيل بصدر رحب ، وثغر باسم .

وما مثلهم فى ذلك إلا كمثل أولئك القواد الذين يقصدون ساحات الوغى حتى إذا ما تغلبوا على مناضليهم ، ونالوا النصر المؤزر ، رجعوا وقد تكللوا بأكاليل

الثناء العاطر لما بذلوه من الاقدام والنشاط فى تلك المعارك الهائلة ، فلمَ لا يكون مجاهدو العلوم والمعارف أجدر بأناشيد التبجيل من أولاء الذين يعودون من ساحات الوغى ظافرين ؟ ألأن تلك الحملات الغريبة التى حملها مجاهدو العلم لم يعدوها معارك ، ولذلك لم يحفلوا بهؤلاء المخاطرين أبطالها ؟ أو لأن شعشعة اشتهارهم لم تخضب بدماء غيرهم من أبناء الجنس البشرى ؟ أو لأن سعادتهم حصلت بدون أن يريقوا دموع البشرية الغزيرة ؟

ولا أزيدكم إيضاحاً ، بأن أرباب العلوم والمعارف منهم من مات بؤساً فى سبيل خدمة العلم ، ومنهم من زهقت روحه يأساً من حل مسألة تتعلق بالعلوم ، ومنهم من مات شر ميتة لنشره بعض الحقائق العلمية التى كانت تجول بخاطره ، وأُريق دمه ظلماً وعدواناً كغاليلو لما قال بحركة الأرض ، والكثير منهم قد هجر قومه وصحبه وأقاموا بينه وبينهم حرباً عواناً لجهره ببعض النظريات والقوانين مثل دارون لما أعلن مذهبه فى قانون النشوء والارتقاء ، ومنهم من قد أصبح حمة مما يتساقط من أفواه البراكين الجهنمية ، ومن ذهبت حياته لتعاليه فى الأجواء ، ومن ضم بين طبقات الثلوج باكتشاف شيء من المجاهل القطبية ، أو ليس كل هذه أقاصيص فجيعة توجب اهتزاز فؤاد الشاعر رحمة بذلك الإنسان الذى تعالى إلى فضاء المجهولية لقاء تسخير شيء منه ؟ أو ليس كل هذا مما يقوى حركة عواطف اللسان الشعرى ؟ أو ليس كل هذا إلا مؤثرات تملأ روح الشاعر ، وتدعو إلى انصباب خيالاته ؟ نعم ، ولولا أولئك المجاهدين لما انتظمت للأمم الراقية مدنية ولا حضارة ، ولكان الأفراد المنوَّرون اليوم فى ضلالاتهم يعمهون .

وبعد ، فإن زعماء الإصلاح اليوم ، أحد رجلين : رجل لا يألو جهداً فى الدعوة إلى العلم لاعتقاده أن الأمم لا تستتب لها عوامل النهوض ولا يمكن أن تقوى فى معترك الحياة بإزاء الأمم المتقدمة ، وقوى مدنيتها الحاضرة ، إلا إذا عم بين

طبقاتها العلم ، ورجل لا يفتر عن جذب أفئدة الأمة إلى الميل إلى العلوم الاجتماعية وأخذ النفوس البشرية بأهدابها : فالطبيعى مثلا ، يقوم و يعدد منافع العلوم ، و ينسب نهضة الشعوب الأوربية والأمريكية إليه ، وهكذا الأخلاقى أيضاً يدعو إلى تربية النفوس وأن على تهذيبها مدار نهضة الأمم وسعادتها ، وكذلك المؤرخ ينهض بداعى أن الأمم إذا تذكرت مجدها الغابر ، وعظمتها الطامسة أعلامها تدب فيها روح الحميـة ، وتقوم لمناصبة الأمم المستبدة ، و بذلك يمكن أن تعيد مجدها وعظمتها ، وهكذا الروائى والمصلح الدينى ، وكل من يقوم بإصلاح مهما كان مبدؤه وكيف كانت عقباه .

انهم كلهم مختلفون باختلاف مبادئهم التى يطالبون بمتابعتها والعمل بما تسنه شرائعها ، وكل ينظر إلى نقاط مختلفة يريد أن يدخل فى تلك النقاط ذلك الشعاع الإصلاحى الذى يحيى به كل شيء .

و إنى أرى أن ثمة واجبات علمية واجتماعية إذا قمنا بها حق القيام يمكن لنا أن نسترجع بها ماضى مجدنا ، وتلك العظمة العربية التى كان منبعثها آسيا ، فدخلت القارة الإفريقية ، مصر فتونس فالجزائر ، ثم اجتازت تلك البلاد إلى أوروبا فعمت ربوع الاندلس ، وعلى سطحها أشرقت وازدهت ، وتحت سمائها كسفت وأظلمت ، فكانت الأندلس مدفناً لتلك العظمة التى تتقطع لها النفوس ، وتطير إليها الآهات المحترقة حتى تغرب هـذه الشمس ، أو يأتى الله بامر من عنده فنحيا حياة ثانية . . .

ولا يمكن هذا إلاّ إذا استمسكنا بكل من الواجبات العلمية والاجتماعية فى تقريبها ، ليشتد ساعدنا ، و يقوى عضدنا .

فيجب علينا أولا : أن يقوم بيننا علماء يبثون روح العلم ، و يسعون فى نشر الكتب العلمية المفيدة ، لتقوى محاكاتنا وتنمو مداركنا .

يجب : أن يكون بيننا أطباء يعملون لخدمة الإنسانية ، و يدوسون بأقدامهم منافعهم الشخصية ، و يستفرغون المجهود فى هذا السبيل .

يجب : أن ينهض بين ظهرانينا شعراء عصريون ينظمون القصائد لاستنهاض الهمم ، وشد العزائم ، و إيقاظ هذه الأمة من هذا السبات العميق !

يجب : أن نأخذ بيد الصحافة ، ونعضدها بكل ما فينا من القوى المادية والأدبية ، لأنها رسول العلم بين الأمم ، وقائد الاجتماع إلى ما فيه الخير والنجاح .

يجب : أن نسعى لقلب هيئة التمثيل ، وأن نقويه ، ونذكر نهضة فرنسا أيام قام روائيوها يملئون الصحف بتلك الأفكار الحرة ويطئون ساحات التمثيل فيمثلون للأمم الشورى ، واستبداد الملكية مما خلد لفولتر ، وروسو ، وهيكو أسماء كبيرة على صفحات التاريخ فى مستقبل الأيام .

يجب : أن ينبرى خطباؤنا الحقيقيون ، يقفون على أعواد المنابر و يلقون على آذان الأمة ما يصل صداه إلى أعماق قلوبها فينهض الناس من ذلك الخمول الذى هم فيه غارقون .

وهكذا إذا تمت واجباتنا العلمية والعملية أمكن لنا أن نسترجع ذلك المجد الدارس ، والفخر الطامس . . . وكنا من القوم المصلحين .

سماء تركيا (1)



سادتى الأماثل ،

تحت سماء الحرية ، وفوق أرض العدل ، نرى من الشعب تلك النفوس التى كانت مسجونة مظلومة ، مغلوبة على أمرها ، تتلاقى بثغور باسمة وتتصافح يداً بيد مهنئا بعضها بعضاً . . . فى كل زاوية من زوايا بلادنا المحبوبة ابتسامات براقة تطير . . . هنا ضحك يخرق حجب السكوت . . . وهناك قهقهات تتصاعد إلى العلاء . . . فى الحفلات العامة أرواح يضرب صخبها إلى عَنان السماء منادية : « فلتحى الحرية والعدل والمساواة . . فلتحى الأمة والوطن والدستور . . . فليمح الاستبداد والاستعباد . . . وليمت الحشو شر ميتة . . . » أمانى تبرق على نواصى رجال الأمة . . . آمال تزهر فى صحارى القلوب . . .

نعم ؛ هذا حديث الأمة ، وهذا حالها اليوم ! . .



يقول (دانتى) شاعر إيطاليا : « لا حمل أثقل على عاتق الإنسان من ذكر ماضيه المجيد فى حاضره التعس . . . » واليوم يمكن أن يُقال : « لا شىء ادعى لبث نشوة الطرب فى نفس الإنسان من ذكر ماضيه المظلم فى حاضره المضىء . . .



(1) خطبة ألقيت فى حفلة لجمعية (النهضة العربية) مساء 8 رجب 1326 بمسرح القوتلى بدمشق ، لمناسبة الانقلاب الدستورى فى تركيا ، وتقدم التنويه بها فى ص 7

مرت على هذه الأمة أدوار انبثق لها فى خلالها فجر السعادة ، فكانت أيامها بيضاء ، ولياليها زرقاء ، فرأت النور أمامها فتقدمت إلى الأمام ، نعم ، إلى الأمام تقدمت بخطوات الأغوال ، وما لبثت أن تلبدت فى سمائها غيوم الفتن والاستبداد فاسود أفقها النير ، وغربت تلك الشمس من سماء المشرق بعد أن كان يستفيد من حرارتها وينتفع بضيائها العالمون . تلك الثورات الهائلة التى نشأ عنها تشتت فى المذاهب وتدهور فى الجامعة وتفريق فى الكلمة ، فرجعنا القهقرى ، حتى أخذ الظلم يضرب بأوتاده فى أعماق هذه الأرض ، فهضمت الحقوق وبيعت الرذيلة بالفضيلة بيع السماح ، وبدأ نصراء الباطل يعيثون فى الأرض فساداً وكانوا من القوم الظالمين !

وما زال زعماء الإصلاح فى هذه الأمة يدرسون أسباب انحطاطها وتأخرها لاقالة عثراتها ، وانتشالها من وهدة الانحطاط أدبياً ومادياً فرأوا أن خير الوسائل لهذا هو تهيئة رجال للمستقبل على مبادىء دستورية ثم تتشكل الجمعيات ، وتتألف القلوب على مبدأ واحد وفكر واحد ، حتى إذا ما حصل انفجار كهذا يكون منهم رجال عاملون يسعون فى أن يتقدم حزب الاحرار على حزب التقهقر ، وتبذل النفس والنفيس لتنفيذ أحكام القانون الاساسى ، ويكون عندها من المعدات ما يمكن به أن تدفع ما يطرأ عليها من المصادمات كما هو الحال اليوم .

انفجرت علينا أول أمس سماء تركيا بشلالات الحرية ، كان الباعث على ذلك قوة ضغط عظيمة ضيقت الخناق على الامة سنين وأعواماً . فكانت الامة بإزاء هذا كمن ولد فى الظلام فقضى دور الشباب والفتوة فى سرداب ضيق ، فخرج بغتة بوجه مصفر ، وجسم نحيل ، لانه لم ير حرارة الضياء من ذى قبل ، فأراد أن يفتح عينيه لاول وهلة فلم يستطع إلى ذلك سبيلا . غير أنه لم يمض على ذلك أيام قلائل حتى احمرت وجنتاه ، واعتدل من قامته ما كان محدوباً ، وأكسبه الضياء مواد كيماوية بها صار قوياً يقاوم ما استطاع .

هذه الحرية التى ننشق نسيمها اليوم أيها الإخوان ، هى الأمنية التى ليس وراءها وراء ، وهى منحة كبيرة قد وهبتنا مواهب عظيمة شتى ، فيجب أن لا يفر من بين أيدينا من مواهبها شىء ، و بالأحرى يجب أن لا نسيء استعمالها فى حالٍ من الأحوال . . .

الدواء الذى يصفه الطبيب للمريض هو فى حد ذاته أيها الإخوان نافع ولـكن إذا أُسيء استعماله بأن أُخذ بكمية أكثر من اللازم أهلك صاحبه ، ولا غرو فمتى زاد الشىء عن حده انقلب إلى ضده ، وتلك سنة هذا الوجود .

من أجل هـذا أناشدكم الله والدستور أيها الإخوان أن نخلص للحرية بأن لا نسيء استعمال هذا الدواء الناجع ، وأن لا نضيع من هذه الدرر الثمينة التى منحناها شيئاً .

وإنه ليسوء الحرية كما يسوء العدل والدستور قوم لا شهامة لهم ولا مروءة ، وليس عندهم وازع دينى ولا أدبى ، ولا حقَّ لهم بأن يلفظوا من بين شفاههم كلمة الحرية المقدسة فضلا عن أن يزعموا — وبئس مايزعمون — أنها ليست سوى هتكٍ للأعراض ، وسلب للأموال ، وتجاوز فى الحدود ، وتعد على الحقوق . . . إذا كانت هـذه حريتك أيها الشعب فباطلة قوانين الدستور ، وعبثاً تتقدم ولو خطوة واحدة إلى الأمام ! وأحرِ بحرية كهذى أن تداس بأقدام الاستبداد ! . . . .

الحرية هى ينبوع كل عمل نافع ، ومصدر كل فضيلة إنسانية ، وهى هى التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وما عدا ذلك أيها الإخوان فليس من الحرية فى شىء ، بل ما ذكر جملة أعمال المتهورين الساقطين فى هذه الهيئة الاجتماعية ! .

ولتعلم الأمة أنه قبل أن تظلنا الحرية كنا جبناء مستضعفين فغدونا أقوياء يمكننا أن ندافع عن حقوقنا دون محاباة ، ونعمل على رد كيد الظالم إذا كان يريد هضم حقوقنا ،

واضطهاد نفوسنا ، و يسعى فى توقيف أعمالنا ... فنقدر أن نقف مثلا أمام المحتسب (رئيس البلدية) الآن ونعترض على عراقيل الطرقات ، وضئولة الأضواء ، وعلى أكوام القمامات المبعثرة ، وعلى عدم إجراء التنظيفات كما يجب إذا كان ثمة ما يدعو إلى ذلك .

لتعلم الأمة أنا كنا عبيداً أرقاء فصرنا أحراراً نجهر بالحق ولا نخشى لومة لائم ونطالب بما فيه صلاح الأمة إذا كان ثمة شرير مستبد يسعى فى أن يقدم نفعه الخاص على النفع العام . . .

لتعلم الأمة أن الميزات الفارغة قد انسحقت تحت أقدام المساواة فلا ميزة اليوم إلا بالعقل والفضل ، فمن كان أوفرهم عقلاً وأكثرهم فضلاً كان أحق الناس بالاحترام والتقدم . لقد عمت المساواة الأفراد فيقف الآمر والمأمور ، والغنى والفقير ، والكبير والصغير ، أمام قاض واحد يحكم بينهما على السواء ، إذ الأفراد فى نظر القانون سواء . . .

لتعلم الأمة أنا كنا ساكتين فصرنا نرفع عقيرتنا وننشىء محافل الخطابة ونلعب على مسارح التمثيل فنمثل كل ما فيه فائدة للأمة ونفع ، كما أننا ننشىء الجرائد والمجلات سياسية كانت أو علمية . . . والمدارس على اختلاف طبقاتها .

لتعلم الامة أنها كانت مسيرة من قبل على حسب الاهواء ، ونزعات الاميال والنفوس ، أما اليوم فإنها ستسير على مناهج تخطها عقول كبيرة ، وأدمغة نشيطة ، ونفوس أبية ، أعنى به مجلس المبعوثين ، فيجب حينئذ أن تنتخب الامة من مجموعها الاكبر عقلاً ، والاكثر فضلاً ، والاوسع اطلاعاً ، والاقوى باعاً ، والافضل خلقاً . . .

وبعد فليس لنا من عضد تستند عليه الامة ، وتضع معه الحجر الاساسى لنهوضها إلا علماؤها العاملون ، ورجالها المنورون ، فعليهم تتوقف نهضتها ، و بهم يتم

نجاحها . وهم ، نعم هم ، سببُ سعادتها . . . فيجب عليهم إذن أن يسعوا فى ترقية الافراد ليرقى المجموع ، وذلك كله مدرج تحت كلمة صغيرة إلا وهى : طفل صغير ينمو ، وجاهل غر يتعلم . . . ، فبذلك تتألف الجمعيات وتتأسس المدارس ، وتنتشر الصحافة ، فيقوم بيننا أطباء نطاسيون ، ومحامون عادلون ، وصحفيون مخلصون ، وتجار حقيقيون ، وزراع عالمون عاملون ، وصناع نشيطون ، وأفراد منورون الخ ...

وما علينا بعد ذلك إلا أن نتحد جميعاً دون استثناء ، ونهاجم الاغيار التى تعمل على التهام بلادنا واكتساح أوطاننا وأمتنا ، قائلين : « فليحى وطننا ، ولتحى الحرية والعدل والمساواة » .

القومية فى الأمم[1]

تنبهت فى الآونة الاخيرة فكرة القومية أو الجنسية فى مجموع الامة العثمانية تنبهاً شديداً فاهتزت لها أعصاب العناصر كافة من عربى وتركى ، ورومى وأرمنى ، وكردى وألبانى ، فمن جاهل بحقائق التاريخ وسر تقدم الامم قام يناوئها ويناهضها بدعوى أنها مدعاة لتفريق الكلمة ، ومن مُطَّلع على الاصول متتبع تقلبات السياسة أخذ يظاهرها ويعمل على إذاعتها كمبدأ سياسى سام ، أو عامل من عوامل النهوض والارتقاء .

ولما كانت الغاية التى تسعى إليها الامم هى ضمان مصلحتها : مصلحة الفرد والمجموع معاً ، بتأليف وحدات أو بتكوين عصبيات ، وكانت تلك الوحدات والعصبيات متنوعة ، تضاربت الآراء فى أى العصبية أحق أن تتبع : هل العصبية الدينية التى تؤاخى بين أتباع ذلك الدين ومريديه ؟ أم الجامعة الإنسانية التى يقول القائل بها :

إذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربى

والحقيقة أنه كان للعصبية الدينية والجامعة الانسانية فيامضى شأن يذكر يوم وجدت الأمم فيها مصلحتها ومنفعتها فدانت لها والتفت حولها زمناً طويلاً ، أما اليوم وقد صرنا إلى زمن استحال فيه كل شىء — بعامل النشوء والارتقاء — فإن الأمم وجدت نفسها مضطرة لأن تلتف حول عصبية أخرى وتعنى بها « القومية : Nationalisme »

---

(١) نموذج من الكلمات التوجيهية التى كانت تلقى فى (جمعية النهضة العربية)

لأنها رأتها أجدى لبقائها ، وأجدر بارتقائها ، ولأنها فى الوقت نفسه وجدت فيها منفذاً إلى خدمة الإنسانية والدين معاً ، ولهذا رأيناها تدافع وتُجمع لصون أسبابها ، معتقدة بأن نهضة الكل إنما تتم بنهضة أجزائه ، وأن تقدم المجموع بتقدم أفراده .

نعم ؛ إن فكرة القومية ، ليست بدعة هذا الجيل أو ذاك القبيل ، وإنما هى بنت الضرورات الاجتماعية : Nessécité sociale ولدت فى الأمة العثمانية فكانت حديثة النشأة ، وكذلك كانت فى الأمم الغربية وهى فى بدء نهوضها ، ولئن كانت اليوم صغيرة فستنمو حتى تصير كبيرة ما دام التنافس بين العناصر موجوداً ولواؤه فيهم معقوداً وهى كبقية الكوائن تخضع لنواميس اجتماعية طبيعية ترجع إلى أن الأمة تتطلب أن تحفظ حياتها بحفظ لغتها وعاداتها وتقاليدها من الأعداء الداخلين فيها والخارجين عنها ممن يهددونها ويحاولون أن يسلبوها صفاتها ومقوماتها وينزعوا منها خصائصها وسجياتها ، كما يسعى الفرد ليحفظ بقاءه بمغالبة القوى الطبيعية ــ داخلية كانت أو خارجية ــ ليقى نفسه شرها وضرها .

ونحن إذا أمعنا النظر فى وليد هذه الضرورة رأينا أنها كانت وما برحت من أعظم عوامل النهوض ، وتاريخ النهضات شاهد على ذلك إذ أثبت لنا أن الأمم المتمدنة اليوم لم تتمتع بالحياة الاجتماعية والسياسية إلا عند ما تشبعت نفوسها بفكرة القومية وأنزلتها منزلة الاعتقاد الراسخ والإيمان الصحيح فمجدتها وضحّت لها على مذابح الثورة بنفوس أبنائها وأهرقت من أجلها دماءهم .

وما العلماء والحكماء والأدباء والشعراء إلا أبطالها ، قاموا بين ظهرانيها يصورون لها القومية خيالا بديعاً Idèal أودعوه أفكارهم وعواطفهم ثم نفخوا فيه من روحهم فتحرك حتى إذا صاح فيهم تلك الصيحة فنبه هاجعهم وأيقظ راقدهم جعلهم ينضوون تحت لواء واحد ويولون شطر قبلة واحدة .

هكذا كان أثر القومية فى الأمم وكذلك يجب يكون ، وما على من يناهضون

هذه الفكرة إلا أن ينظروا كيف تألفت الوحدة الألمانية والإيطالية والامريكية وغيرها ، وليدرسوا ما وضعه زعماء تلك الامم من المبادىء السامية فيتعلموا كيف دفعوا عنهم غارات الاجانب والدخلاء واحتفظوا بمقومات أمتهم و بلادهم فنهضوا وتقدموا ، كما رأينا فى هذا العهد مثالا صالحاً من نهضة البلغاريين واليونانيين وغيرهم من الامم المتخلفة ممن طرسوا على آثار الامم السالفة فأخذوا بأسباب الارتقاء ، وكانت النتيجة ما عرفه العدو قبل الصديق . حتى كادوا أن يحققوا خيالهم الذهبى المضىء ، خيال قوميتهم المرفرف على شواطىء البحر الابيض والممتد ضياؤه إلى الدردنيل فالبوسفور .

وقد أدرك إخواننا الأتراك هذه الحقيقة فقاموا يباهون بقوميتهم ويتغنون بذكرى وطنهم ، وبدؤا يسعون السعى الحثيث فألفوا عدة جمعيات تركية محضة مثل « ترك درنكى » و « ترك أوجاغى » و « ترك يوردى » وأنشأ أدباؤهم مجلات بهذه الاسماء ، وأخذوا يوالون نشر المقالات الطائلة فى تاريخ الامة التركية مفتخرين بأمثال « تيمورلنك » و « جنـكيز خان» وغيرهما من الفاتحين منقحين على قدر الامكان من لغتهم الـكتابية التعبيرات العربية والفارسية ليفهمها أبناء الاناضول ، ويطوف مفكروهم فى البلدان التركية لتنبيه الافكار العامة ، ولا نزال نقرأ فى أمهات صحفهم مقالات فى القومية يقصد بها تقوية عنصرهم و إثارة نعرة عصبيتهم .

فعسى أن يكون لنا نحن العرب من ذلك درس نافع يحملنا على الاخذ بالجديد المفيد ، وطرح النظريات الرثة البالية فى عصر ليس الحـكم فيه إلا للقوة والمصلحة القومية ، بعد أن رأينا من نتائج الاهمال ما يرمض و بعد أن علمنا علم خصائص الشعوب (اتنوغرافيا) أن لـكل عنصر ميزاته وسجياته Caractères و بين لنا ما بين كل أمة وأمة من الفروق فلا تتحد بعضها ببعض إلا فى أحوال خاصة وشروط معينة كما تتحد العناصر الـكيماوية أو تفترق .

التعليم بالعربية[1]

كثر السؤال فى هذه الآونة عما إذا كانت طريقة التعليم المتبعة اليوم فى مدارسنا صالحة لاشاعة العلم الصحيح الذى يعتبر واسطة عقد الاصلاح ، وأنه مما يبعث على النهوض بهذه الأمة التى كانت وما زالت ألعوبة تتقاذفها أيدى الاهواء والنزعات فلا تستقر على حال من القلق ، أم أن تلك الطريقة هى الضربة القاضية على حياة رجال المستقبل ، فتولد ضعفاً فى ملكاتهم ، وعقماً فى أفكارهم ، حتى يموت المتعلم منهم خاملاً تافها ، كما ولد غراً ساذجاً .

هذه هى المعضلة الحيوية التى يفكر ذوو النظر من زعماء الاصلاح فى حلها حلا سلمياً دون أن تستدعى اشهار حرب قومية ضروس تدير رحاها الأقلام فتثير ما كمن فى النفوس من عواطف الشمم والإباء .



وبعد فأول ما يراد من إصلاح التعليم هو أن يكون أولا بالعربية إذا كانت المدارس مشيدة فى بلاد يقطنها الناطقون بالضاد ممن انحدروا من أصلاب العرب العرباء . إذ أن غاية التعليم إرشاد الأمة إلى ما فيه صلاحها وإصلاحها ، ولا يتم لها ذلك إلا إذا توفرت على الأسباب التى من شأنها أن تأخذ بناصر اللغة العربية

---

(١) من البحوث القومية التى كانت تلقى فى (جمعية النهضة العربية)

والعمل على إشاعتها فيما بينهم جهد الطاقة ليستتب لهم التفاهم بلغة سوف تعود إلى نضرتها الأولى إذا أصلحت طريقة التعليم ، وكان التعليم بالعربية بالغاً منتهاه من العناية كتابة وقراءة وإلقاء .

ولقد ثبت بالاختبار أن الرجل إذا أخذ من العلم بنصيب بغير لغة أمته لا يرجى منه – فى الأعم الأغلب من أحواله – أىُّ خير لقومه ، ولا بدع فاللغة من الذرائع الكافلة لتقويم الحياة القومية .

ومما لا مشاحة فيه أن من يسعى ليصل إلى دماغه شعاع من نور العلم بلغة غيره يكون قد أضاع من هذه العاطفة شطراً كبيراً إن لم تصادفه بيئة تميتها وتحييه هو بناموس (التقمص الجنسى) فتمثله فى عاداته وأفكاره وميوله غير ذلك الرجل الذى كان بالأمس ذرة حية فعالة منضمة إلى جسم كبير .

وليس أدعى لابادة حياة الأمة وانزالها منزلة من كتب عليهم أن يكونوا محكومين أبد الدهر فضربت عليهم الذلة والمسكنة ، من السعى وراء إماتة لغتها التى يتفاهم بها أبناؤها .

يصعب على من يتعلم العلم بلغة غيره أن يفيد أبناء جنسه بغير تلك اللغة ، و يستحيل عليه أن يبث فيهم من روح علمه بلغة قومه . بيد أنه إذا طال عليه الأمد ولم يضرب فى لغته بسهم وافر نسي لغته ولم يعد يعرف لغيرها ركزاً أو رمزاً ، وكان أشبه بالغراب الذى همّ أن يقلد مشية الحجل فنسي مشيته ولم يعد فى وسعه أن يأتى بمشية غيره .

كل أمة تود أن تنهض من غير طريق العلم فهى تحاول أن تستخرج من نشارة الخشب غذاء تتبلغ به ويسد رمقها ، وكل علم لايبلغ إلى الأذهان بغير لغة البلاد

يكون عقيما ، وربما أوشك أن يورد صاحبه موارد العطب فيكون موته بما رغب أن يحيا به ، وكان امحاق لغته وازهاقها هو السهم الاخير الذى حاولوا أن يريشوه ففعلوا وهو على غير بينة من العلم فأصابوا منه مقتلا ليس بعده إلا العفاء والاندثار .

بذل الساسة من رجال الاحتلال فى مصر مجهودهم ليستعيضوا فى المدارس بالانكليزية عن العربية ، فقامت قيامة الصحف فى الديار المصرية تخطىء من تجول فى أفكارهم هذه الخواطر المظلمة ، وتندد بالقائلين بهذه الفكرة ، وساوت فى هذا التنديد بين الكبير والصغير حتى أصيب السير غورست عميد الاحتلال من هذا الجدال الأدبى العنيف بشطر كبير .

أما نحن فمن ذا قام منا يدافع عن لغته من كيد من يناوئها من أبنائها وغيرهم ؟ ان الذنب كل الذنب لا يقع على من احجموا عن الخوض فى هذا الموضوع وحدهم ، بل يشترك فيه من لم يغرس فى نفوسهم منذ درجوا من عشهم حبّ اللغة والوطن ، لينشأ ناشئاً وروحه متشبعة بالعواطف الوطنية الصحيحة كما فعلت الأمم الناهضة فيما مضى لا سيما الفرنسيس يوم قال قائدهم الكبير نابوليون : « علموا الافرنسية ففى تعليمها خدمة للوطن » ، وكما تفعل الشمس المشرقة (اليابان) الذين يهتف طفلهم وهو فى مهد الطفولة قائلاً : « لبلادى حيثما كنت وفى كل مكان الحب الأول فى قلبى ، دمى وروحى ومالى ، والعرق الذى يسيل من جبينى فداء لك أيها الوطن المحبوب ! » .

و بعد فإنّ العناية بغير لغتنا والاضراب عن لغة آبائنا هو الذى سبب لنا هذا العجز الكبير فى ميزانية التقدم ، وإن هو إلا نتيجة سوء التربية والتعليم .

وإنك لترى هذا العجز ممثلا فى أقوالنا وأفكارنا وكتابتنا حتى فى صحفنا التى

يزعم أربابها أنهم أساتذة الـكون ، وما معظمها إلا مجموع موضوعات قديمة من نسيج الدور الغابر أخنى عليها الدهر ، إنها أساليب فى الـكتابة يجب أن تلحد فى أخاديد العدم .

نحن نريد أن نرى بين ظهرانينا نوابغ بكل معنى الـكلمة ، لا أناساً ظنوا أنهم على شىء من العلم ، وما حملوا إلا حشو ألفاظٍ ونظريات كتّابٍ امتزجت فى أساليبهم روح الطريقة الجديدة تبعاً لناموس الارتقاء ، مع الاحتفاظ بالعربية الصحيحة .

نريد أن نرى مؤلفين يدخلون غمار الموضوعات النافعة من اقتصاد وحقوق وسياسة وعلم وأدب وتربية ، فيخوضون عبابها مجلبين مبرِّزين .

فاذا تمت لنا هذه الأمنية أمنا غوائل ثورة سياسية بنهضة أدبية تـكون من ورائها حياة البلاد والعباد .

والسلام عليـكم ورحمة الله

الثورة الفرنسية[1]

أيها السادة ،

. . . .

. . . .

أما الفلاحون فإنهم كانوا أكثر ولداً وعَدداً ولكنهم أقل مالاً وعدداً ، وكانت الحكومة لا تساوى هذه الطبقة بالطبقتين الباقيتين فى حالٍ من الأحوال . فوسدت إلى النبلاء المناصب والمراتب ، وكانوا هم ورجال الكنيسة معافين من كل ضريبة ، فمن القرويين كانت الحكومة تتقاضى ضروب الضرائب ، ومنهم كانت تكتّب الكتائب وتجند الجنود . وكانت الزراعة من التأخر بحيث ساءت معها حالهم . وفوق ذلك كله فقد كان النبلاء يسومونهم سوء العذاب ويستخدمونهم فى المصالح كأنهم عبيد أرقاء . ولم تكن التجارة بأقل من أختها انحطاطاً ، فلم يكن ثمة آلة للصناعة ، حتى كانت الإبرة تصنع بالأيدى . وكانت النفوس قليلة جداً حتى كانت نفوس مدينة ليون التى هى اليوم فى الدرجة الثانية بعد باريس زهاء مائة ألف فقط .

وبلغت حال الفلاحين أشدها من الفقر المدقع ، حتى أنهم كانوا لا يجدون ما يتبلغون به ، ووقع لهم أن كانوا يقتلون من يرون بيده رغيفاً ليسدوا به رمقهم . أُرِىَ مرة الدوق دورليان الملك رغيفاً فاسداً عفناً أسود وقيل له : « أيها الملك ان شعبك يتبلغ بهذا الخبز » . وسأل مرة الملك أسقفه عن أحوال رعيته فأجابه : « إنهم

(١) من الخطب التى كانت تلقى فى (جمعية النهضة العربية)

يا مولاى كالخراف يقتاتون بالعشب ، وكأنى بهم يهلكون كالذباب من الجوع » .

وانتشر القحط والغلاء فى أطراف البلاد حتى كاد الأهلون يقضون عن آخرهم. وكان الشعب من الغرارة والسذاجة بحيث لا يعرف إلاّ الطاعة العمياء للملوك أيام كانت الحكومة تفعل ما تشاء ، وتعلن الحرب على من تشاء ، وتتقاضى الضرائب ولا من يناقشها الحساب ، وتعتقل على غير ذنب أيًا كان ، كما أنها كانت تنزل بمن تراه يعنى بنشر رسالة أو كتاب أشد العقوبات .

وكل حكومة ياسادتى شأنها مع رعيتها كما ترون تسمى الحكومة المطلقة Monarchie absolue .وتمتاز فى هذه الحكومة طبقة لاتدفع الرسوم العدلية والمالية ، وتنحصر فى أبنائها الوظائف ، ولها امتيازات خاصة من بين عامة الشعب يقال لها : طبقة الارستقراطيين . ولم تقتصر الحكومة على هذه الطبقة بل ثمّة رجال الكنيسة كانوا يتعرضون لعقائد الأمة و يريدونها على أن تدين بما يدينون ، حتى كانت الحكومة تعد كل من لم يدن بدينها الذى اختارته لنفسها وأرادت أن تلقى الله عليه مجرمًا أثيما ، وكانت تحملهم على أن يختلفوا للكنيسة ، حتى تأصل فى نفوس الشعب الاعتقاد بأن هؤلاء خلفاء الله فى أرضه ، فكانوا يتصرفون بأموالهم ونفوسهم كما يشاءون .

فى القرن السابع عشر نشبت فى انكلترا ثورتان : الأولى عام ١٦٦٦ ، والثانية عام ١٦٦٨ بفضل لوك الطبيب الانكليزى المشهور ، وما بثه من الأفكار الحديثة فى كتابه الذى ألفه قبل عام ١٦٦٨ وقال فيه : « إن الله وهب الإنسان حقوقًا هى فوق كل قانون ، وهذه الحقوق هى : حقوق الإنسان ، والحرية ، وحق الملك » .

ظهر فى فرنسا اثنان هما مونتسكيو وفولتير اللذان غادرا البلاد الفرنسية قاصدين

انكلترا وهناك ذهلا بما شاهداه من آثار الرقى والإصلاح والحرية التى منحتها الحكومة للأمة ، ثم عاد الرجلان إلى باريس وشرعا ينشران للفرنسيين مؤلفات وعت آراء الانكليز الحديثة ، ومنها مؤلف نشره مونتسكيو سماه الرسائل الفارسية Lettres Persannes وضعه على لسان رجل من سراة الفرس ، وقد حمل ذلك الفارسى برسائله حملات منكرة على الهيئة الاجتماعية الفرنسية ، وهزأ بالحكومة والكنيسة وعبثهما تحت ستار بين للناس فيه شعوره بما رآه فى فرنسا ، وقد أعجب بما رآه فى انكلترا من آثار الارتقاء حتى إنه قال فى رسالة له « إن انكلترا هى فى مقدمة بلاد الدنيا حرية لأن ملكها لا يهضم حق أحد . والسبب فى ذلك أن سلطته مقيدة بمجلس الأمة ، وهذا المجلس يراقب كل مايأتى من الأعمال » . وقضى مونتسكيو البقية الباقية من حياته فى تأليف كتاب دعاه « روح القوانين Esprit de lois » وطبع هذا المؤلف العظيم عام ١٧٤٧ ، وقد شرح فيه المؤلف الشورى الانكليزية ، ورأى أن هذا الضرب من الحكم هو خير نموذج تطرس على آثاره الحكومات .

أما فولتير فإنه نشأ على أيدى الجزويت فى مجالس الكبراء ، ونظم وهو شاب قصيدته المساة Henriade وجعلها باسم هنرى الرابع ، وقد حدثت حادثة قضت عليه بأن يحبس فى « الباستيل » سجن الحكماء والعلماء والمجرمين السياسيين . وبعد ذلك أخلى سبيله فذهب إلى انكلترا وعاد ونفسه مفعمة إعجاباً بتلك البلاد ، فكتب مؤلفاً سماه الرسائل الفلسفية Laitres Phylosophiques أطرى فيها حرية المذاهب فى انكلترا إطراء غريباً ، ومما ذكر فيها « أن انكلترا هى المملكة الوحيدة التى منحت حرية المذاهب . ولما كان الانكليزى إنساناً حراً كان يعبد الله على الصورة التى يريدها . وقد أثنى فولتير على تلك الحكومة قائلا : « ليس بين الممالك مملكة تضاهى انكلترا فى تحديد سلطة الملوك ، ولا يعفى ثمة أحد

من الرسوم لمجرد أنه من رجال الكنيسة أو من النبلاء. وقد عدت الحكومة كتابه هذا مناهضا للحكومة والدين ، ولهذا قررت حرقه وسجن مؤلفه ، وكاد يسجن لولا أن بعض أصدقائه أوعز إليه بأن الحكومة تريد به شراً وتتربص به الدوائر ، ففر إلى لندن ، ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى سمحت له الحكومة بالعودة على شريطة أن لا يعود إلى الاشتغال بالشؤون السياسية ، فعدل عنها إلى العناية بالتاريخ والقصص .

ولم يكد ينبثق فجر القرن الثامن عشر حتى ظهر من أخذ يسعى فى هدم الأوضاع الإدارية من أساسها فى فرنسا ومنهم ديدرو ، وهو ابن بائع سكاكين قدم باريس وهو فى ريعان الشباب ، فكان يبيع الكتب فيعيش من ذلك بكل جهد وعناء . وقد هم بمشروع عظيم ، وذلك أنه اهتم بوضع مؤلف يجمع المعلومات البشرية جمعاء بما لها من فروع وأصول ، وسماه Encyclopedie ونسميها نحن دائرة المعارف .

ولمعظم علماء فرنسا وفلاسفتها كتابات ومقالات ، بيد أن ديدرو اعتقل فى فينسيان قبل أن تتناول مؤلفه هذا أيدى القراء أى عام ١٧٤٩ ، ولم يمثل بالطبع منه إلا جزآن أخذا تحت رعاية بعض كبار أرباب الثراء من وجوه فرنسا . وهؤلاء أيضاً لم يسلموا من وشاية الوشاة فوصموا بأنهم يحملون القوم على المناهضة والانتقاض ، ففر ديدرو ، وأحجم الآخرون ، إلى أن نشر بأجمعه بعناية زوجة لويس الرابع عشر .

فى تلك الأثناء ظهر جان جاك روسو ، واتسعت شهرته وهو صغير السن ، وكان روسو هذا ابن ساعاتى ، وقد تنوعت الحرف التى اتخذها : فمن أجير ، إلى معلم موسيقى ، إلى مرب . وهكذا فإنه كان يعيش عيشة ضنكة ، لذلك غاظه المجتمع الانسانى وهو على هذه الصورة ، وأخذ يفكر ويعترض على كل شىء ، وقد نشر

كتابه « العقد الاجتماعى Contrate Sociale» وهو أفضل مؤلفاته وأمثلها ، جاء فيه : « يولد الإنسان حراً ، لكنه حيثما كان فهو مقيد باصفاد . والمجتمع الإنسانى هو على خلاف العدل والحق ، لأنه يوفر للطبقة العليا عامة المنافع » . وقد بين أيضاً أن حق الحكم يجب أن يكون فى الأمة .

بذر روسو هذه البذرة الصالحة وأخذ تلاميذه يتعهدونها حتى نمت وأزهرت ، فأوغلوا فى حب الجمهورية حتى أنهم طبقوا فى الثورة نظرياته فى حقوق الحكومة وحقوق المساواة ، وكان من هؤلاء من يعترض على القواعد التى اتخذتها الحكومة فى الرسوم والصناعة والتجارة ومعاملة الشعب ، بينا كان الفلاسفة يبدون آراءهم الفلسفية الجديدة فى الحكومة ، ويقال لهذه الفئة « الاقتصاديون » .

وكان مما أعان على تهذيب الأفكار وتثقيف العقول انتشار المبادىء المالية ، كما كان للآراء الفلسفية والسياسية تأثير كبير فى تاريخ الثورة الفرنسية ، وذلك تم على أيدى رجال رزقوا علماً جما واطلاعاً واسعاً ، ومنهم بل فى مقدمتهم (كينى) ، ولد هذا الرجل عام ١٦٩٤ وقد تخصص فى تعلم الزراعة و برز ، وكان مرعىّ الجانب لا يمسه أحد بسوء ، لأنه كان طبيب لويس الخامس عشر ، وقد بحث (كينى) فى كيفية تأليف الثروة العامة ووضع نظرية عامة ألا وهى « إن الأرض مصدر كل ثروة ، والزراعة تهيىء كل ما تمس إليه الحاجة من عامة الأشياء ، وهو يرى أن الحكومة يجب أن لا تضيق على المزارعين ، وأن لا تحظر عليهم بيع ما يريدون بيعه من الحبوب . وأنه يجب أن تؤخذ الضرائب عن الأرض فقط ما دامت الأرض مبعث كل ثروة ، ولذا كان يشير على الحكومة أن تتقاضى عن الأرض ما تريد أن تتقاضاه .

ونشأ بين هؤلاء ممن أثروا فى إصلاح التجارة أثراً محموداً رجل يسمى (غورنى) وهو ابن تاجر ، ساح فى أوربا كلها عام ١٧٥١ بصفة موظف تجارة ، فرأى

أن النظريات الموضوعة آنئذ فى الصنائع إثمها أكبر من نفعها ، واعتقد أن هـذه الأنظمة هى التى تعوق الصناع عن إظهار مصنوعاتهم والتجار عن تجارتهم ، ومن رأيه أن الحكومة يجب أن تدع التجار وأصحاب المعامل أحراراً فى تجارتهم وصناعتهم ، وأن كلاً من التاجر والصانع يعرف ما يعود عليه بالنفع أكثر من الحكومة ، وهو واضع هذا الناموس Laisser fairs laisser passer ومعناه : « يجب ترك كل واحد حراً فى عمله ، حراً فى تجارته . وعلى أثر انتشار هذه الأفكار قامت فئة كبيرة تطالب إلغاء الأنظمة الموضوعة والضرائب الباهظة التى تستند على الاحتكار ، وأصول الحماية ، وتطالب بتطبيق حرية التجارة والصناعة ، وقد زادت أفكاره نمواً بما زاد عليها « تورجو » و « آدم سميث » أستاذ الفلسفة فى مدينة أدنبورغ ، وقد جمع هذا الرجل عامة نظرياته الاقتصـــــادية فى كتاب له سماه : « Essai sur larichesse des nationes » .

كانت فرنسا على عهد لويس السادس عشر كما كانت أيام لويس الخامس عشر حكومة مستبدة يقرر الملك وعماله ما يقررون ويصنعون ما يشاءون ، وكانت الواردات العامة والصادرات تحت طى الخفاء ، وكانوا يحبسون من أرادوا غير مقيدين بقانون ، ولم يكن فى سلطانهم للحرية السياسية أو الفكرية اسم أو رسم أبداً ، فكل كتاب يعرض قبل أن يمثل بالطبع على أنظار رؤساء الضبط ورجال الكنيسة ، وكانت هيئة خاصة لمراقبة المطبوعات تنظر فى عامة الكتب ، وما لم يجر على ذلك من المؤلفات يصادر أويحرق ويحكم على مؤلفه بالسجن ، وقد صودرت مؤلفات فولتير ومونتسكيو كلها تقريباً ، وبالرغم من هذا الظلم ياسادتى وسعى رجال الاستبداد فى كم الأفواه واضطهاد العلماء وأرباب الأفكار ، أخذت الأفكار تنتشر منذ تبوّأ لويس الخامس عشر العرش ، وبدأ حملة الأقلام يؤمّون المجامع العامة والملاهى ، وحيثما جلسوا تكن البحوث الأدبية والسياسية سمرهم وموضوع حديثهم ، حتى أن الفتيات من الأسر العريقة فى المجد والشرف كن يوجهن الدعوة

إلى النوابغ من المؤلفين ، ومن ثم يأخذون فى السمر الأدبى ولا يدَعون موضوعاً من الموضوعات الإصلاحية إلا كان له من بحثهم نصيب أوفر .

وهكذا أخذ شعور الرغبة فى التعلم والتعليم يزيد ، ولما كثر رجال الفنون الجميلة شرع فى جمع مجموعات التاريخ الطبيعى والعاديات وأنشئت المكتبات وألفت الجمعيات وعقدت المجامع العلمية فى كل صقع وناد .

وتناولت هذه النهضة النبلاء والقروبين وأخذوا يقتنون موسوعات العلوم سراً ولكن العمال وفريقاً كبيراً منعتهم أميتهم من الاستفادة من المؤلفات ، وبعضهم اعتاضوا عن القراءة بما كانوا يسمعونه كل يوم من الأفراد الذين كان همهم الأكبر أن يعددوا مثالب المستبدين ، حتى أصبحت الأمة عاميها وخاصتها رفيعها ووضيعها يشعرون بشعور واحد ، واستعاضوا عن هتافهم « فليحى الملك» بما يخفف من سلطته عليهم ، وكانوا يحسون فى أنفسهم بحلول يوم عصيب .

مضى حين من الدهر ونواب الأمة يجتمعون فى أماكن مختلفة ، والدستور تتوطد أركانه بعد أن أصبح فى الشعب رأى عام دفعه إلى مناهضة الملوك وطغمة الاستبداد .

أذكر لكم أيها السادة أنهم حين التأموا فى المجلس ورفض الملك بعض مطالبهم ، وأرسل إليهم رئيس تشريفاته ينبئهم بارفضاض الجلسة وأن يرجئوها إلى صباح الغد قائلاً : « لقد سمعتم ما يريد الملك فانصرفوا » ، فما كان من الخطيب الشهير ميرابو إلا أن وقف على قدميه وقال « نحن هنا بإرادة الشعب ، ولا نخرج إلا بأطراف الحراب » .

أتى ذلك اليوم الذى تخلصوا فيه من الذل ، وطرحوا عن كواهلهم نير الاستبداد ، فقوضوا دعائم « الباستيل » ، وفتكوا بالجنود المحافظين ، وأطلقوا أعناق المسجونين السياسيين وأرجلهم من السلاسل والأغلال ، وانهالوا على دور

النبلاء يوسعونهم قتلاً بدعوى أنهم اغتصبوا حقوقهم سنين عديدة ، وكانت هذه هى الصفحة الثانية من تاريخ الانقلاب .

أتى ذلك اليوم الذى جندوا فيه جنوداً من الأهالى سموهم الجند الوطنى ، وأخذ من عرف بالحرية والنزاهة والاقتدار من أبناء الأمة يملأ الوظائف الشاغرة و يمثلون بالمستبدين أقبح تمثيل ومنهم (برنيه) رئيس شعبة اللوازم لأنه اتهم بتهديد الأحرار إذا لم يرجعوا عن خطتهم فقد ساقه الجنود وشنقوه على مرأى من القوم ومسمع .

وما زالوا كذلك حتى ألغيت الامتيازات ، ونظم القانون الأساسى ، وقد نُصَّ فى أول نشرة صدرت عن الحقوق التى للانسان بأن لكل إنسان هذا الحق مهما كانت ملته أو نحلته أو عنصره أو أسرته ، والمادة الأولى من هذه النشرة هى : « يولد الناس أحراراً وهم سواء فى الحقوق . والامتيازات الاجتماعية لا تكون إلا إذا كانت مبنية على النفع العام » .

وجاء فيها أيضاً : « الغاية من تأليف الجمعيات السياسية هى المحافظة على حقوق البشر الطبيعية ، وللأمم حق الحكم ، ولا تحكم هيئة أو فرد من الأفراد ما لم توكله الأمة » .

وجاء فيها : « الحرية حق لا يجيز لك أن تأتى بما يضر غيرك . القانون يحظر كل عمل يلحق المجتمع الإنسانى منه أذى . وما لم ينص القانون على شىء لا يمكن أن يمنع » .

ومنها « لا يسجن شخص أو يتهم أو يوقف إلا فى الأحوال التى عينها القانون ، ولا يضغط على أحد لرأى يرتئيه على شريطة أن لا يخل ذلك الفكر بالنظام العام » .

ومنها : « حرية الكتابة من أثمن حقوق البشر ، لذا يجوز لكل أحد أن يتكلم بكل شىء و يكتب ما يشاء . ولكنه ممنوع من إساءة استعمال هذه الحرية »

وهكذا كان مجموع المواد التي كتبوها كما رأيت تحفظ للانسان الحقوق التي وهبته إياها الفطرة الإنسانية في قوله وعمله .

و بعد أرأيتم أيها السادة كيف كان تأثير علماء فرنسا في ثورتها وما كان لرجال السياسة من أبنائها حتى قام الدستور بينهم على أساس مكين . ولهذا كان من المحقق أننا لا نقطع أشواطاً في ميدان الرقي إلا إذا قام منا من يعلم جاهلنا و يصلح فاسدنا ، إذ لا خير في انقلاب سياسي لا يسبقه انقلاب أدبي في العقول والأفكار .



لما كُتبت الغلبة للألمانيين في حرب السبعين على الأمة الفرنسية قال بعضهم لفؤاد باشا السياسي العثماني المحنك صاحب الوصية المشهورة : « يوشك أن تضمحل فرنسا على أثر هذه الحرب ، وأن لا تقوم لها بعد الآن قائمة » ؟ فأجابه ذلك الوزير الخطير : « ليست فرنسا هي المغلوبة في هذه الحرب والتي ينذر مستقبلها بالخطر ، بل العثمانية » .

والحقيقة هي كما قال ، فإن فرنسا منذ ذلك الحين شرعت تتذرع بالوسائل التي ترفع من شأنها ، فلم تر أصلح لها من الاتفاق مع من يشجعها ويقويها على بغيتها هذه ، فرأت في روسيا خير ظهير لها على ذلك ، واتفقت معها لتحقق آمالها ، لأن الروس صقالبة والألمان جرمانيون ، وما زال النزاع الحيوي قائماً بين هذين العنصرين ، هذا يريد سياسة التوسع والنزول إلى « الشرق » ليحول دون تقدم البلغار والصرب والجبل الأسود وهم صقالبة ، وذاك كان وما زال يعمل على تقدم العنصر الصقلبي في شبه الجزيرة البلقانية لصد هجمات الجرمانيين حتى التابعين منهم للنمسا .

وهذه هى إحدى الأسباب السياسية الدقيقة التى بها استقل البلغار وتقدموا فى مدة خمس وثلاثين سنة تقدماً غريباً ، ووسعوا حدودهم ، والتى لأجلها أغمضت دول الاتفاق الثلاثى — وفى جملتها فرنسا — عينها عن الحرب البلقانية الحاضرة ، بل وتركت للدول البلقانية حبلهن على غاربهن يفعلن فى ديار الروم ما يشأن ، والتى لأجلها أيضاً جعلت نفسها لا تشعر بأنين الشيوخ ولا بكاء الأطفال ولا بالمظالم التى ضجت منها الأرض والسماء ، والتى من أجلها أيضاً باتت روسيا نفسها فى قلق من بلغاريا لئلا تقف دون مطامعها ، وباتت أيضاً أمم الأرض وشعوبها تتوقى حرباً عامة طاحنة .

وليس قصدنا الآن أن نلم بتاريخ السياسة الحاضرة ، ولكننا نريد أن نبين أن الأمم التى لم تدخل فى الحرب تتأثر منها أيضاً ، فكيف بالأمم التى تخوض غمار الحرب وقد خرجت مغلوبة ، شأننا فى الحرب البلقانية .

وقد أثرت هذه الحرب ولا جرم على البلاد العثمانية بأسرها من الوجهة الاقتصادية والمالية والتجارية والزراعية ، وإن وراء ذهاب الروملى من أيدينا ما يتوقع من الخطر على البلاد العربية وأهلها ، أقول الخطر وأعنى به الاحتلال الأجنبى ، إلا إذا عملنا بنظام اللامركزية الذى أعده دواءنا الناجع ، لأن البلاد تشعر فيه بمسئوليتها فى حفظ أوطانها ، وتحمل أعباء الإصلاح والتقدم ، وذلك هو سبيل القوة والحياة . . .

دمشق : عام ١٣٣٠ (١٩١٢)

الخطابة والخطباء[1]

تأثير الخطباء — من هم الخطباء الحقيقيون — خطباء الخاصة وخطباء العامة — خطباء المساجد
الخطابة : إصلاحها ، أساليبها ، مواضيعها — دواوين الخطب — الخطابة أمس والخطابة
اليوم ـ دراسة موضوع الخطبة وإعدادها للالقاء — منزلة الخطابة من المنطق —
منزلتها من العلم ـ أهمية الخطابة فيما مضى — الخطباء الأقدمون — ديموستنس
فى اليونان ، شيشرون فى الرومان ، على فى العرب — نموذج من خطب هذا
العربى — حاجة الأمة فى بدء نشأتها إلى خطباء — فرنسا زمن ثورتها —
الخطباء أطبـاء لمجتمعنا

إذا كان الشاعر المطبوع هو الذى يستمد من الحقيقة فيضَ مَشاعره ، فيكتب ما تملى عليه الطبيعة ، ويرسل بصره إلى السماء ناظراً إليها نظرة المنجم وهو يرصد حركات السيارات والثوابت فى أفلا كها ، و يرقب أوضاعها فى شروقها وغروبها . أو يجول ببصيرته فى حنايا الأرض دارسا أطوار النفس الإنسانية ، أو محالا خواطر نفسه وما يختلج فيها من عواطف ومشاعر . وإذا كان الشاعر الحقيقى هو الذى يؤثر فى أخلاق الأمم فيهذب فى نفوسها ما فسد من الشعور ، فان الخطيب هو الذى يتخذ من حقائق العلوم مادة يستعين بها فى تربية العقول التى يخاطبها ، فيزيد حيويتها نشاطا ودمها نقاء وحرارة .

هذا الخطيب وأشباهه من الذين يخاطبون العقول و ينهضون بها و يزيدونها حيوية هم الذين يصح أن يدعوا خطباء الخاصة ، وهم الذين ينهضون بالشعوب ، و يأخذون بأيديها إلى الصراط المستقيم ، و يرسمون لها خطوطاً من نور ، لأنهم

---

(١) من المحاضرات التى كانت تلقى فى (جمعية النهضة العربية) .

قادة الأمم إلى ما فيه المصلحة العامة ، وهم أساتذة العالم الذين أعدّتهم المقادير لإنقاذ النفوس من وهاد الجهل والخمول والغباء . . . خطباء الخاصة هم الذين يتخيرون البحوث العالية والدراسات الناضجة فى مختلف الفنون الأدبية والتاريخية والاقتصادية والكونية ، و يلقونها فى الجمعيات والمنتديات الخاصة على أهل الاستعداد العقلى والمؤهلات الثقافية ، فتكون لهم منها دروس أسبوعية أو شهرية تيسر لهم التوسع فى المعارف ، وتجعل منهم رجالا نافعين لأنفسهم و بلادهم وأمتهم .

من هنا نعلم الفرق بين خطباء الخاصة هؤلاء ، و بين خطباء العامة الذين يعتمدون على الجمل الحماسية والألفاظ الضخمة والأسجاع المرصوصة التى يخاطبون بها العامة ، حتى إذا سألت من استمعوا لهم عما استفادوه من هذه الخطب لا تجد شيئا .

وكذلك الحال فى الخطب التى تلقى فى أكثر المساجد أو الكنائس ، يزهدون بها الناس فى الدنيا ، ويكررون جملا قديمة تدور حول فضائل الأشهر ، أو الوعظ الذى تلوكه الألسن ولا تتخاطب به القلوب ، لأنه من أنقاض الأحقاب الغابرة التى لا يطرأ عليها التغيير والتبديل ، فى كل جيل وقبيل .

لقد كان للخطابة فيما مضى شأن عظيم فى الأمم العريقة فى الحضارة ، وكان الخطباء قادة الفكر ومهذبى النفوس والناهضين بها إلى قمم المجد المؤثل ، ممن يصح أن يطلق عليهم عنوان خطباء الخاصة ، أمثال ديموستنس فى اليونان ، وشيشرون فى الرومان ، وعلىّ فى العرب .

كان الواحد من هؤلاء الثلاثة إذا خطب فى موضوع تهتز جوانب الأرض لخطابه ، وكانوا يتخيرون الألفاظ الجزلة والجمل البليغة فى خطبهم ، و يأخذون بمجامع القلوب فى الالقاء .

إن من شأن العاقل المفكر أن لا يقبح القديم لمجرد كونه قديما ، وأن لا يبهره الجديد لمجرد كونه جديداً . وعلينا أن نأخذ كل ما فيه فائدة للأمة ونفع ، ولو ألقته

الأدوار والأجيال فى أبعد زوايا الماضى ، ونطّرح كل ما فيه مضرّة و إن أصبح مشاعا اليوم بين الشبيبة المتمدنة فى هذا الدور الجديد .

الإصلاح الاجتماعى يطالبنا اليوم بإصلاح الخطابة ، الخاصة منها والعامة . فيجب أن ننبذ من كليهما ما خلقت جدّته ، وزالت حقيقته ، ونضبت حيويته .

و إصلاح الخطابة يكون من وجهين : الأول العدول عن الأساليب البالية ، إلى الأساليب الجذابة . والثانى تحرى المباحث العالية التى عليها مدار النهوض .

ومن الأساليب البالية التى ينبغى العدول عنها الغلوّ والمبالغة والإغراق ، وهذا ما يبعد بالخطيب عن الحقيقة . وهو من أسباب ضعف الحجة .

إن الإصلاح الاجتماعى اليوم يدعونا إلى أن تكون الأبحاث فى الخطابة متسلسلة تسلسلا منطقيا ومطردا . وأن تكون مؤيدة بحقائق العلم ، ومتمشية مع المصلحة العامة فى توجيه الأمة إلى أساليب النهوض الأدبى والاقتصادى . ومما يؤسف له أن الخطابة فى المساجد والكنائس لا تزال أداة ضعف ، وكان يمكن أن تكون نافعة ومفيدة للجماهير . وهذه الوظيفة ، وظيفة الخطابة فى المعابد ، هى من شئون الأمة العامة ، فينبغى أن تحسن الحكومة استعمالها ، وأن تكون نافعة مفيدة فى التوجيه والإصلاح .

الجامع فى الأصل اسم وضع لاجتماع الأمة من كل الطبقات ، وقد رفعت فيه أعواد المنبر ليواجه الخطيب الناس بما يستفيدون منه من علم وخلق وتهذيب ، والناس يجتمعون فيه ليستمعوا إلى ما يفيدهم علما وحكمة وفضيلة .

ومن المحزن أن ما يلقى من منابر الجوامع يلقى من كتب كتبت لغير زماننا ، وفى ظروف وأحوال غير ظروفنا وأحوالنا .

ماذا على خطباء المساجد لو أخذوا يدرسون مواضيع فى حياة العلم والمعرفة و إصلاح المجتمع فيلقونها على مسامع الأمة لتكون لهم بمثابة درس عام يثير فيهم

النشاط ، بدلاً من المواضيع البالية التى لا تورث إلا الجمود فى الفكر والخمول فى العمل ؟

ماذا على خطباء المساجد لو أكثروا فى خطبهم من بث الآراء والأفكار فى أسباب انحطاط الأمة وتأخرها ، ووسائل تقدم جيراننا العاملين فى سبيل الحياة ، لنجاريهم فى ذلك ونسابقهم ، ولا نقف أمامهم وقفة الذاهل المرتاع ؟

ماذا على خطباء المساجد لو أخذوا يهتدون بهدى النبى ﷺ فاتخذوا من سيرته العظيمة التى كانت مثال الكمال قدوة يقتدون بها فى توجيهاته وأعماله ، فتمشى الأمة فى حياتها على أثره الشريف ؟

ماذا على خطباء المساجد اليوم لو التفتوا إلى الحالة الحاضرة وأعاروا ما يتوالى علينا خلالها من الحوادث نظرة بصير بالأمة خبير . ثم أخذوا يذكرون ما فيه للأمة موعظة وذكرى وتعليم وإرشاد ، حتى تستنّ بالسّنن القويم والصراط المستقيم .

ماذا على خطباء المساجد ، بل على الخطباء جميعا — خطباء الخاصة وخطباء العامة — لو جعلوا خطبهم مشبعة بالروح العلمية ، ومفعمة بالتوجيهات المنطقية ، لتتعود الأمة سماع ما ينبغى لها أن تكون عليه فى الحال والاستقبال ؟

ماذا عليهم وما أجدرهم بأن يكونوا كذلك ما داموا قد نصبوا أنفسهم لهذه الوظيفة التى تحتاج إلى رجال حقيقيين أكفاء ، وما داموا فى مقام المرشد الذى عليه أن ينتشل الأمة من مهاوى الخمول والانحطاط .

نريد اليوم خطيباً عالماً أديباً حكيما محنكا .

نريد خطيبا كرابع الخلفاء الراشدين ، ذلك الخطيب العربى ، والسياسى الحكيم . فان لم يكن فينا من هو كذلك ، فيجب علينا أن نتعلم وأن نؤهل أنفسنا ، نعم يجب علينا أن نبذل الطارف والتليد فى سبيل التربية والتعليم .

يجب أن نقول لأمتنا كما كان على يقول قبل ثلاثه عشر قرنا .

فمن خطبة له فى وصف كبراء الاستبداد :

« ألا فالحذرَ الحذرَ من طاعة ساداتكم وكبرائكم ، الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم ، وألقوا الهجينة على ربهم ، وجاحدوا الله على ما صنع بهم ، مكابرةً لقضائه ، ومغالبة لآلائه ، فإنهم قواعد أساس العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية . فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً ، ولا لفضله عندكم حسّاداً ، ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم ، وخلطتم بصحتكم مرضهم ، وأدخلتم فى حقكم باطلهم ، وهم أساس الفسوق ، وأحلاس العقوق ، اتخذهم إبليس مطايا ضلال ، وجندا بهم يصول على الناس ، وتراجمة ينطق على ألسنتهم استراقا لعقولكم ، ودخولا فى عيونكم ، ونفثاً فى أسماعكم ، فجعلكم مرمى نبله ، وموطىء قدمه ، ومأخذ يده . فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ، ووقائعه ومثُلاته . واتعظوا بمثاوى خدودهم ، ومصارع جنوبهم ، واستعيذوا بالله من لواقح الكبر ، كما تستعيذون من طوارق الدهر ، فلو رخص الله فى الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه ، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر ، ورضى لهم التواضع . . . »

إلى قوله :

« فاللهَ اللهَ فى عاجل البغى ، وآجل وَخامة الظلم ، وسوء عاقبة الكبر ، فإنها مصيدةُ إبليس العظمى ، ومكيدته الكبرى ، التى تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة ، فما تكدى أبداً ولا تشوى أحداً [1] ، لا عالماً لعلمه ، ولا مقلا فى طمره » .

إلى قوله :

---

(١) أكدى الحافر : عجز عن التأثير فى الأرض . وأشوت الضربة : أخطأت المقتل

« وأما الأغنياء من مترفة الأمم ، فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا ﴿ نحن أكثر أموالا وأولاداً ومانحن بمعذَّبين﴾ فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور التى تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ، ويعاسيب القبائل ، بالأخلاق الرغيبة ، والأحلام العظيمة ، والأخطار الجليلة ، والآثار المحمودة . فتعصبوا لخلال الحمد : من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمام ، والطاعة للبر ، والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل ، والكف عن البغى ، والإعظام للقتل ، والإنصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد فى الأرض . واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثُلات ، بسوء الأفعال ، وذميم الأعمال ، فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم . فإذا تفكرتم فى تفاوت حاليهم ، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم ، وزاحت الأعداء له عنهم ، ومدت العافية فيه عليهم ، وانقادت النعمة له معهم ، ووصلت الكرامة عليه حبلهم ، من الاجتناب للفرقة ، واللزوم للألفة ، والتحاضّ عليها والتواصى بها . واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم ، وأوهن مُنَّتهم ، من تضاغن القلوب ، وتشاخص الصدور ، وتدابر النفوس ، وتخاذل الأيدى . وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا فى حال التمحيص والبلاء ، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء ، وأجهد العباد بلاء ، وأضيق أهل الدنيا حالا ؟ . . اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب ، وجرّعوهم المرار ، فلم تبرح الحال بهم فى ذل الهلكة ، وقهر الغلبة ، لا يجدون حيلة فى امتناع ، ولا سبيلا إلى دفاع ، حتى إذا رأى الله جدّ الصبر منهم على الأذى فى محبته ، والاحتمال للمكروه من خوفه ، جعل لهم من مضايق البلاء فرجا ، فأبدلهم العز مكان الذل ، والأمن مكان الخوف ، فصاروا ملوكاً حكاماً ، وأئمة أعلاماً ، وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تبلغ الآمال إليه بهم .

فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة ، والاهواء متفقه ،

والقلوب معتدلة ، والأيدى مترادفه ، والسيوف متناصرة ، والبصائر نافذة ، والعزائم واجدة ، ألم يكونوا أرباباً فى أقطار الأرضين ، وملوكاً على رقاب العالمين ؟ . . . فانظروا إلى ما صاروا إليه فى آخر أمورهم حين وقعت الفرقه ، وتشتت الألفه ، واختلفت الكلمة والأفئدة ، وتشعبوا مختلفين ، وتفرقوا متحاربين ، قد خلع الله عنهم لباس كرامته ، وسلبهم غضارة نعمته ، وبقى قَصص أخبارهم عبرة للمعتبرين

واعتبروا بحال ولد إسماعيل وبنى إسحاق وبنى إسرائيل عليهم السلام . فما أشد اعتدال الأحوال ، وأقرب اشتباه الأمثال . تأملوا أمرهم فى حال تشتتهم وتفرقهم ، ليالى كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق ، وبحر العراق ، وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ، ومهافى الريح ، ونكد المعاش ، فتركوهم عالة مساكين ، إخوان دَبر ووبر ، أذل الأمم داراً ، وأجدبهم قراراً ، لا يأوون إلى جَناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها ، فالأحوال مضطربة ، والأيدى مختلفة ، والكثرة متفرقة فى بلاء أزْل ، وأطباق جهل ، من بناتٍ موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة

فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولا ، فعقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته ألفتَهم ، كيف نشرت النعمة عليهم جَناح كرامتها ، وأسالت لهم جداول نعيمها ، والتفت الملة بهم فى عوائد بركتها ، فأصبحوا فى نعمتها غَرقين ، وعن خُضرة عيشها فَكِهين ، قد تربعت الأمور بهم فى ظل سلطان قاهر ، وآوتهم الحال إلى كنف عزّ غالب ، وتعطفت الأمور عليهم فى ذرى مُلك ثابت ، فهم حكام على العالمين ، وملوك فى أطراف الأرضين ، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم ، لا تغمز لهم قناة ، ولا تقرع لهم صفاة . . . الخ .

هناك حيث يلتفت الشعب حول منبر الخطابة وقد اشرأبّت منه النفوس ،

وتطالَّت الأعناق نحو رجل يريد أن يجمع منهم كلمة مفرقة ، و يوقظ هماً خامدة ، و يهذب نفوساً قد أضرَّ بها الجهل ، وفكراً مفعماً بالخيالات المظلمة ، نعم ، وقفة هائلة فى موقف حرج . . . لا يجب أن يعلو عليه إلا العالِمون من العالَمين .



أحطُّ الأساليب فى الكتابة والخطابة وأوضعها هو الأسلوب الذى يستمده الكاتب من مخيلته حسب ما تصوره له من الخيالات ، فينظر بالمجهر ، فتعظم عنده الأشياء ، وتذهب صورتها الاصلية ، ويبقى خيالها المعظم بدلاً من أن ينظر الحقيقة للأشياء نظر المشرح للانسان ، إذ يكون دارساً كل شىء منه عضواً عضواً من ذى قبل ، فإذا نظر إليه بجملته فكأنما نظر إلى كل جهاز من أجهزته الظاهرة والباطنة ، وكأنما عينه تخترق ذلك الهيكل فتجول فى أعماقه تنظر بأشعة رنتجن . . .

هكذا يجب على الكاتب اليوم أن يعوّد قلمه على الخطة المتبعة فى المذهب الحقيقى (رئاليزم) بحيث يكتب الإنسان ما هو كائن ، لا ما يجب أن يكون ، فاذا قلت لكسلان أنت متأخر ، أنت لا تنجح ولا يكون لك مستقبل زاهر ، وأنحيت عليه باللائمة واخذت تسلقه بألسنة حداد طالباً أن ينهض و يستفيق و يجد و يجتهد ، وأمثال ذلك من عبارات التقريع والتأنيب ، لا يفيدك ذلك شيئاً تلقاء ما تنتظره منه من الاصلاح ، وربما زاد عتواً وفجوراً ، متمسكاً باستحسان خطته من حيث أنها خطة راحة وهناء . . . أما لو سردت له فى بادىء الأمر أحواله والغاية التى يرمى إليها من عمله هذا ، وما هى الفائدة التى يراها فى هذا الأمر النكر ، ثم بدأت تعطى كل سبب يدعوه إلى ذلك ضده ، وتعالج كل جرح بما يلائمه ، وأخذت تقرأ عليه من صحائف التاريخ سيرة العظماء والحكماء الذين دانت لهم الأمم ، وأخذوا بناصية البلاد ، وكيف بلغوا ذلك ، لاستفاد وأفاد ولكنت أنت قد أحسنت عملاً .

نحن لا نريد كاتباً ولا خطيباً يقول : ما بالكم متأخرون ؟ لماذا أنتم منحطون بإزاء الأمم الاخرى ؟ انهضوا . . . تبصروا . . . تعلموا . . . هذبوا بناتكم ؛ بل نريد رجلاً يبين لنا لماذا تأخرنا ، ولماذا انحططنا ، وما هى الوسيلة لنهوضنا وكيف السبيل لتبصرنا ؟

أسئلة يجب علينا درسها قبل كل شيء ، فننهض بالعمل لا بالقول ، وبالحقيقة لا بالخيال . . . لا نريد خطيباً إذا خطب وفرغ من خطبته يقوم الرجل الحاضر ناقماً على الحياة مرسلا لعناته الجهنمية على شقاء هذا العالم ، فيذهب إلى أهله حانقاً أو إلى حانوته كسلان خاملا . بل نريد خطيباً يكون جسمه مملوءاً بالنشاط والهمة والإقدام وحب الحياة ، ويكون قلبه مفعماً بالآمال ، ودماغه مقراً للعلم ، ولسانه منطلقا بالحكمة .

لا نريد خطيباً إذا ألقى خطبته فى جامع من الجوامع على قوم أخذوا يناموت أو يطأطئون رءوسهم ويتواجدون ، والله يعلم ماذا تكنّ صدورهم ، وبماذا تحدثهم ضمائرهم آنئذ ، آذانهم حاضرة تسمع ، ولكن فكرهم فى حوانيتهم يتحدث عنها فى نفسه ويأخذ ويعطى . .

نريد الخطيب إذا بدأ الكلام أن تتطالّ الأعناق إلى استماع آخره ، وإذا فرغ تأسفوا على ساعة الانتهاء ، ذلك الخطيب هو الذى يخلب عقولهم ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، ويسحر ألبابهم بما أوتى من قوة الفصاحة والبلاغة والعلم والعمل .



حاجة الأمم فى أول نشأتها ، وبالاحرى أيام انقلابها ، إلى الخطباء من الرجال الحقيقيين الذى دعوناهم بخطباء الخاصة ، أشد من حاجتها إلى خطباء العامة . إذ القسم الأول من أولئك يمكن لهم بحسب ما تعطيهم قواهم العقلية من القوة أن ينزلوا بفكرهم ليرفعوه من أبسط فكر رجل عامى إلى أعلى فكر عالم فاضل

منور . بخلاف خطباء القسم الثانى فإنهم فضلا عن كونهم لم يدركوا معنى الخطابة العلمية وما المقصود منها فأنهم لا يتيسر لهم أن يتجاوبوا مع أفكارهم .

خطيب من خطباء العامة وقف ليفيدهم و يلقى عليهم فكراً إصلاحياً ، فأثار هياجاً وضوضاء ، كانت نتيجته تفريق الكلمة بدلا من أن تهدأ الخواطر فتكون نتيجتها الاتحاد .



كان يخطب أمة الفرنسيس زمن انقلابها الكبير ثلاثة من رجالها العظماء ... هيكو ، وفولتير ، وروسو ، هؤلاء الثلاثة كانوا هم زعماء الحركة آنئذ ، وكان حين يقوم الواحد ليخطب أبرقت جبهته وتلألأت عيناه ، واستجمع كل قواه الفكرية فيلقى عليهم من الأفكار عن دماغ لا عن خيال ، وعن حق لا عن هوى ، وعن علم لا عن جهل .

أين نحن اليوم من أمثال هيكو وصاحبيه فولتير وروسو يلقون فى شوارعنا ما ألقاه أولئك منذ سنين فى شوارع باريس ، وفى حفلاتها الخاصة والعامة ؟ . .

نحن لا ننكر أنه يوجد بين ظهرانينا اليوم من يضمن لنا ذلك و يكفله ، ولكن الأمر قد وسد إلى غير أهله ، والز من زمن العدل ، فسيطر على الأمة من يظنون أنهم ستقوم لهم قائمة فى معترك الحياة ، وأنهم غير داخلين فى حكم قانون « بقاء الأنسب » .

وإنك لترى عدداً عظيما من الشبان الذين ضرب عليهم سوء الطالع شقاء فلم تساعدهم الطبيعة على الانخراط فى سلك الدارسين فى المدارس ، وممن لا تصل إليهم جريدة يقرأون بها علماً ، أو مجلة يستفيدون منها أدباً ، أو يقفون على سياسة ، فليس أنفع لهؤلاء من خطباء يعرّفونهم هذه الحياة فيستفيدون و يفيدون ، لأنهم أقرب للاستفادة من غيرهم .

ما من أحد يغالب الحقيقة اليوم فينكر علينا قولنا بأن الخطابة الحقيقية هى دواء من أنجع أدوائنا . . . وإنك لترى بعد هؤلاء فئة كبيرة هم أولى بالشفقة من غيرهم ، اجتازوا دور الفتوة فجاوزوا السن التى يجب أن يتعلموا فيها كما يتعلم الطفل أو الفتى ، فلا يحصل لهم إدراك ما يلزمهم ىن حاجيات هذا الدور الجديد إلا بالخطابة . . . بها يقومون وبها ينهضون ، بعد أن يكونوا قد فهموا من بداية هذه الحال الحاضرة ما يتسنى لهم الوقوف على آخرها . . .

يقولون : إن هؤلاء قد مضى عليهم من الزمن ما لا يمكنهم القيام معه بحاجيات هذه الأمة حق القيام ، إنما أولادهم اليوم يجب أن يتعلموا وهم رجال المستقبل . نعم لقد صدقوا ، ولكن ألا يجب عليهم أن يتعلموا بعد الآن ما يماشون به الزمن وهم مجموع الأمة اليوم . . . و إذا لم يتعلموا الآن ما يماشون به هذه الحالة الحاضرة فمن الذى يطالب بالحقوق ، ومن الذى يقوم بالمصالح البشرية ، وقد تتطبع أطفالهم على هذه الحالة فكيف يكون منهم رجال ؟ . . .

من أجل هذا يشعر كل فرد اليوم بالحاجة إلى التعلم ، وخير واسطة لهذا هو أن تقوم بيننا منتديات علمية وأدبية ، يحاضر فيها و يخطب خطباء عالمون متجردون عن الأغراض الشخصية ولا يعملون إلا للعمل نفسه قياماً بخدمة النفع العام ، وفى ذلك خدمة للأمة والوطن .

الجمعة ٢ شعبان عام ١٣٢٦

مقالات توجيهية واصلاحية

فى جُمادى الآخرة ١٣٢٦ (تموز ١٩٠٨) أُعلن الدستور العثمانى .

احتفل سكان الولايات العثمانية من جميع العناصر بهذا الحادث التاريخىّ العظيم وكان العرب فى طليعة المحتفلين به ، لأنهم اعتبروه رجوعا الى العقل والحكمة فى أسلوب الحكم ، وصدّقوا أن المساواة ستكون أحد أركان الحكم النيابى ، وأن هذه المساواة كما تشمل الأفراد فى الحقوق القانونية ، ستشمل القوميات فى الحقوق السياسية ، وفى طليعتها العروبة لأنها القومية الأولى التى قام الاسلام على مناكبها . وستشمل حق الحياة للغات الموجودة بالفعل فى المملكة العثمانية ، وأجدَر هنّ بذلك العربية ، لأنها لغةُ الشطر الأكبر من أراضى المملكة ، ولأنها ـ قبل ذلك وبعد ذلك ـ لغةُ القرآن الذى كانت تعيش دولة الخلافة العثمانية فى ظلاله كما كانوا يزعمون ، ثم لأنها اللسانُ العالمىّ المشترك للشعوب الإسلامية كلها .

كان إعلان الدستور العثمانى نهاية الحكم الاستبدادى الفردى من سلاطين آل عثمان ، ولكنه ـ ويا للاسف ـ كان بداية الحكم الاستبدادى الجماعى من متعصّبة الترك التورانيين ، عسكريين وسياسيين .

ما كاد الدستور العثمانى يعلن فى المملكة حتى رُسمت الخطط التورانية لمواجهة القومية العربية بالعزم على شطرها الى شطر مدنى ، ومنه الولايات السورية والعراقية ، على أن يُثقف أبناؤه بالثقافة التركية المحضة . وإلى شطر بدائى بزعمهم ومنه اليمن وعسير ومعظم الحجاز ، على أن يعتبر مستعمرات لا يُمثّل أهلها بنواب عنهم فى مجلس المبعوثان .

وتولى بعض شباب (جمعية النهضة العربية) فى اليمن إحباط المكيدة الثانية ، فجعلوا الدولة أمام الأمر الواقع ، بالاسراع فى انتخاب من يمثل اليمن فى المجلس النيابى ، والتصديق على انتخابهم محلياً ، وسفر هؤلاء الممثلين الى العاصمة .

وتولى شباب هذه الجمعية فى سورية وسائر بلاد الشطر المدنى إحباط (سياسة التتريك الثقافى) ، وفى المقالات التالية ـ بقلم الفقيد العبقرى صلاح الدين القاسمى رحمه الله ـ نموذج من كفاح (جمعية النهضة العربية) فى سبيل القومية العربية ولغتها وسجاياها وكيانها الخالد فيما بين الأزل والأبد .

م

المسألة العربية[1]

ونشأتها

كنا نسمع فيما مضى بالمسألة الشرقية ، والمسألة المصرية ، وما كان يخطر لنا على بال أنه سيأتى يوم يكون فيه للمسألة العربية شأن يذكر ، فتطرح على بساط البحث ، و يعنى بها المتأدّبون من أبناء الترك والعرب ، وتصبح مضغة فى الأفواه ، وتعلق عليها الصحف السيارة .

ولـكن من علم أن عامة الأشياء فى هذه الـكائنات تنتهى إلى أصل تنبعث عنه ، فتدرج من حجر الطبيعة مدفوعة بسائق ناموس النشوء والارتقاء ، تحقق أن هذه المسألة لم تخلق من العدم كما يقولون ، إنه لا بد لها من عامل يكيفها ، حيث توفرت لها شروط الحياة والنموّ منذ زمن بعيد .

وانك لو رجعت ببصرك ، إلى ما انطوى من الاحقاب الغابرة ، وقلَّبت صفحات الماضى ، لرأيت الأفـكار التى جالت فى خواطر أبناء الفريقين فيما مضى ، والتى تجول اليوم متصلة بسلسلة مستحكمة الحلقات لا انفصام لها ، ولا انفصام إلا متى توازنت قوة كل منهما فتوازت ، ونالوا قسطهم العادل من صبغة هذه الحـكومة النيابية ، ولهم ذلك إن شاء الله إن لم يكن عاجلاً فآجلاً .

و بعد فإن هذه المسألة ليست حديثة النشأة فان مراجلها كانت تغلى فى صدر العربى منذ القدم ، أيام كان يسمع من أخيه التركى ألفاظاً يسمه بها هى من التحقير والاستهزاء بمكانٍ ولا أرانى فى حاجة إلى ذكرها الآن ، خصوصاً وقد اتخذنا الأخوة والمساواة شعاراً لنا . وهى لم تـكن تدور فقط على ألسنة العامة والأوباش

---

(١) نشرت فى (المقتبس) عدد ٤٣ يوم الاثنين ١٢ المحرم ١٣٢٧ و ٨ شباط ١٩٠٩ .

من أبناء الأتراك ، بل كانت تقذف بها أفواه الأساتذة المبرّزين منهم فى المدارس العليا فى العاصمة وغيرها . فكان بعض التلاميذ من أبناء العرب يكظم الغيظ ، ويغض الطرف على القذى . والفريق الآخر ينتصب على الأقدام قائماً ويعترض الأستاذ ويلزمه الحجة ، وقد يقدمون فى حقه للمراجع الايجابية التقارير فى أنه يسعى فى التفريق بين العنصرين . ولا ينكر أحد أن فى نفوس بعض الأتراك نسيساً من حياة التعصب لا يزال حتى الآن فى حالة النزع والاحتضار ، ولا إخاله تلاشى ، فهو ينزع بهم كلما سنحت لهم الفرص إلى همز العرب ولمزهم ، حتى فى بعض مؤلفاتهم المحترمة ، وإنك لتجد فى تضاعيفها قطعاً بالية من نسيج الدور الماضى سداها التعصب الأعمى ولحمتها الجهل المطبق .

على أن العربى لو لم يكن عنده من عربيته الحقيقية التى تتطلب الشهامة والإقدام والصدق والأمانة والوفاء الخ . . . شىء يصح معه أن تنطبق هذه المبادىء العالية عليه لكانت العناصر الأخرى من كرديها إلى تركيها ومن أرناؤطيها إلى لازيها تمتُّ بحبل القرابة إلى العرب ، أكثر منه إذا كانت لها أخلاق فاضلة ترفع شأنها وتوطد لها مجداً مؤثلاً لا يجاريه سؤدد النسب ، ولكان هو على حد قول المتنبى :

إذا عربىٌّ لم يكن مثل سيفه   مَضاء على الأعداء أنكره الجد

يقولون : لماذا لا يقوم الأتراك فى وجه الأرمن والألبان وغيرهم من العناصر — مع ما يشاهد من مطالب هؤلاء السياسة ودعوتهم لقوميتهم — كما يقومون فى وجه العرب ؟ . .

سؤال لا أرى فى الجواب عليه أفضل من النظر فى تاريخ الأمتين — العربية والتركية . وليس بين الأتراك فيما أحسب من لا يعلم أن الأمة التركية ما نزلت إلا على آثار الأمة العربية ، وما شيدت من دعائم ملكها ، وما وطدت أسسه إلا على

أنقاضها . وهم يخشون أن تسرى فكرة الخلافة العربية فتتسرب فى فكر الكبير والصغير ، ومن ثم تقوم الأمة بعضها على بعض ، وهناك الطامة الكبرى .

بيد أنهم لو علموا أنه لا أثر لذلك فى نفوس السواد الاعظم من أبناء العرب ، وأن هذا ليس إلا من دسائس الخونة المارقين منهم ووساوسهم ، لمحى من ذاكرتهم هذا الذى نسميه سوء تفاهم ، وكانوا كلهم يداً واحدة للعمل على قمع شرور الاغيار ممن يتحينون الفرص ليوقعوا بنا المكايد ، و يصبوا علينا صاب المصائب .

إن مسألة ولدتها الاغراض والمنافع ، ونماها التعصب والجهل ، وإن شئت قلت سوء تفاهم متأصل فى النفوس ، يجب أن يسعى تركينا وعربينا وكردينا ، وأرناؤطينا ولازينا وارمنيناً إلى إبادته ، مادامت تجمعنا كلنا الجامعة العثمانية الصحيحة فى عصر الحرية والمساواة والإخاء .

من أجل هذا وجب أن لا يحمل قيام أبناء العرب على محمل واحد ، فإن فيهم من هو قائم بدافع الغيرة الحقيقية على وطنه وأبناء جلدته ، وما ذلك إلا لاستئصال شأفة هذا الذى نسميه سوء تفاهم من القلوب ، ونشر اللغة العربية ، وتعليم العربى بأقصر طريق ، وغير ذلك من المشاريع الإصلاحية . و إذا صح أن ثمة قوما يتخذون المسألة العربية نقطة استنادهم خشية على مراكزهم أن تزلزل بهم زلزالها ، ورغبة فى نيل بعض المآرب السافلة ، فهم كالزبد لا يلبث أن يذهب جفاء بأزاء قوة التضامن ضمن الجامعة العثمانية ، وهؤلاء ليسوا بأقل ضرراً ممن يتخذون الدين عصاً يتوكأون عليها توصلاً لما يتمنون أو يشتهون . وقد سئل « رنك » المؤرخ الالمانى المشهور مرة عن مذهبه ، فأجاب : « إنى مؤرخ أولاً ومسيحى ثانياً » ومعنى ذلك أنه لا يعرف سوى تتبع الحقيقة واتباعها ، و إن خالف فى ذلك أحياناً ما خالف . فإن كان هؤلاء العرب العثمانيون يضربون على هذه النغمة فى حركاتهم وسكناتهم بحيث يقفون سداً منيعاً بقوة ورباطة جأش فى وجه كل من يريد أن يكيد لهم

أو يضمر لقوميتهم السوء أو يعمل على نـكايتهم بهضم حقوقهم ، فلا تثريب عليهم حينئذ .

وليسموا أنفسهم بما شاءوا ، وليقولوا إنهم عرب أولاً وعثمانيون ثانياً . وقد شهدنا هذا التمسك الصحيح بمبدأ القوميات فى البلاد المتمدنة بين ظهرانى أعرق الامم حضارة ومدنية

وإن أقل فائدة تنجم عن الاحتفاظ بمبدأ القوميات هو أن يعلم الشعب فضيلة الاعتماد على النفس التى قلما ضرب حتى الفريق الذى نعده منا راقياً فى مثل هذه الفضائل بسهم وافر ، نعم إن الدستور قد سوى بين عامة العناصر ، وخوّل العرب حق الدفاع عن حقوقهم أينما ثقفوا ، ولـكن ذلك لا يكفى لنهضة الشعوب وخصوصاً المتخلفة منها ، ومن العبث أن يحاول الشعب التقدم ما لم يستعن بقوة نفسه المـكوّنة من عامة أفراده .

هذا ولا أرى بعد ذلك من حرج على من تأخذه النعرة القومية فيقوم ويطالب بالاحتفاظ بها ، ما دام هو يسعى وراء الدفاع عن حقوق أمته مدفوعاً بسائق الوطنية الصحيحة ، لتتوازن قوى عامة العناصر المتألفة منها الدولة ، وليصبح جسمها سليما ليس فيه قرحة دامية ولا عضو مئوف ، وليعلم أن جرح شعور عامة الطوائف أو العناصر يفضى إلى شق عصا الطاعة حيث الانقسام وساء مصيراً . م؟

ضائقتنا العلمية[1]

ما أرض يستثمرها سكانها فيستخرجون من ترابها ذهباً وفضة ثم انقطعت عنها عامة دواعي الخصب وأصبحوا ولا ظل يؤويهم ولا شيء يقوم بأوَد حياتهم بأشقى حالا وأسوأ منقلباً من بلاد نضبت منها موارد العلم الصحيح ، وأمحلت من ثمراته عقول أبنائها ، فبلغت فى مادياتها وأدبياتها أقصى درجات الانحطاط .

ولقد أجمع العقلاء من العلماء قديماً وحديثاً على أن نهضة الأمم تتوقف كل التوقف على إشاعة العلم الصحيح بين أبنائها . فإذا صودر العلم بين ظهرانيها فكأنما أوقفت حركة تنبعث منها قوة تعمل على بقاء المجموع . وليس آفة عضو مشلول تشبه علة مزمنة فى القلب أو خللاً متأصلاً بين طيات الدماغ .

قد تجد الأمةُ فى بعض الأحايين غناء عن الحاجيات الضرورية ، بيد أنها لو حولت نظرها عما يعزز شأنها فى العلم والاجتماع لأوشكت أن توردها موارد العطب ، أو تطوّح بها فى مهاوى الشقاء . . .

و إذا أردت أن يطابق الخبر الخبر فما عليك إلا أن تقلب صفحات التاريخ ، وتدرس نواميس انحطاط الأمم وارتقائها وأسرار تقدمها وتأخرها .

وليس يخاف أن الأوضاع العلمية والاجتماعية والمطبوعات من أقوى العوامل فى نهضة الأفكار وتنمية المدارك ، فالمدارس والكليات والمجلات والجرائد والمصنفات النافعة من أهم أمارات النهوض ، لذلك ما انتشرت فى شعب إلا وكان

---

(1) نشرت فى المقتبس ١١١ يوم الأربعاء فى ٨ ربيع الآخر ١٣٢٧ ، ٢٨ نيسان ١٩٠٩

له من يقظته الفكرية قوة تدفعه لنيل ما يبتغيه من الأمانى ، فيتمثل فى ساحات الانقلاب إذ ذاك مجليّاً مبرزا .

ومن موجبات الأسف أن لا نرى بين ظهرانينا شيئا من ذلك ، ونخشى إن طالت ضائقتنا العلمية أن يخمد فى الأفكار نسيس تلك الحياة ، ويذهب الجهل والتعصب بتلك الثمالة البراقة التى هى اليوم ينبوع مانشعر به من ظواهر الآلام وخفايا الآمال ، فليس عندنا من المدارس ما يجدر بالذكر ، ومع ذلك فإن من الناس من بلغت بهم القحة مكاناً قصياً فأخذوا يعدون الجلوس على مقاعد الدرس معرّة ودعارة ينجم عنها انتهاك حرمة الدين والحط من شأنه !

أما الجرائد فقد ذهبت بين عبدة الملوك وعبدة الدراهم ، وما هى إلا وطابٌ حفلَ من المثالب الشخصية ما لا تكاد تسقط فى لوثاتها على علم صحيح أو أدب غض أو فائدة تذكر . اللهم إلا فئة قليلة ممن أعرقوا فى العلم والأدب ، وجاهدوا فى سبيل الحرية جهاد الأبطال بأسنة ألسنتهم وأقلامهم .

وإنك لترى المجلات فى الغالب فارغة من مقالات كتبت بعد البحث والتدقيق ، وإن منها ما هو مجموع ألفاظ غثة باردة ضم بعضها إلى بعض ، فإذا أردت أن تهزها لا تكاد تسمع سوى وسوسة من نظريات الكاتب وآرائه تبلغ حد الأوهام . تلكم المقالات وأولئك هم حملة الأقلام الذين عناهم المنفلوطى بقوله :

« يكتبون مقدمة فى الأرض لموضوع فى السماء . والعنوان الضخم للخبر التافه الخ . . . »

بينا نرى الكاتب الغربى إذا أراد الخوض فى موضوع علمى يراجع لأجله عشرات المؤلفات ويرجع إلى غير واحد من المؤلفين . ومن لنا بمثل الكاتب الفيلسوف « غستاف فلوبر » فإنه راجع مائة وثمانية مصنفات ليتم أحد فصول

كتاب له دعاه (التربية الحسية) وانتقى بعد هذا كله بضعة عشر سطراً هى ولا شك روح تلك المصنفات .

ألا و إن الأمم تعتمد فى نهضتها على الطبقة العليا من علمائها الحقيقيين وشبانها المفكرين ، فبأعمالهم شيدت صروح مجدها وسؤددها ، و بأفكارهم وطدت دعائم عزها ، فقامت النهضة بمساعى « لوك » فى انكلترا ، و « فولتر » و « روسو » فى فرنسا ، و « كانت » و « فيختى » فى ألمانيا ، و « تولستوى » فى روسيا ، فهم الذين ألقوا على الشعب من الدروس الحكمية ما أوقفه على معنى حقوقه وواجباته ، فكانوا زعماء الحركة الإصلاحية فى عامة ما تذرعوا به من الذرائع .

وبعدُ فعلى من اعتمدنا نحن فى هذا الانقلاب الأخير فيما مضى ، وعلى من نعتمد الآن ؟ ليس القول الفصل فى بلادنا للعقلاء والمفكرين من العلماء كما هو الحال فى البلاد الأوربية بحيث يصح معه الاعتماد عليهم بقيادة الشعب والأخذ بيده إلى حيث الحياة الحقيقية . لأن الشعب هنا لا ينقاد إلى أمثال هؤلاء ، و ياليتهم كانوا غير ظاهرين فقط لكنك تراهم أبداً مضطهدين مهضومين ، وكلما لاحت لحزب الرجعيين بارقة يحملون عليهم حملة منكرة ، و يرسلون عليهم شواظاً من نار حسدهم الحامية .

و بعدَ ما ذكرنا لم يبق لنا من عضد نتخذه ونقطة استناد سوى الجيش ورجاله الذين خلّصوا الوطن والامة من براثن المستبدين . فالجيش هو ولا شك سياج الأمة وحامى ذمار الدستور بحد السيوف أو بأطراف الحراب إذا دعت الحال ولم ير أمامه سوى ذلك مخرجاً و مناصاً . وان فئة قامت فى وجه تلك الحكومة البائدة واستردت الدستور كرها يهون عليها أن تحافظ عليه من عبث العابثين وان كان يجر ذلك إلى إراقة الدماء .

ولا يهولن الأمر القارىء ، فان التاريخ لم يذكر انقلاباً فى سبيل الديموقراطية

إلا وكان فيه إشهار حرب شعواء بين الحزب الجديد وأعداء التجديد ، وكان السيف خير منصف ومسعف ، وهذه صفحات التاريخ موردة محمرة من طوفان الدماء المهراقة فى سبيل تأييد الحكم الشورى ، وغل أيدى المستبدين من رجال الحزب القديم ، خشية أن تطيل يد الأذى فتمزق أحشاء الشورى التى أتت بتأييدها الكتب السماوية والقوانين الوضعية .

وقلما تلد العصور قائداً جاهد فى سبيل العلم وتأييد الشورى يضارع «ناپوليون بونابرت» ، فلم تكد تخمد جذوة الثورة الإفرنسية وتمحى تلك الصورة النارية وقد مثلت الحرية تثأر من الاستبداد حتى وضع أنظمة وقوانين لعامة فروع الإدارة وأخذ على نفسه — عملاً بالقانون الذى وضع فى ١٠ آذار عام ١٨٠٦ — إصلاح دور الفنون والجامعات ، وقد عنى عناية خاصة بإحياء موات المعارف ، وتسهيل أسباب التقدم والارتقاء .

ألا وإن الجيش ما دام يحرس الدستور ، والعملُ به جار فى عامة أنحاء المملكة ، ورجاله تبث العيون والأرصاد فى كل جهة لترعاه بعين رعايتها ، فإن غوائل الثورة مأمونة ، والدستور بسلام .

ويجدر بى هنا أن أذكر كلمة للفيلسوف دانتون كان يكررها حينما يخطب فى القوم وهى :

« من أراد الظفر فعليه بالجرأة والاقدام ، ثم بالجرأة والإقدام ، وليكن شعاره على الدوام : الجرأة والإقدام » .

العلم والعامة(١)

العامة فى المشرق والمغرب هم الشطر الأكبر من كل ملة ونحلة ، فإذا ألمّتْ بما له مساس بحاجياتها الأدبية والمادية من الشؤون العامة ، وأتيح لها بعض الوقوف على شيء من حقوقها وواجباتها ، أتت منها قوة قلما نراها فى المنوَّرين كما هو الحال فى الأمم الناهضة .

أما إذا لم يكن للعامة من قوة الفكر ما يحملها على البحث والنظر – ولو فى المسائل البسيطة – كانت أرسالاً (قطعاناً) من الأغرار الأغمار ، تقاد بأيدى من لاخلاق لهم ممن لا يبالون أعاشت الامة أم كتب عليها العفاء أبد الدهر ، ما دامت تتوفر لهم ملذوذاتهم فى هذه الحياة . وكثيراً ما كانت العامة كذلك أيام كان القول الفصل فى الامة للغاشمين من كبرائها وأمرائها والجاهلين ، والمتسودين من متعالميها ، فحرَّمت ما أحل الله من العناية بضروب العلوم الرياضية والكونية حتى الدينية كالتفسير والحديث ، وهى لا تعرف فتيلا من نقير ، ونشأت عن ذلك للأمة مصائب وأوصاب يسطرها التاريخ بمدادٍ من دماء ، ولو قيِّض للعامة فى المشرق من يعنى بأمرها فى التعليم والإرشاد على ما وهبت من الغيرة الفطرية والحماسة الخارقة لرأينا منها خيراً كثيراً ، يدلك على هذا ما نشهد منهم عند ما تلمع فى نفوسهم بوارق

---

(١) نشرت فى (المقتبس) عدد ١٥٥ .

الحقيقة فإنهم يهيجون ويغضبون على اليوم الذى وسوس لهم فيه أولئك الطغمة والزعانف شياطين الدور الماضى .

على أن العامىّ لو بلغ من توقد الذهن وقوة العارضة أقصى الدرجات ، لا يجوز أن يشتغل فيما من شأن رجال العلم والإصلاح الاشتغال به من المسائل العلمية الدقيقة التى تحتاج إلى عراقة فى العلم ودقة فى النظر ، حتى قال العلماء : « العامىُّ لا مذهب له ، و إنما مذهبه قول مفتيه » وكلٌّ ميسر لما خلق له .

ألا و إن خوض العامى فيما لا يحيط به علماً ولا تبلغه مداركه جرَّ على البلاد الويلات ، وكان مدعاة لتضاؤل العلم والعلماء ، واتخاذهم التقيه شعاراً فى أغلب الأحايين ، ولكم مرة كتم العالم مايجول بخاطره من الحقائق العلمية وشُرِّد الآخرون إلى بلاد نائية حيث ألفوا بيئة صالحة أثمر فى تربتها ما نثروه من البذور الحية النافعة من علمهم وآرائهم . ومن هنا يظهر سر قول الإمام الشافعى :

أأنثر دراً بين سائمة النعمْ   أم انظمه نظماً لمهملة الغنمْ
ألم ترنى ضُيعت فى شر بلدة   فلست مضيعاً بينهم درر الكلم
فان يشفنى الرحمن من شر ما أرى   وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
بثثت مفيداً واستفدت ودادهم   و إلا فمخزون لدىَّ ومكتتم

و بعد فأن ما حمانى على كتابة هذه الاسطر هو لغط بعض العامة فى مسألة علمية لا تبلغها مداركهم مهما حاولوا .

وذلك أن جامعاً تداعت أركانه ، فقام الناظر ورغب فى أن يقوِّم منآده ، بَيْدَ أنه لما رأى سمت القبلة منحرفاً بعض الانحراف كما أخبره بذلك بعض البارعين فى

علم الهيئة أحب أن يرفع الجدار القبلى طبق ما يدعو إليه العلم ـ فثارت ثائرة بعض العامة تطلب إبقاء القديم على قدمه ، بدعوى أن هذا الجامع «عمرى» وأن الصحابة ولت شطر هذه القبلة ، على حين أن عمر لم يقدم دمشق ، وغاية الامر أنه وصل مرتين لبلدة الجابية (قاعدة حوران فى عهده) الواحدة لفتح بيت المقدس عام ١٦ والأخرى لتجنيد الاجناد وتمصير الامصار عام ١٨ .

ومن العجيب أن مثل هذا الشغب وقع فى عهد الإمام السبكى أيام توليه قضاء دمشق ، فقد ذكر فى فتاويه الكبيرة أنه لما علم كثرة انحراف (جامع جراح) تطوع جماعة من أهل الخير من أموالهم بما يعمر به و يجعل قبلته صحيحة ، فأراد أن يجعلها على الوضع الصحيح الذى تشهد له أدلة القبلة المسطورة فى كتب أهل هـذا العلم ، فبلغه عن أحـد المتفقهة وبعض العوام إنكار ذلك ، فأوضح (رحمه الله) أن مثل هذه المباحث مردُّها إلى أهلها كما قال إمام الحرمين : « قد ألف ذوو البصائر فى ذلك كتباً فتطلب أدلة القبلة من كتبهم » . ثم قال السبكى : « أفلا يستحى من ينـكر الرجوع إليها بجهله وعدم اشتغاله وظنه أنه من أهل الفقه وإن الفقه يخالفها ؟ أما يستحى من الانـكار على العالمين بعلوم الشريعة وغيرها ومن ظنه أنه على الصواب دونهم ؟ أما يستحى الفريقان من الـكلام فيما لم يحيطوا بعلمه ومن نسبتهم إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه دخل دمشق ولم يدخل عمر بن الخطاب دمشق و إنما وصل إلى الجابية القرية التى بحوران » . ثم قال : « فمن يترك الأدلة المحققة وكلام العلماء فى ذلك لمجرد هذه الأمور حقيق بأن لا يعبأ به » .

ثم أغرق الإمام السبكى فى هذه المسألة وساق كلاماً مطولاً عن إمام الحرمين والرافعى ثم قال :

« وجامع جراح إنما يقصد هدمه (يعنى فى زمانه) لإقامة القبلة على الحق ، فإذا هدم وجعل على القبلة التى يدل العلم عليها كان على الحق .

ولا يجوز تضييع أموال النـاس ووضع محراب نعتقد (يعنى علماء الهيئة) أنه على غير الصواب » اهـ .

هذا والفتوى مطوله تضمنت فوائد جمة تجدر مراجعتها ، أوردنا هنا خلاصتها عن المجلد الثالث من (تعطير المشام فى مآثر دمشق الشام) للأستاذ الشقيق الأكبر الشيخ جمال الدين القاسمى لتشابه المسألتين ، وما يصح أن يقال عن جامع جراح من الأحكام يجوز أن يقضى به على الجامع المجدَّد اليوم .

وقد عُهد التروى فى أمر القبلة فى كل جامع أراد الملوك والأمراء إشادته ، فقد حكى السيوطى فى (حسن المحـاضرة) أن جامع عمرو فى مصر وقف على قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة ، وأن جامع أحمـد بن طولون أحضر له فريق ممن لهم اليد الطولى فى علم الهندسة ، فليتدبر ذلك أولو الألباب .

فوضى الاقلام[1]

كنا وكانت للأدب فيما مضى دولة قامت بأقلام المبرّزين من أبناء العربيّة الأولى ، واستقام لها الأمر بما أتوه من عظيم الآثار ، وجليل الأعمال . وقد كان لها ممن أنجب الدهر زعماء انتهت إليهم إمارة القلم فتبوؤا من عرشها مرتبعاً يحسدهم عليه من وطئوا رقاب الرعية . وتوّجو ابتيجان تغتبط بها النجوم الطوالع ، أمثال الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الـكاتب والقاضى الفاضل وسهل بن هرون وغيرهم ممن إذا مات منهم سيد قام سيد . . .

كنا وكانت لهؤلاء يومَ انبسط ظل الأدب واستبحر فى أقاصى المعمور أندية تجمع بين المتشاكلين منهم ، فيجتمعون ليتبادلوا ما فيه الحـكمة البالغة والأدب الوفر من الأحاديث ، ويفترقون وقد حفل وطاب كل واحد منهم بما جمعه ووعاه عن أنداده ، وهكذا نالوا بصنابير الأقلام ما لا يُنال بحد الحسام .

وقد أصبحنا فى هذه الأيام ولم يبق لنا من هذه الدولة إلا رسوم محيلة ، وأطلال بالية ، فلحق من تأخر بمن تقدم ، وتبع الخالف منهم السالف ، وها هى البقية الباقية من تلك الآثار يهم بعضهم ويعمل على الاحتفاظ بها والابقاء عليها فلا يجد إلى ذلك سبيلا . . .

أصبحنا وأصبحت هذه الدولة فى هذه الأيام تجاه خصمين لدودين يتهددان حياتها : خصم خارجى يكيد لها ويتربص بها الدوائر ، فهو لا يعرف لها حقاً ولا يرفع لها شأناً ، وكان حظه منها حظ ذلك الرجل ـ الذى أخصى فى السياسة ،

---

(١) نشرت فى المقتبس ٤٧٦

وجعل حياته وقفا خالصاً عليها ـ من علم الأخلاق والمواعظ . فهذا رجل حسبه عذراً فى مناصبة العداء لها جهله بما انطوت عليه من أساليب الفصاحة ، وما وعت فى غضونها من أسرار البلاغة . وخصم داخلى يزعم أنه محب لها ويعمل على تعهدها من طريق إهمالها ، يسعى فى إحيائها وإقامة معالمها من حيث لا يدرى أنه يوردها موارد الهلـكة والبوار .

وإن أخوَف ما يجب أن تخافه عدوّ مبغض ، زارٍ عليك ، يَظهر لك ببزة الصديق الصدوق ، ويلبس لباس المحب الواله . أو صديق لك يعمل على شقائك ، وهو يعتقد أنه يعمل على سعادتك . وكلاهما شر من الآخر . فالويل لك إن أخلصت للأول النية ، وسكنت إليه ، وملّـكته قيادك . ويا ويحك إن عطفت على الثانى وحنوت عليه ، وأنت لا تعلم من أمره إلا أنه من أخلص عُشَرائك وخاصة إخوانك . وما العدو العاقل ، إلا خير من الصديق الجاهل .

وهؤلاء الذين يدّعون التفانى فى حب اللغة ويحامون عنها ليسوا إلا أعـداء ألدّاء لها ، وإن هذا السلاح الذى يذبُّون به عنها ، ويذودون بحده عن حوضها ليس إلا آخر سهم فى جعبتهم يريشونه لها فيصيبون منها موضع القلب ، ولا تلبث العربية الفصحى إذا ظل هؤلاء الأغرار الأغمار يتابعون السير فى خطتهم ، ويسلـكون هذا المسلك الوعر ، أن يعروها منهم ما يودى بحياتها . وإذ ذاك يفجعنا هؤلاء الـكتاب ! بأعز شىء لدينا ، وهو ما أبقته لنا غِيَرُ الدهر من تراث آبائنا الأولين .

وفى كل يوم تصدر صحيفة يتصدر منشئها للبحث فى الاجتماع وشؤون العمران وفلسفة التاريخ والأدب . وما أدرى فى أى مدرسة عالية تلقى هذه العلوم الجمة ، وعن أى أستاذ أو كتاب أخذ ما أخذ على نفسه استقراءه واستقصاءه والتنقيب عنه ، دع عنك الصحف التى تنشر للبحث فى الاغراض الـكثيرة الاخرى من هزل وجد .

وكان خيراً لهم لو علموا كيف يعنون بتهذيب عباراتهم ، ويتوفرون على الابتعاد عن الكلمات المبتذلة والجمل الركيكة المفعمة بها مقالاتهم ، بيد أنهم لن يفلحوا فى إصلاح أنفسهم ما داموا يتخذون من هذه البيئة عوناً لهم على نشر أفكارهم وآرائهم ، وما دام الرأى العام ينخدع بمظاهر النشر الخلابة البراقة ، ومادام الذين يسقطون على الحقيقة أفذاذاً ليس لهم صوت ينفذ إلى قلوب الخلق إلا إذا ضربوا على أعين الخلق ستاراً من المكر والخداع ! . . .

ولو كانت الشرائع الوضعية تقيم الحد على الجرائم الأدبية لكان أول من يجدر به أن يناله نصيب من القصاص رجال الصحافة اليوم ، اللهم إلا النزر اليسير منهم ممن عجموا عود الزمان ، وقتلوا الدهر خبرة وعلماً ، وفاض عليهم سلسبيل البلاغة فأخذوا منه حاجتهم وبرّدوا به غلتهم ، وكانوا كما قال ابن المقفع « شربت منها رياً ولم أضبط لها روياً ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هى نظاماً ولا غيرها كلاماً . . . »

ولو قدِّر لصغار الكتاب وهم يأملون أن تعود للغة نضرتها الأولى و يتجدد ثوبها الخلق بما ينزعون إليه من منازع الإصلاح فيها ، فيخبطون خبط عشواء ، و يكتبون ما يملى عليهم شيطان الهوى مما لا عهد به للعرب ولا يعرفون له ركزاً أو رمزاً ، وما لو بعثوا من أجداثهم لأكبروا ما يأتى هؤلاء وأنكروا عليهم هذا المزيج ، فلا هو أعجمى فيعرف ، ولا عربى فيقرأ ــ لو قدِّر لهؤلاء أن يتقاضوا جزاء على أعمالهم لما كان إلا معاجلتهم ببتر أناملهم قبل أن يهموا بكتابة شىء آخر يستحقون عليه الإعدام .

ولكن دولة الأدب اليوم أصبحت فوضى لا سراة لها ، بعد أن قضى المويلحى والشيخ محمد عبده ولحق بهما اليازجى ، ولا سراة إذا ساد هؤلاء الجهلة المتربعون على منصة النشر يندسون بين المتأدبين ظلماً وعدواناً بدعوى أنهم ينتصفون ممن سلبهم حقهم ، وأنهم يقضون عليهم حقاً لو شاءوا لتركوه ، ويكتب الواحد منهم

وهو يقول فى نفسه إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وهم وايم لحق لو لا برق الشهرة الخلّب، وبريق الأصفر الوهّاج ، لما خطّوا حرفاً ، ولا سجلوا سطراً ، وهم فى هذه المنزلة التى لصقت بالحضيض من الجهل المدقع والرأى المأفون .

على أنه كانت لنا من هـذه الثمالة من تلاميذهم ممن طرّسوا على آثارهم ، واحتذوا مثالهم ، بارقة أمل تلمع فى سماء المستقبل . ولـكن قضى الأمر ، وكان ما وضعنا فيهم من ثقتنا مبعث اليأس ومصدر الفتور .

وكأنما نال الضعف من أفـكارهم ، والخوَر من عزائمهم ، حتى أنهم ليس فى وسعهم أن يعملوا عملا صالحاً أو يأتوا بشىء جديد .

و بعد فإذا لم نيأس من هؤلاء الأدعياء أن يصل إلينـا منهم نور تنقشع به ظلمات العجمة عن الأفـكار ، وتقوّم به قناة هذه الـلـكنة فى الألسنة ، لانقطاعهم عن الاستمرار فى العمل ، وانصرافهم إلى الاشتغال بتوافه لا يغنى الاحتفاظ بها عن إهمال غيرها ، فإننا نرغب إليهم أن يتفرغوا للبحث عن أدوات الـكتابة ، وما يلزم الـكاتب من العلوم والفنون مما يستعينون به على إحكام ملـكة الآداب ، حتى إذا ما أخذوا فى الـكتابة يكون لهم من أسلوب الأدب الرائع ما يفرغون فى بودقته مادتهم الغزيرة ، وحينئذ يكونون ممن عملوا بما أقاموا به أنفسهم للدعوة إليه فحازوا الفضيلتين : فضيلة الدعوة وفضيلة العمل بها ، وهما ما يسعى إليه عشاق الحقائق وطلاب الـكمال .

هذا كتاب (المثل السائر) لابن الأثير ، وكتاب (أدب الـكاتب) لابن قتيبة ، وعشرات من المصنفات أمثالهما مما دبجته يراعة العالمين العاملين المتأدّبين من الـكتب الممتعة لإرشاد طالب الـكتابة إلى السبيل الواجب عليه اتبـاعه ليبلغ مبلغ أئمة اللغة والهادين المهديين من رجال الأدب ، ولو أخذنا بالقديم النافع ممـا أتى به هؤلاء ومزجناه بما ينطبق على حاجات الزمن من الجديد المستحدث لأتى

منه كتاب يهتدى به هؤلاء الـكتاب فى دياجى الحيرة المدلهمة .

على أنه لو عرف كل واحد منهم حدّه فوقف عنده لما آبوا وقد أقفرت ساحتهم ، وصفرت أيديهم وانتقضت عليهم أركان ما يقومون به من المشاريع ، ولما مشى هذا المجتمع البشرى فيهم متثاقلاً مضطرباً .

وجهلُ الـكثيرين من أدعياء الـكتابة أقدار أنفسهم جر عليهم الويلات ، وحملهم على الاسترسال فى الغلوّ ، وذلك ما دعاهم إلى أن حسبوا أنهم بلغوا الغاية التى ليس وراءها غاية فى العلم والأدب ، فجمدوا على ما تلقفوه منذ نعومة أظفارهم ، غير عالمين أن التعلم يمشى مع المرء من مهده إلى لحده جنباً إلى جنب وكتفاً إلى كتف .

ومما يذكر عن ابن المقفع ما رواه صاحب الأغانى قال : حدثنى اليزيدى قال حدثنى عمى عبيد الله قال حدثني أحمد قال سمعت جدى أبا محمد يقول : كنت ألقى الخليل بن أحمد فيقول لى : أحب أن تجمع بينى وبين عبد الله بن المقفع ، فجمعت بينهما ، فمرّ لنا أحسن مجلس وأكثره علماً . ثم افترقنا فلقيت الخليل فقلتُ له : يا أبا عبد الرحمن ، كيف رأيت صاحبك ؟ قال : « ما شئتَ من علم وأدب ، إلا أنى رأيت علمه أكثر من عقله » . ثم لقيت ابن المقفع فقلت له : كيف رأيت صاحبك ؟ قال : « ما شئت من علم وأدب ، إلا أن عقله أكثرُ من علمه » .

فهل لهؤلاء الأدعياء من الـكتّاب أن يقوموا بتربية مَلَـكاتهم النفسية والعقلية ويُعنوا بالأدب عناية خاصة ، قبل أن يخوضوا غمار الصحافة ويعانوا من أمرها ما يعانون ، ثم يبلغوا درجة أرقى ، فيشتغلوا بالعلم اشتغالهم بالأدب ، كما كان شأن هؤلاء النوابغ المتقدمين ؟ فحبذا يوم يقوم فيه هؤلاء بما عاهدوا به أنفسهم بعد أن علموا أن نهوض الأمة لا يكون إلا بالأدب الرائع والعلم النافع ، وما إخالهم إلا فاعلين .

كتبت فى بعلبكّ

المصنفات والتعريب(١)

تكثر المصنفات فى أمة بكثرة مجامعها العلمية ، وجامعاتها ، ومطابعها ، ومبلغ رقى أفرادها عاميهم وخاصيهم ، إلى غير ذلك من الوسائل التى تُعِد لعالم المطبوعات حركة مباركة زعماؤها أولئك النوابغ من أصحاب الرأى الراجح وحملة العلم الصحيح .

وليس أدلّ على مبلغ الأمم من الارتقاء من المصنفات التى تنشر فى أصقاعها وآفاقها ، فإذا أردت أن تلم بمعرفة حال أمة من الأمم النفسية والمادية والفكرية فابحث عما ضمت مكتباتها من المصنفات ، مما أودعه أبناؤها النوابغ من نتاج عقولهم وثمرات أفكارهم .

والأمة فى بدء نهضتها لا بد لها أن تأخذ عن الأمم العريقة فى المدنية والحضارة بنصيب وافر من علومها وآدابها ، وتنقل إلى لغتها ما يلزمها من ضروب الارتقاء فى التربية والتعليم ، ليتسنى لها بلوغ ضالتها المنشودة ، وأمنيتها المقصودة . وكذلك الأمم التى سبق لها مجد مؤثل دثرت معالمه ، وكتبت عليها النواميس الطبيعية العفاء ، يبقى بعدها فى الغالب تراث تدخره الأيام لمن يحسن استعماله من الأمم الأخرى ، فيكون بمثابة مادة حيوية لنهضة جديدة تتجدد بها حياتها . ومن دثور مدنية الأمم الغابرة كاليونان والفرس والعرب فيما مضى أخذ الغربيون عن مجموع هذه المدنيات أعظم مثال وأبلغ ذكرى .

ألا وإن أمة قريبة العهد بالحرية والدستور لا ينتظر منها أن تقوم وحدها بهذه النهضة ، بل لا بد من أخذ الحكومة بيد الأمة فى بدء الانقلاب كما يقول

---

(١) نشرت فى المقتبس ٧٥٨

أديمون ديمولان العالم الفرنسى المعروف ، حتى يأتى يوم تنشأ فيه بين ظهرانيها جمعيات علمية كبرى تكون عونا للمعربين فى نشر آثارهم فتمثل مؤلفاتهم بالطبع وتدر عليهم من الرزق ما يعيشون به عيش رَغَد ورخاء .

أرأيت أيها القارىء وأنت تدرس تاريخ العرب المجيد ، وتقف ذاهلاً بإزاء النهضة العلمية العربية الأولى ، أكان يدور فى خَلَدك أن تقوم آنئذ للعلم سوق نافقة ، وأن يقوم مثل بختيشوع وحنا بن اسحق ويوحنا بن ماسويه وجورجيس وحنين ابن اسحق وعيسى بن يحيى وحبيش الاعسم وعشرات أمثالهم بنقل كتب جالينوس وإبقراط فى الطب ، وأرسطو فى الحكمة ، وأفلاطون فى الطبيعيات ، لو لم يكن عند الأمراء العباسيين أمثال الرشيد والمأمون من الخبرة الواسعة والتسامح العلمى ما حملهم على أن يواسوا هؤلاء المترجمين بالعطايا الوافرة ، ويغدقوا عليهم من الهبات ما سجل لهم الفخر أبد الدهر .

ومما لا مشاحة فيه أن نقل المصنفات من لغة إلى أخرى يتوقف كل التوقف على إحكام اللغة التى يراد نقل الآثار إليها أولاً ، والتوفر على دراسة اللغة التى دونت بها تلك العلوم ثانياً ؛ وفى التعريب من الصعوبة ما لا يتذوق مريره إلا من يعانيه من المصنفين والمعربين والأساتذة فى كتبهم وتقريراتهم وأماليهم ، ولا سيما فى وضع المصطلحات العلمية وصوغها بلفظ عربى مبين .

نقول « العلمية » ونريد بها — عدا العلوم الاجتماعية والاقتصادية — جماع العلوم التى يسميها بعضهم بالفنون كالهندسة والفلك والفلسفة والطبيعة والكيمياء والتشريح وطبقات الأرض وعلم منافع الأعضاء وما شاكل ذلك ، هذه العلوم المادية . وما حوت من الاصطلاحات التى هى محك فكر المعرّب ، وفيها تتجلى قدرته العلمية واللغوية بأمثل مظاهرها . وليست كتب الروايات والأقاصيص والتاريخ والخطابة والأدب شيئاً مذكوراً بإزاء الإقدام على تعريب تلك العلوم ، اللهم

إلا ما يقع أحيانا للمعرّب من الوقوع فى ضائقة الألفاظ عندما يعمد لوضع أسماء لمسميات حدثت مؤخراً بتقدم العلوم والصناعات ولا عهد للعرب الأولين بها ، كوصف حجرة حافلة بما جادت به أيدى المصورين والنقاشين من ضروب الأعلاق النفيسة والذخائر وأنواع الأثاث والرياش .

ولقد رأينا معظم تلك المصنفات وفيها عـدا عما يتراءى أمامك من عجز المعرب عن تعريب الألفاظ المحدثة ، الجمل الغثة الباردة ، والتراكيب الركيكة ، واستعمال ألفاظ خصت بها اللغة العربية فى غير مواضعها ، وعبارات ترى عليها مسحة العجمة أو نقل ألفاظ أعجمية طبق ماجاءت فى الأصل ، وكان يمكن الاستعاضة عنها بغيرها من الفصيح الجزل لا الإتيان بمبتذل الـكلام مما أكل عليه الدهر وشرب .

وبعد فإن الأدب مبدأ حياة اللغة ، وهو على التحقيق مباءة ما يظهر فى البيئة من الأفـكار والمبادىء مما يفيض على اللغة من غزارة المادة وتنوع الأساليب حتى تذخر المـكتبات بالمصنفات الجليلة النافعة . واللغة كما هو الحال فى كل شىء يشملها ناموس النشوء والارتقاء ، فهى ولا جرم فى الأمة البدوية غيرها فى المتحضرة ، وما قط يتفاهم أبناء القرن العشرين وقد حدث بينهم من الآلات والأدوات للمصانع والمراصد والطب والجراحة ، بمثل ما كان يتفاهم به شيوخ القرون الأولى .

ولا شك فى أن اللغة العربية كانت لها فى القرون المتأخرة نهضة تذكر فتشكر على أيدى الأفاضل من أبنائها ، بيد أن من بواعث تأخرها ما يراه البصيرون فى قواعدها وموادها من ضائقة الألفاظ ، ووقوفها موقف المستكين للجمود فى أساليب الإنشاء المستحدثة .

وإنك لتعجب عندما تتصفح الـكتب الحديثة العلمية المترجمة إلى التركية وتشهد فيها عَمهَ المترجمين فى ضلالاتهم حين يعمدون إلى ترجمة المصطلحات العلمية على حين أن معظمها مأخوذ عن اللغة العربية .

و إن تعجب فعجب ممن يودّون تطهير اللغة التركية في زعمهم من الألفاظ العربية ، فإنهم يحاولون بصنيعهم هذا أن يقضوا قضاء أبدياً على العلم والتعليم العالى فى المملكة العثمانية من طب وحقوق و إدارة من حيث يدرون ولا يدرون ، لأنه إذا كانت الكتب المدرسية التى يتدارسها التلاميذ اليوم تقوم لها قائمة فبفضل العربية التى يستعينون بألفاظها على وضع أسماء لمسمياتهم مع ما فى بعضها من تحريف ذهب بمعناها الحقيقى كإحلال حروف لا يحسنون تلفظها محل أخرى ، و إعطائهم للأسماء ما للأفعال من التصريف والاشتقاق .

و إنهم إن استطاعوا أن يضعوا فى مصنفاتهم بعض الاصطلاحات التى لا شوب فيها ، فالفضل فى ذلك يرجع إلى رجال النهضة المصرية من أبناء العرب الذين أخرجوا للناس من مصنفات العلم والاجتماع ما دعا غيرهم إلى أن يأخذ عنهم ويحذوَ حَذْوَهم ، وليت أولئك المتهوسين من مؤلفى الترك عرفوا ذلك فأنصفوا ، ولكن السياسة لا عقل لها ولا دين ! . . .

كتبت فى « المريجات »

الخطران الأصفران

الصهيونية ، والوباء[1]

إذا صدقت نبوءة السياسيين وصحت تجارب الأطباء كانت سورية محفوفة بخطرين أصفرين يهددان حياتهـا الاقتصادية والسياسية ، وهما : « مشروع الأصفر[2] » و « الهواء الأصفر » .

أما الأول فإن معظم المفكرين والعقلاء ، فوق تطيّرهم منه ، يتوقعون من من ورائه شراً مستطيراً على الأمة والوطن بدعوى أن جل الأسهم لا بد أن تلعب بها أيدى الأجانب من الصهيونيين بابتياعهم منها عدداً وافراً ، و بذلك يكون لهم الشطر الأكبر ، ولا يبعد أن تحول بعد ذلك تلك الشركة التى يدّعون أنها وطنية عثمانية إلى كتلة أجنبية صهيونية ما دامت الأسواق المالية مفتحة أبوابها ومعروضة أسهمها لـكل طالب ، وما دام للصهيونيين فى معظم المصارف حتى مصرف « كريدى ليونه » نفسه أيدٍ عاملة تسعى وراء خدمة مصالحهم ، وتدخر لهم فى خزائنها الدرهم والدينار . كما وقع بمشروع « قناة السويس » ، فإنه أصبح اليوم انـكليزياً بعد أن كان بالأمس فرنسياً مصرياً .

---

(١) نشرت فى المقتبس ٧٨٣ الأحد ٢٤ رمضان ١٣٢٩ ، ولعلها أول صيحة أنذرت العرب بالبلاء الصهيونى .

(٢) « الأصفر » اسم أسرة لبنانية متفرنسة كانت تملك أراضى واسعة فى شمال فلسطين وعرضتها للبيع بالأموال الصهيونية .

و إذا تم ما يريدون وتحققت أمانيهم الذهبية فى « غور بيسان » وغيرها من أراضى فلسطين ، واستمتعوا بخير تلك البلاد وميرها ، صاروا فيها أصحاب الحول والطول ، واستتبع ذلك مطاردة الوطنيين أصحاب الملك الحقيقى ، ووقوعهم فى ربقة استعبادهم حتى لا يعتم هؤلاء إلا وهم فى أوطانهم غرباء . والأمم التى رزئت باستقلالها وحريتها وأرهقها الأقوياء وذوو البأس من أمرها حصراً وعسراً إنما أصيبت فى الغالب من طريق المشاريع الاقتصادية والشؤون المالية .

وخير للأمة التى ترغب أن تتفيأ ظلال الحرية والاستقلال وتستمتع بحياة الشورى الحقيقية أن تكل عمران تلك البقاع والرباع مهما أنهكها المحل والجدب إلى الطبيعة بحيث لا تعمل بها يد إنسان ، من أن يعتمرها الأجانب ، وتكون للوطنيين مرعى وخيا ومستو بلاً رديئاً .

أما الخطر الثانى فكان منشأه ضفاف « الغانج » فى الهند منذ الأزمنة الغابرة ، حتى ظهر فى أوقات مختلفة فى القارات الخمس ، ووقف دولاب الأعمال والاشغال فى التجارة والصناعة ، وكادأن يأتى على الثروة العامة والأراضى الزراعية بتقليل عدد نفوس السكان .

وقد انبعث منذ مدة من الهند إلى مكة وجدة ودهم أوطاننا العربية وكان مجموع الوفيات فى مصر وحدها أربعين ألفاً ، وأصيبت به فرنسا بطريق العدوى من انكلترا سنة ١٨٣٠ فكانت الوفيات مائة ألف ، وظهر سنة ١٨٤٩ وامتد خمس سنين كانت فيها الوفيات مئة ألف أيضاً ، وفى وقوعات سنة ١٨٧٣ بلغت الوفيات مائة وثلاثة وأربعين ألفا ، ونحو عام ١٨٨٤ و ٩٢ و ٩٣ فشا فى « طولون » و «باريس» و «مرسيليا» . وعرّج عام ١٩٠٣ على سوريا وبلاد الروم «الأناضول» وجاس ثغور البحر إلى « سمرقند » و « باكو » وعم روسية كلها سنة ١٩٠٥ ، ثم عاودها وفشا فى ألمانيا هذه السنة نفسها وسنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و ١٩٠٨ ثم ظهر

فى روسية منذ تسعة أشهر وانتقل منها إلى العاصمة العثمانية و بعض بلاد الدولة ولا يزال فاشياً بها حتى الآن ، وهو يهدد سورية اليوم .

و بعد فأن العامل فى هذا الداء ميكروب عنى بالبحث عنه الدكتور الألمانى المشهور « كوخ » يوم أمّ مصر لهذه الغاية فى وفد خاص سنة ١٨٨٣ ثم غادرها قاصداً الهند ، وما زال يدقق و ينقب عنه حتى وفق ثمة إلى اكتشافه فى أحد المستنقعات .

ومن لنا بطبيب اجتماعى حاذق يكشف ميكروب الأصفر الأول الذى يهدد فلسطين بالصهيونية ليكون للموالين له منه برهان مادى ممن يرونه بأعينهم ليوقنوا بما يجر وراءه من الويلات على البلاد والعباد .

لهذا يجدر بالسوريين جميعاً أن لا يبيتوا إلا خائفين من شر هذين الخطرين ، كما كان ولا يزال العالم الأوروبى يخشى بأس أصفر ثالث فى اليابان والصين متذرعين بأنجع الوسائل ليدرأوا عن هذا الشرق المسكين كل خطر أصفر لئلا يقع و بنوه فى هوة الموت الأحمر ! . . .

كتبت فى دمشق

مشروع الكلية

لعبت نشوة المنى برءوس بعض المفكرين من رجال نهضتنا فأخذوا يتغنون بتأسيس كلية علمية كبرى يؤمها أبناء هذه البلاد على اختلاف مللهم ونحلهم . ولم تكد تذيع هذه البشرى السارة على صفحات الصحف السياسية حتى بدأت التبرعات ترد تترى من كل صوب وأوب .

وكان ذلك على أثر اقتراح أحد سراة الأغنياء فى بيروت ممن عرفوا موضع الحكمة فى أموالهم فشرعوا يصرفونها فى الوجوه المشروعة المعقولة ، إذ كان يعتقد أن لا سبيل لرقى البلاد العربية إلا بنهضة علمية يظهر أثرها فى دمشق . وقد أوفد لهذه الغاية أحد الصحفيين فقدمها هذا واختار من رأى فيهم العقل والدراية ، ثم دعاهم إلى فندق « الخوام » فاجتمعوا وتذاكروا مليا بعد أن تناولوا الطعام بضيافة ذلك المثرى العاقل .

مضت الأيام ودرجت الليالى ولم يظهر شيء عن هذا المشروع يصح أن يكون باكورة عمل أو فاتحة خير ، ليعلم القوم أن وراء هذا السكون حركة تبشر بنجاح المشروع ، أو تدفع الظنون والشبه على الأقل عن هذا الإمهال الذى خشى العقلاء هنا أن يصير إلى الإهمال .

ولا بد للناظر أن يأخذه العجب لأول وهلة من هذا الجمود المستمر ، أو الاخفاق فى المسعى ، ولكن المدقق لا يعجب متى علم أن الضالة إذا نشدت من غير مظانها لم يهتد إليها الباحث عنها ، وأن من لم يُعِدَّ للحرب عدتها وعتادها بداءة بدء يدركه ولا جرم الخذلان و إن كان فارساً .

ألا و إن هذا المشروع يحتاج إلى نفقات جمة شأن غيره من المشاريع الكبرى الخيرية أو العلمية ، كأن تكون ثمة حكومة تقوم بما يلزم المشروع من استعداد ، أو جمعية غنية كبرى تظاهره بما توفر فى صندوقها من الأموال ، أو جماعة من كبراء أرباب الثراء يرصدون له من أطيانهم وعقارهم ما يكفل بقاءه وارتقاءه . و إلا فما دمنا نلتمس للحصول على بغيتنا طرق أبواب الإعانات ، ونلجأ الى طرق التبرعات ، بحيث لا نجد فى أيدينا عشية ذلك النهار مهما جهدنا وجاهدنا إلا النزر اليسير ؛ فلا مناص من أن يدرك أعمالنا الانحلال والاضمحلال .

لما أزمع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله إنشاء كلية إسلامية فى القاهرة فاتح فى ذلك قبل كل شىء صديقاً له هو المحسن الشهير أحمد باشا المنشاوى وأقنعه بأن يحبس على ذلك من الأطيان والعقار ما يكفيه . وقد كاد يتم الأمر لولا أن المنية حالت دون الشروع بالمقصود فاغتالت ذلك المثرى المشهور فثوى فى ثرى رمسه ، وثوت معه تلك الفكرة .

وفى العام المنصرم أراد السيد رشيد رضا صاحب المنار الإسلامى أن يبعث تلك الفكرة من مرقدها فلجأ إلى الحكومة العثمانية فى « فروق » عاصمة السلطنة ، ليكون له منها فى هذا المشروع ولى نصير ، ولكن خابت ظنونه إذا أظهرت له الأيام خداع تلك الفئة الضالة ومكرها ، وعاد إلى مصر دون أن يظفر منها بطائل .

ولما رأى أن آماله فى مشروعه على وشك أن يَعْرُوَ زهراتها الفضية الذبول عمد إلى المثرين فاستدر منهم الهبات الوفيرة ، فواحد جاد بالمئات من الجنيهات ، وآخر سمح بالألوف منها ، ومن أشهر هؤلاء الشيخ قاسم آل إبراهيم من سراة البحرين ، وفقيد القطر المصرى ووزيره الأكبر مصطفى رياض باشا ، فقد تبرع الأول بألفى جنيه والثانى بمائة جنيه وحذا حذو هذين الرجلين الكريمين كثير من وجوه مصر وسوريا وغيرهما .

ومن لنا بأرواح مثل هؤلاء تنفخ فى أغنيائنا روحاً من الحياة تهتزّ منها أعصابهم وتخفق لها قلوبهم ، فيجودوا بالقليل من ذلك الكثير من أموالهم على الأوضاع الاجتماعية والأدبية ، ويدّخروا ذلك ليوم لا يذكر فيه المرء إلا بما قدمت يداه ، وكانت له من بيض أياديه على أمته آثار مذكورة .

وليس الإخفاق فى المسعى ناشئاً فقط عن قلة المال عندنا بل عن المطالبة بما لا قدرة لأغنيائنا على القيام به ، لا لأن صناديقهم خاوية خالية ، بل لأن نفوسهم لم تعتد أن تنفق على أشباه تلك المشاريع ونظائرها . ورب غنى يجود فى ليلة راقصة بمائة أو مائتى جنيه ، ويضن أن يرسل على نفقته إلى معاهد العلم تلميذاً أو تلميذين يصرفان طول السنة ما ينفقه فى تلك الليلة .

ألا و إن تشبث المشارقة بأمثال تلك المشاريع الكبرى رأساً مع ما رأيت من جهل الناس بواجباتهم و إمساك الأغنياء أموالهم ، أدى إلى إخفاق المساعى وانحلال كثير من المشاريع .

و بعد فقد كان الاجدر بنا أن نسعى فى تأسيس مدرسة ابتدائية على مثال المدارس الراقية فى ألمانيا ، ويعنى المفكرون منا بوضع برنامج لها ينطبق على مناحينا ومنازعنا ، و يدخلون إليها من العلوم ما تمس حاجتنا إليه وذلك أبقى لمصالحنا وأقرب إلى طباعنا ، فيصيب أبناؤنا منها تربية عالية ، و يشدون طرفاً من العلم بدلاً من أن نملأ الخافقين بأمنية تأسيس كلية علمية عظمى ، وليس فى وسعنا أن نضع لها الحجر الأول ! . . .

الأمة والموظفون (1)

إذا كنا نسر يوم يتولى أمر هذه الأمة طائفةٌ من أبنائها جمعوا الى العلم بالشئون الادارية والقضائية والسياسية معرفة لغتها وعاداتها ومنازعها ، فما أحرانا أن نسر بالأكثر وأن يكون أملنا عظيما إذا اجتمعت فى هؤلاء أيضا خلالٌ أخرى شريفة أخصها الحزم والعفاف والعزم والوطنية والشعور بالواجب وما شاكلها من الملكات النفسية والمزايا الأدبية مما قد يحتاجون اليـــــه حاجتهم إلى الصفات الأولى وزيادة ، يحتاجون إليه ليس فقط ليحكموا بين الناس بالعدل ويقسطوا بل ليقضوا واجباً وطنيا هو بهم ألصق وفيهم أعرق .

وما دام الموظف فرداً من أفراد الأمة له مالها وعليه ما عليها ، فان الواجب الوطنى يحمله على أن ينظر إلى أمته نظرة صادقة ، نظرة محب يسرّه أن يراها فى رغد ورخاء ، ويبكيه منها أن تلبس لبوس البؤس والشقاء .

وهذا هو سر جذل الأمة بموظف من أهل البلاد يحسن لغتها وله اطلاع على طبائعها وأخلاقها ، وإذا كان ذلك كذلك فحقيق بأن يحبها ، ومن حق محبته لها أن يسعى دائما وراء خيرها ونفعها أكثر من الدخيل لغة ومنبتاً ، ويقدّم عمله هذا برهانا على حبه لها . وإلا فإن القوم لا تهتز أعطافهم طرباً ولا تلمع على نواصيهم بوارق البشر ولا تلوح على شفاههم ابتسامات السرور حين يلاقون ذلك الموظف ويستقبلونه من أجل عيونه السوداء ، وثناياه البيضاء .

---

(1) نشرت فى المقتبس العدد ١١٤٩ فى ١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٣١ ، ١٣ آذار ١٩١٣

ومن نكد الدنيا على هذه الأمة أن منيت بموظفين هم من صميم أبنائها وممن يحسنون لغتها ولكنهم ويالالأسف أساءوا اليها ولا إساءة الدخيل عليها العدوّ لها ، فلم يزنوا الأمور بميزان النصفة والروية ، ولم يراعوا عواطف الشعب وميوله ، لا بل وقفوا سداً منيعاً أمام تيار الرأى العام ، لا لعلة سوى مجاراتهم لبعض من سموا أنفسهم أعياناً ظلماً وعدواناً ، وخدمتهم لبعض الأحزاب السياسية ولو كان فى برنامجها ما يقضى على مستقبل أمة هو أحد أفرادها ورجل من رجالها .

ولقد رأينا من هؤلاء أيضاً من حملوا علماً جما وأدبا غضاً ، بيد أننا لم نر بينهم واحداً ضرب بسهم وافر من الخلال الفاضلة ، فقضى بسوء تدبيره وفساد مبدأه على المصالح العامة ، وضرب الأمة فى قلبها فحال دون نيلها أمانيها ، وأخرها أشواطاً بعيدة عن الرقى باذعانه لزعماء الفساد وقادة الضلالة وعباد المنفعة ممن لا يبالون أسعدت الأمة أم شقيت .

وياليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد ، بل منهم من ينظرون الى الأمة بعيون رجال الاستعمار الجائرين ، فكانوا يسلبونها أموالها وإرادتها ويضطهدون المخلصين من أبنائها ، ويرمونهم بالرجعة تارة والمروق أخرى ، ويتقولون عليهم الأقاويل الملفقة والاباطيل المنمقة ، لا بل رأينا بعض المستعمرين ينظرون إلى مصالح الأمة العامة حباً بمصالحهم الخاصة ، وهؤلاء كانوا وما زالوا لاينظرون إلا إلى مصالحهم الخاصة .

ولقد كان هذا الأمر يُشمت فينا اعداءنا باتخاذهم ذلك حجة علينا ، إذ كانوا على أمتهم سبّة عار وشنار ، وكاد أن يلحقنا من جراء ذلك الخسران الأدبى من سوء القالة وفقد الثقة ، فوق ما لحقها من الخسران المادى من ابتزاز الأموال برشوة وإتاوة .

نعم ، كاد يكون ذلك لولا أن تداركها نخبة من علية أبنائها أبانوا فى أعمالهم

حين تولوا الأمور ، وحين عرضت عليهم المناصب فأبوها ، وحين كانوا فى معزل عنها وناحية منها عن جدارة ونزاهة ، مما دل على أن فى السويداء رجالاً ، وأن فى ثنايا هذه الكتلة الكثيفة البطيئة الخطا بقية من الحياة والنشاط .

ولا شيء أدل على أن الأمة تطلب السعادة والمجد من إكرامها نوابغها ومعرفتها أقدارهم وتمييزها بين ما ينفعها وما يضرها ، وبين عدوها وصديقها لتنوط بهم أمورها وتعهد اليهم بشؤونها فيتعهدوها ويخدموها بكل صدق وإخلاص .

وإذا كان فى هؤلاء من يأبى خدمة الحكومة اليوم فليس لأنهم يستنكفون عن خدمة أمتهم أو لأن الوظيفة مهنة ساقطة ، بل لأنهم لا يريدون أن يتبوّءوا المناصب وأيديهم مغلولة وهم فى قيد ثقيل عن حسن إدارة هذه البلاد ، أو لأنهم والحال كما رأيت ليس لهم من الأمر إلا العمل بارادة المركز . أما الوظيفة فهى فى حد ذاتها من المهن الشريفة ، وكما أنها تكون فى الأحايين من أعظم عوامل النهوض إذا كان مالك زمامها قد وفاها قسطها وكان لها أهلا ، فكذلك قد تكون خسيسة ومن وسائط التخريب إذا وسدت لغير الأكفاء فشانوها بأن أنزلوها عن منزلتها الحقيقية واتخذوها آلة لقضاء مآربهم السافلة .

والوظائف إذا عدها القائلون بالاستقلال الذاتى والعاملون به فى أخريات المهن النبيلة أدبية كانت أو مادية ، فما ذلك إلا لأن الوظائف لابد أن يشوبها شيء من العبودية ، ويشذ عن ذلك طبقة من عقلاء الموظفين ورجال الحكومة البعيدى النظر فانهم يستطيعون أن ينهضوا بأوطانهم فى كل الظروف

ألا ترى أن الذين جمعوا كلمة أمة الجرمان يوم كانت « بروسيا » فى حالة النزاع والاحتضار ، ويوم ظن الأوربيون عامة ونابليون بونابرت خاصة أنها ستمحى من مصور العالم وان ساعتها الأخيرة فقد دنت بما تراجع من ملكها وما انتقص من أطرافها وما انهزم من فيالقها ، فما لبسوا أن نهضوا بها وأوصلوها الى

هذه المنزلة ، هم فئة فاضلة عاقلة من حكامها ورجال حكومتها نظير « فردريك الكبير » و « غليوم » و « الكتور الكبير » و « بسمارك » وطائفة من الموظفين المخلصين العاملين العاملين أمثال « فيختى » و « نيبور » و « البارون اشتاين » و « البيكباشى شانهورست » و « الميرألاى ستوفل » وغيرهم ممن بثوا فى الأمة روح « الشعور بالواجب » فكان الموظفون من أعظم ممثليه حتى أمكنهم مع ما توفر لذلك من الوسائل أن يؤلفوا (الوحدة الألمانية) بانضواء ألمانيا كلها تحت لواء « بروسيا » ، وحتى أصبحت هذه فى زمن قليل فى مصافّ الدول العظمى

وبعدُ فلا نطلب اليوم من موظفينا وقد علمنا منشأهم ومبدأهم أن يكون الواحد منهم فيلسوفاً مثل فيختى ومؤرخاً كنيبور وداهية كبسمارك واداريا كشتاين وجندياً كشانهورست وستوفل ، ولا أن يأتونا باعمال فوق طوق البشر ، أو يتمثلوا لنا ملائكة مقربين ، بل جل مانطلب منهم أن يأتمروا بأوامر القانون وينتهوا عن نواهيه ويمنحوا الأمة ما تريد . وما تريد إلا الإصلاح . وأن يتقوا الله فى أنفسهم ووطنهم حتى لا يطوّحوا بهذه الأمة المسكينة فى مهاوى لاضمحلال والانحلال ! . . .

« دمشق »

الحكومة والأمة

«إلى دعاة الاصلاح»

من الأحوال الطبيعية للجماعات أن يكون بين الحكومة والأمة توازن يحفظ بأنظمة وشرائع تجمع بين سعادة الحاكم والمحكوم ؛ فاذا انحرف مزاج الجماعات بحيث طرأ عليها من العوارض ما يجعلها تخل بذلك التوازن عدّ ذلك من أحوال مرضها ، فان كان مصدره الحكومة ظهرت بمظهر الاستبداد وانصبغت بصبغة الحكم المطلق ، و إن كان منشأه الأمة فهو من أعراض الفوضى ، وفى كلتا الحالتين يعم البلاء ، ويحيق الشقاء . . . .

وقد أرانا التاريخ نماذج مختلفة لانحراف التوازن كثيرا ، واعتداله قليلا. وكثيراً ما كان بطش الحكومة الاستبدادية . وعسفها هو الباعث لذلك الانحراف ، فاستبدّت بالأمة واضطهدتها زمنا طويلا إذا كانت بجانبها القوة تفعل بها ما تشاء وتسوقها الى حيث تشاء .

أرانا التاريخ هذا وأرانا حروباً نشبت ، ودماء سفكت ، وأرواحا زهقت لدفع القوة الظالمة القاهرة ، ودرء ويلاتها وشرورها ، ووضع حد لما تتحمله الأمة من المغارم والمظالم .

يحصل هذا إذا ما انتبهت مشاعر الأمة وعرفت أن حق الحياة من حقوقها الطبيعية ، وأن السلطة الاستبدادية إذا اغتصبته فعلى الأمة أن تسعى فى استرداده وبيدها اليمنى كتاب العدل ، وباليد اليسرى سيف الانتقام .

ولـكن مشاعر الأمة لم تنتبه إلا بعد أن توفرت لها أسباب ووسائل هيأت لها بيئة صالحة نمت فيها جراثيم الاصلاح وانـكشف لها فيه أفق المستقبل مذهّبا بضياء السعادة ، فسارت اليه ، ولـكن على محجة بيضاء ، واجتمعت ولـكن على حق لا على ضلالة ، إلى أن أمكنها أن تنال أمانيها وآمالها ، حتى أصبحت آمنة شر حاكم غاشم يتسيطر عليها فيقهرها بعسفه وجوره ، وحتى لا تؤخذ غيلة باتباعها ناعقاً من رجال السوء وعبّاد الفتن ، يوسوس لها ليقودها إلى شر لا ترى لها منه منجاة إلا بالموت . . .

إذ ذاك نشاهد هذا التوازن قد نشأ ، ولـكن فى صورة طبيعية ومظهر تام احتفظت بعض الأمم به فحفظت كيانها وضمن لها حق الحياة والبقاء . . .

أقول فى صورة طبيعية ومظهر تام ، لأنا رأينا فى التـاريخ أمثلة من ذلك التوازن غير طبيعية ، وقد تجلت فى مظاهر ناقصة ظن معها أن الأمة نالت سعادتها ووقعت على أمنيتها ، فلم يفـــدها ذلك شيئاً ، ولم تبق إلا ببقاء القوة التى تـكلأها حيناً من الزمن ، ثم إذا ضعف أمر هذه القوة عاد ذلك التوازن الى اختلال ، وتلك القوة إلى اعتلال ... وكان من أمر الامم بعدُ ما كان ! ...

ومن هذا يعلم أن الأمة لا تحمل على قبول نظام من الأنظمة ما لم ينطبق على عاداتها وحاجاتها ، ويضمن بقاءها ورقيها ، ولا تـكلف بأن تأتى بعمل من الأعمال ما لم يكن لها من نفسها باعث يضطرها إلى أدائه كأن تقتنع بأن لها فيه نفعا وخيراً ، ولا يطلب منها أن تنتهى عن أمر ما إلا إذا كان لها رادع أو وازع يربأ بها عن غشيانه ، وتقتنع بأن لها فيه ضراً أو شراً .

إذن علينا أن لا ننسى أن كل اصلاح يأتى الأمة على غير هذا الناموس ، ناموس النفع والضرر ، ومن غير تلك الطريق ، طريق العلم والمعرفة والاقتناع ،

يكون صوريًا عرضيًا تحفّه المظاهر الكاذبة والزهو الباطل ولا يؤثر فى الأمة أثره الحقيقى الطبيعى المطلوب ....



فى التاريخ الطبيعى ثلاثة نواميس ، أحدها : ناموس الانطباق ، وثانيها الانتخاب الطبيعى وبقاء الأنسب ، وثالثها ناموس النشوء والارتقاء وهو نتيجة لهما. هذه النواميس كما أنها تنطبق على حياة الأمم المادية ، فكذلك تنطبق على حياتها الاجتماعية والسياسية .

الحيوانات التى ألفت أن تعيش فى البقاع المظلمة العميقة من هذه الأرض تضعف حاسة بصرها ، بل ربما لم تخلق لها . إنك لن تستطيع أن تنمى فيها حاسة البصر الا بعد أن تعوّدها على أن تعيش فى النور تدريجًا ، وعليك أن تنتظر الزمن الطويل لتنمو فيها تلك الحاسة . أما اذا حاولت أن تنشلها من أطباق تلك الظلمات الكثيفة المتراكمة وتلقيها بغتة تحت أشعة الشمس المشرقة ، فقد آذيتها ، إذ كان ذلك النور نارًا تحرقها ، وربما فقدت بذلك ما يكون لها من بقية قوة الأبصار .

إنها لحقيقة يجب الاعتراف بها وإن كانت مرة : حكومة ليس تاريخها إلا سلسلة حروب وسفك دماء ، وليس لها مفخرة علمية تتباهى بها ، ولا معهد علمى أنشىء على عهدها ، ولا أثر من آثار الحضارة ظهر مدة حكمها : وانها لم تعتد على الحرية ، ولم تعرف معنى الاستقلال ، بل كانت فى الغالب تقدّم أعناقها للجزارين من الحكام الظالمين ، وكانت تقدم اليهم ما جمعته بدموع بؤسها وشقائها .

إن حكومة وأمة هذه حالها فى معظم ما مر عليهما من الأدوار التاريخية . . يجب أن نعرف ولو قليلاً ما هما عليه من الخصائص النفسية والمزايا الأدبية قبل أن نقوم ونشرع لها الشرائع ونسن الأنظمة والقوانين .

أنظمة الحكم ينبغى أن تتناسب مع البيئة التى توضع لها ، وإلا فلا بد أن يؤول أمر تلك الحكومة فى تلك البيئة الى واحدة من ثلاث : ١ ـ إما أن ينحط شكل الحكومة إلى درجة تلك البيئة فتصبح منحطة بحكم الطبع والطبيعة ، ٢ ـ وإما أن تقبل تلك البيئة الاصلاحات قسراً ومؤقتاً ، ٣ ـ وإما أن تألفه وتنطبع عليه بطابع العادة والتكرار حتى يصير طبعاً ، ولن يكون ذلك إلا تدريجياً وفى زمن طويل .

وخير من هذا وذاك أن تكون الأنظمة موافقة للسنن الطبيعية ونواميس الاجتماع ، وبذلك تنمو فيها بذرة الاصلاح تدريجيا وتقوم بحاجاتها وشؤون نفسها ، ولا يكون ذلك إلا ببث التربية الاجتماعية والسياسية بين عامة الطبقات ، ليعرفوا ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، وبذلك ينشأ التوازن الحقيقى الذى يجب أن ينشده طلاب الاصلاح اليوم ، وعليهم أن ينشدوه بكل أناة وروية ، إلى أن يقر قراره ويأخذ مكانه تحت الشمس .

الطلبة والمعارف[1]

لم يرد فى الـكتب الاجتماعية الحافلة بأهم قواعد الحـكمة فى الحقوق والاقتصاد والسياسة مايدل على أن من يطالب بحقوقه يكون جزاؤه الحرمان منها ، ويكون طلبه هذا ويلاً عليه ووبالاً ، جُلُّ ما نعلمه فى هذا الباب هو أن « القول أول مراتب العمل » و « ما ضاع حق وراءه مطالب » وإلى غير ذلك مما يؤيده العقل وتثبته التجارب .

أما ادارة المعارف عندنا فقد وضعت لنا من القواعد الجديدة ما لم يكن يدور فى خَلَد الساسة والمشرعين من علماء الاجتماع ، فـكان كلما استرسل طلبة الطب فى حاضرتنا فى المطالبة بحقوقهم استعملت معهم المعارف لسان الشدة ، وأرهبتهم بالغاء مدرستهم . ولعلها حكمة لم تبلغ بعد مدارك الفلاسفة والعقلاء ، اهتدت هى اليها بعد طول البحث والأناة والإسراف فى التنقيب والتنقير ، فلم تر أنفع وأنجع من ذلك الإرهاب الذى كان سبباً لهضم حقوق الطلبة ومعاملتهم معاملة المجرمين . وكل يوم تأتينا الصحف التركية تحمل إلينا أنباء العزم على إلغاء المدرسة ، معلِّلة ذلك بالحاح الطلبة ومطالبتهم باصلاح ما اعتل من شؤن المدرسة فيما مضى ، وسد تلك الثلمة التى عملت بها يد الدمار فى العهد الماضى .

وعلى المعارف أن تسائل إدارة المدرسة عن السبب الذى دعا الطلبة إلى ذلك الإلحاح ، أو أن تناقش الطلبة الحساب إذا كان ثمة من خطأ ارتـكبوه ، أو أن

(١) نشرت فى المقتبس عدد ٥٢ ، يوم الخميس ٢٨ المحرم ١٣٢٧ ، ١٨ شباط ١٩٠٩ . وهى تمثل صفحة من تاريخ معاهد العلم فى ذلك الحين .

تعدهم الى أجل مسمى ، أو على الأقل تعللهم بالآمال والأماني .

ويا لله كيف توصلت المعارف الى هذه الحلول في عصر إذا حق لنا أن نفاخر فيه بالحرية فلحرية القول الحظ الأوفر من ذلك الفخر .

ولقد رأينا أقلام الباحثين تجول في ضروب شتى من الموضوعات العامة الاصلاحية ، رأيناهم يكتبون في البلدية والمالية والجاسوسية والرشوة وإصلاح دوائر الحكومة ، الى غير ذلك من الأغراض الكثيرة ، ولكنا قلما رأينا لهم بحثاً في المعارف ألموا به من عامة أطرافه على ما في دوائرها من الخلل ، وما رأينا فيها من المستبدين الأشرار ، وماذا عليهم إذا جعلوا لهذا الموضوع نصيباً من البحث ويطالبون باصلاح الفاسد بأسنة ألسنتهم وأقلامهم .

وبعد فاذا كان أحد يجب أن يطالب بالحقوق المدرسية فهو ذلك الطالب الذي ذاق في العهد الماضي الأمرين ، ورأى بعيني رأسه ما ينقص المدرسة من أدوات الطبيعة والكيمياء والتشريح وسائر المعدات . وإني لأعجب كل العجب ممن يرون بأعينهم حقوقهم تسحق تحت أقدام الاستبداد ولا تأخذهم هزّة الحمية للمطالبة بها . وما ذلك إلا من انفصام عرى الاتحاد بينهم ، أو من شيء موهوم يتخوفون منه ، أو من جبن استحكمت حلقاته في نفوسهم . لأن النفس الأبية تأبى البقاء على الضيم ، وإن بقيت فلا تلبث على تلك الحال زمناً طويلا .

قام أحد مبعوثي الأتراك منذ عهد — والعهد ليس ببعيد — وتلا تقريراً له عن المدرسة الطبية ، فأحيل تقريره إلى نظارة المعارف ، ومن ثم أصبحت المعارف تبدى في هذه المسألة من الآراء مانسمع منه كل يوم نتفاً يكذب أولها آخرها .

ومن الغريب أنك لا تجد بين المبعوثين الذين سلمناهم مقاليد أمورنا والنظر في عامة شئووننا الأدبية منها والمادية ، وأخص بالذكر منهم مبعوثي العرب ، من أعار هذه المسألة جانباً من العناية .

يقول قائل : إن مدرسة الطب كانت تقوم بنفقاتها رسوم (الذبحية) ولما ألغيت هذه الرسوم اقتضى بالطبع الغاؤها . كلام فيه شبه من الحق يقصد من إيراده اليوم التغرير بالبسطاء والاستيلاء على عقول السذج . لأن المعارف فيما أحسب لا تعجز عن القيام بنفقات مدرسة عالية وزيادة . .

على أن للمدرسة اليوم مائتين وخمسين ألف ليرة ، وذلك مما كانت المعارف توفره من الواردات الغزيرة التي كانت تتقاضاها ولا تصرف منها إلا النزر اليسير ، فاذا صرفت الآن فى إصلاحها تأتى لنا مدرسة عالية يتخرج منها رجال يعملون على النهوض بالأمة والوطن .

وكيف يمكن للمعارف أن تجمع فى مملكة مترامية الأطراف آهلة بالسكان ولها من النفوس ما يربو على الثلاثين مليونا ، تلك الألوف المؤلفة من الطلبة تحت سماء مدرسة واحدة ، خصوصاً بعد أن ألحقت المدرسة العسكرية بالملكية وجعلت المدرستان واحدة فى العاصمة . وهل يمكن أن تضم الغرفة الواحدة من غرف الدرس بين جدرانها مائتين وخمسين تلميذاً ؟

وكيف يتسنى لهؤلاء الطلبة أن يقفوا على منضدة التشريح مثلاً ويروا عامة العمليات على شريطة أن لا يفوتهم منها شيء ؟ كيف يتيسر لهم أن يروا آلة من الآلات الطبية وهم على ذلك التكاثر الهائل فى وقت هو أضيق من ساعة الاحتضار ؟

ألا إن الغاء مدرسة كهذه خسارة على الوطن وأهله ، وإذا لم يكن يلاحظ القائمون بالأمر تلك النقطة الدقيقة فيكونوا أضروا إذاً بمستقبل الناشئة ضرراً بيناً . ومن العار على حكومة دستورية من شأنها العمل على تعزيز شأن العلوم والمعارف إلغاء مدرسة أسست فى دور الاستبداد ، فهل عهد الحرية يعجز عن خدمة العلم بما كان يقوم به العهد البغيض ؟

نحن لا نريد من المعارف اليوم أن تنشىء لنا مدارس أو كليات تضاهى الـكليات الأوروبية والأمريكية . فهى اذا لم ترد انشاء مدارس على الطراز الأول نرغب اليها على الأقل فى أن تبقى ما كانت أسسته حكومة الدور الماضى ، وأن تصلح منها ما تمس الحاجة الى اصلاحه . وإن مدارسنا لتنجح كل النجاح إذا أحسن القائمون بأمر المعارف القيام بها ووجهوا نحوها اهتمامهم ووضعوا الهِناء مواضع النُّقْب .

نحن والله نودّ لو كانت الامة يقظى فتضرب عن الحـكومة صفحات وتتوفر على انشاء مدارس يراد بها تعليم علم صحيح بلغة البلاد ، وتربية الناشئة على أقوم المبادىء ، ولـكن أنى لنا ذلك وهى لم تقدم على الأقل لأئحة تتبين فيها وجوب ابقاء المدرسة والمنافع التى تعود على الأمة من أجل ذلك ، بل ليست هى أمـــة بولونيا الروسية حتى تفتح فى شهر واحد أربعة آلاف مدرسة ، ذلك بعد أن أعلنت روسيا الدستور ، واجتمع مجلس نوابها الأول .

الوزارة الكاملية[1]

منذ أكثر من شهر قابل أحد مراسلى الصحف الأجنبية الصدر الجديد كامل باشا وسأله عما إذا كان ما أذيع عنه من أن منصب الصدارة سيوسد إليه صحيحاً أم لا ؟ فأجابه دولته بما معناه : « إنى لا أرغب أن أكون فى جملة الموقعين على ضم طرابلس الغرب لايطاليا أولا ، وثانياً إنى أريد إذا استلمت زمام هذا المنصب أن تكون من ورائى أكثرية قوية أعتمد عليها وتعضدنى » .

وإن فى إسناد منصب الصدارة إلى هذا الوزير الخطير على أثر وقوع الصلح بين العثمانية وإيطاليا دليلا على أن ذلك النبأ ليس كبقية الأنباء السياسية ، وأن فكرة توسيد الصدارة إليه كانت حقيقة موضوع حديث المحافل الرسمية والأندية السياسية فى ذلك الحين .

أما رضا كامل باشا بأسناد منصب الصدارة إليه قبل أن يفتح مجلس النواب أبوابه ، بل قبل أن تتألف أكثرية يعتمد عليها كما قال فى حديثه ، فلأن كل أحد يعلم أن مجلس النواب سواء فتح فى أجله المضروب أو تأخر عن ذلك ، وقعت واقعة الحرب أو لم تقع ، فسيكون هو رجلها ذات يوم وأنها لم تخلق فى هذه

---

(١) لما أسرفت حكومة الاتحاد والترقى فى التعصب لسياسة تتريك العرب وسائر العناصر العثمانية ، وكان لذلك رد فعل شـديد فى الولايات العربية وغيرها ، وكان من نتائج ذلك سقوط حكومة الاتحاد والترقى ، وقيام حكومة حكيمة معتدلة برئاسة كامل باشا ، عزمت على التساهل مع الأمة فى تطبيق سياسة اللامركزية ، فكتب فقيدنا العبقرى صلاح الدين القاسمى هذه المقالة وكانت احوال البلقان تنذر بنشوب الحرب مع تركيا .

وأغلب الظن أن المقالة نشرت فى (المقتبس)

الآونة الاله ولم يخلق إلا لها ، وأنه سيكون أيضاً فى هذه الوزارة دماغها المفكر وقلبها الخفاق .

وربما كان نشوب الحرب مدعاة للأمراء فى إسناد منصب الصدارة إليه بقرار من مجلس الوكلاء .

وإن تشوف الأمة جمعاء إلى كامل باشا المعروف بميله للسياسة الحكيمة ورغبة الناس جميعاً فى إسناد منصب الصدارة إليه ، وتجهمهم لوقوع غير ما كانوا يتوقعون مع علمهم بأن كامل باشا فى تلك الوزارة هو المعول عليه فى حل المعضلات والمشكلات ـ كل ذلك مما يدل على أن عامة العناصر العثمانية تلقت نبأ تعيين هذا الشيخ الجليل بكل ارتياح لتعليقها عليه أمالا كباراً ، ولا سيما فى مثل هذه الأوقات الحرجة .

ولا ينبغى أن نحمل اعتقاد الناس ذلك من قبيل الآمال أو الخيالات فقط أو مجاراة للقائلين بذلك بسائق التقليد بل لأنها عرفت أن كامل باشا يميل إلى الاعتدال ، وأن الحكومة العثمانية لا تقوم لها قائمة إلا إذا سلكت فى سياستها الخارجية خطة معينة صحيحة بأن توالى إحـــدى الدول التى تربطنا معها الآن روابط المصالح الاقتصادية والمادية ، لأن سياسة الدول مهما تلطفت وترفعت عن لوثات الدناءة ، لوثات الخداع والمكر ، فهى لا تزال سياسة مصالح لا سياسة حقوق ! . .

نقول خطة معينة صحيحة لأن كل فرد من أفراد هذه الأمة عرف أن الحكومة الاتحادية على أثر إعلان الدستور سارت على خطة عوجاء ومشوهة بقدر ماهى مبهمة .

وقد أدرك بعض المفكرين آنئذ ذلك وأخذ يخطىء الحكومة على اتباعها تلك السياسة الخرقاء ومن جملتهم أحمد صميم وغيره من المعارضين ، فكان نصيب هذا الشاب القتل ، كما كان حظ غيره السجن والتهديد والوعيد ، ولا ننس ما قاله سفير انكلترا فى بطرسبورغ لرئيس الوزارة الروسية وقد صرح هذا لذاك قبل حرب

القريم الأخيرة بأن القيصر عزم أن يضع المسألة الشرقية موضع العمل ، وأن فى نيته اقتسام البلاد ، فأجابه السفير : « إن ملك بريطانيا يرد كل الرد هذا الاقتراح ، فهو لا يرضى بالبحث فى هـذه المسألة ، بل هو ينظر قبل كل شىء إلى أن تحت حمايته زهاء مايون مسلم » .

ومن أفَن الرأى أن يظن بعضهم أن انـكلترا لو استطاعت لأوقفت رحى الحرب وحدها بأدنى إشارة منها . وفاتهم أن السياسة الخارجية قائمة على نواميس طبيعية ومنطقية لا يمكن الاخلال بها إلا متى انحلت تلك الشروط التى كونت تلك النواميس ، وكيف يعقل أن تأتى انـكلترا من نفسها بشىء بدون موافقة روسية وفرنسا المتفقتين معها .

على أن ذهاب المسيو بونـكاره رئيس الوزارة الفرنسية إلى بطرسبورج منذ مدة واجتماعه بالمسيو سازانوف ناظر الخارجية الروسية ومحادثته طويلا ثم على أثر ذلك قصد هذا إلى لوندره وبالمورال واجتمع بالملك جورج الخامس والسير ادوارد غراى ، إن فى هذه الحركة ما يدل على أن هذا الحديث — الذى لا يزال طى المفـكرات اليومية ومحفوظا فى خزائن الوثائق السياسية — قد تخلله البحث عن المسألة الشرقية . ولـكن انـكلترا حالت دون تنفيذ مآرب روسيا والعمل بها ، واكتفت بتوقيع سفيرها مع سفراء تلك الدول الأربع باقتراح على الحـكومة العثمانية تطبيق الاصلاحات فى مكدونيا ، وما ذلك إلا لعلمها أن الدولة سائرة على طريق الاصلاح ، وأن أكبر ضمان لذلك وجود كامل باشا بين الوكلاء .

يدلك على ذلك ما كتبته الجرائد الأجنبية فى الأسبوع الماضى وما كانت تشير إلى ذلك من طرف خفى ، فقد قالت (الطان) فى أحد أعدادها : « إن انـكلترا فى سنة ١٩١٢ لا تعرف ذلك الهياج السياسى والإنسانى الذى قامت به انكلترا سنة ١٨٧٦ إزاء المظالم التى ارتـكبت ضد البلغاريين . ومع أن انـكلترا

حكومة حرة Liberale فهى لا تفكر إلا بشىء واحد وهو أنها لا تود أن تضيق على كامل باشا الذى تعده الآن بمثابة روح للوزارة » .

هذا عندما كان ذلك الوزير الخطير رئيسا لشورى الدولة ، فما بالك الآن وقد تولى الصدارة .

وليس من العدل أن نوالى حكومة هى حليفة كل من النمسا التى ضمت اليها « البوسنة والهرسك » وإيطاليا التى أغارت على طرابلس الغرب وشنت عليها تلك الغارة البربرية ، غير مراعية فى ذلك لا شريعة أرضية ولا سماوية .

وبعد فمن هذا يعلم أن ظن العثمانيين بمستقبل المملكة حقيق بأن يكون حقيقة لا سرابا كاذباً يوم تولى كامل باشا منصب الصدارة ، ولهذا فلسنا نبارك له فقط بل للعثمانيين كافة بل لأنفسنا ، لأنا نعلم أن صوته ليس خارجاً من القبر بل إلى أعالى السماء[1] ! . . .

(١) فى هذه الجملة إشارة إلى عنوان مقالة كتبتها جريدة (طنين) لسان حال الاتحاد والترقى تعليقا على نداء حكيم أصدره كامل باشا ، وكان عنوان مقالة جريدة (طنين) : « مزاردن بر سس » وترجمته « صوت من القبر » تهكم فيه بشيخوخة كامل باشا !

م

شعور

التضحية بالنفس[1]

« لا يبعد أن تحيا هذه الأمة الخاملة المتهاوتة حياة طيبة مادية متى تمكن من أفرادها شعور التضحية بحيث يندفعون ليدفنوا أنفسهم فى ظلال حياة أدبية أبدية ! . . . »

سواء نشأ شعور التضحية بالنفس عن حاجة فى النفس ، أو عن اضطراب فى التوازن العقلى ، أو كان أثراً من آثار التدين ، أو بقية غريزة من بقايا الوحشية المتوارثة ، فمن المحقق أنه ولد مع الانسان ورافقه فى أدواره كافة ، وفى عامة ما عرفه التاريخ من الثورات ، دينيـة كانت أو سياسية ، وكان من أهم العوامل فى إعدادها وإيقادها .

كيف يضحى الإنسان بنفسه ويخرج عن أثمن ما عنده وهى حياته ، وقد خلق أنانيا هلوعاً ، إذا مسه الشر كان جزوعاً ؟

يضحى بعد أن يستشعر لبه حاجة تسرى فى أعماق نفسه فتولد له « ألمـا معنويا[2] » يصير مع الزمن إلى « فـكر ثابت » لا يمحى من صفحة مخيلته حتى يمحو ذاته من هذا الوجود .

---

(١) نشرت فى المقتبس العدد (١٥٢٢) الاثنين ١٥ ربيع الآخر ١٣٣٣

(٢) وصف هذا الألم شوله من علماء الطب النفسى فسمى باسمه Douleur morale de Scholé

لا تعرف لذة تفوق ذلك « الألم » العذب اللذيذ الذى يدفع صاحبه لأن يضحى بنفسه فى سبيل إحياء فضيلة وقمع رذيلة ، وهو يعلم أن فناءهُ وهو فرد ينتهى بحياة عامة فى المجموع : لذلك كان أسمى أمثال هؤلاء المضحين شرفاً وأعلاهم منزلة ذاك الذى وجد فى ألمه لذة فجاد بحياته وهو فى أقصى درجات الأنانية ! . . .

نعم ، فى مثل هذه الحال يكون إهراق الدماء أمرا مرغوباً فيه بل ومرغباً به ، فقد تظمأ نفس السكون فلا تروى إلا بتلك الحمرة الحمراء المهراقة . . . ولهذا تمل بها الوجود ، فأصبحت السماء تطلب قرباناً ، وبات الدين يريد شهيداً .

وهزّت بعضَهم سورتها فقاموا بالثورات ، وجُذب الناس بنتائج هـــذه ومظاهرها ، فمنحوا الألقاب لهذا أو لذاك من أبطالها بدعوى أنه فاتح الأقطار وممصر الأمصار .

فليمنحوا ما شاءوا ... وليعقدوا تيجان الفوز على مفارق من يريدون ... إنما يهمنا أن نعلم الأمة أن ثمة أبطالاً هم كهؤلاء تضحية بكل شىء ، أولئك هم حملة عرش الفكر الانسانى الذين كانوا يعدون أنفسهم فى السر قوة ضخمة تدير ما له من طبائع خارقة ، إذ كانوا يذيبون حياتهم ليعيش غيرهم ، ويتقطعون من البؤس حسرات لينعم آخرون .

يهمنا أن تعلم الأمة ذلك فتمجدهم ، وترفع لهم ألوية النصر ، كما ترفعها تكريماً لأولئك .... فانه ليس محطم المعاقل القوية بأصلح عملاً وأبقى أثراً من مشيد دعائم المدنية ، لاسيما واليه يرجع الفخر فى النصر .

لقد علّمنا تاريخ الانسانية أن كل عقيدة ، بل كل ثورة ظهرت فأثرت أثرها المطلق وأنتجت نتاجاً حسناً ، كانت تستمد قوتها من تلك الأنفس الذكية ، لا بل كانت مظهراً من مظاهرها . فما اندفع الذى رضى بالقتل والشنق والحرق ضاحكاً

مستبشراً ، وما أقدم المجاهد على الاستشهاد فى ساحات الوغى فرحاً مسروراً ، إلا وهو مدفوع بتلك القوة المعنوية الساحرة المسكرة التى مكنت منه شعور التضحية ، التضحية بالنفس ... .

ألا وإن الوسائل لبث هذا الشعور جمة : وقد كان ولا يزال من أهمها الأديان ، وقد كفل لنا ديننا ذلك ، فلا بد من تعهده وتنميته ليبلغ من نفوسنا مبلغ الكمال !

لا بد من الترغيب به ، والترهيب عن أن يبلغ الناس فيه درجة الافراط فيلقوا بأنفسهم إلى التهلكة التى لا غاية لهم منها إلا تسكين عواطف ثائرة عمياء ليست منبعثة عن فكر سليم أو شعور شريف ...

وبعد ، فلا يبعد أن تحيا هذه الأمة الخاملة المتماوتة حياة طيبة مادية ، متى تمكن من أفرادها شعور التضحية ، بحيث يندفعون ليدفنوا أنفسهم فى ظلال حياة أدبية أبدية ! . . .

« كتبت فى وادى العقيق »

نبأ الحرب[1]

منذ يومين أو ثلاثة فوجئت الأمة العثمانية بنبأ الحرب ، وخيل للناس أن إعلانها بات على قاب قوسين أو أدنى ، وباتوا ينتظرون اليوم الذى تقدم فيه حكومات البلقان إنذارها الأخير ، فإما أن تنقشع غيوم الاضطراب المتلبدة فى سماء مكدونيا فيصحو جو السياسة ، وإما أن تقع حرب طاحنة تشيب لها النواصى وتباع فيها الأرواح بيع السماح .

لم يكد يذيع هـــذا النبأ حتى اهتزت له الأمة العثمانية بأسرها ، فقامت الأحزاب المعارضة ، على ما أنبأتنا به البرقيات ، واتحدت لهذا الخطر المداهم ، وأزمعت على أن تقيم الاجتماعات فى ميدان السلطان أحمد فى فروق[2] ، وسنرى الاجتماعات تقوم فى هذه الحاضرة وسائر بلاد الدولة ، وقد قام طلبة دار الفنون[3] يطوفون الشوارع ، ويتغنون بالأناشيد الوطنية ، ويتناغون بالحرب والزحف على العدو – على النحو الذى فعله التلاميذ فى ألمانيا لما نشبت الحرب بينها وبين فرنسا المعروفة بحرب السبعين – نقول : إن الأمة العثمانية اهتزت لهذ النبأ ودهشت له ، لا لأن حكومتنا المحبوبة ليس لديها من العدد والعدد ما يكفى لمكافحة الأعداء المهاجمين ومنالختهم فلا تخرج من هذه الحرب ظافرة ، بل لأنها تعلم أن حكومة اليوم لا تريد إهراق الدماء وبذل الأموال الجمة فى سبيل مذابح دموية هى اليوم

---

(١) أغلب الظن أنها نشرت فى المقتبس

(٢) فروق هى القسطنطينية ، سميت بذلك لافتراقها بالخليج والبوسفور

(٣) هو اسم جامعة القسطنطينية فى ذلك الحين

فى غنى عنها ، ولأن خطتها — كما أعلنت عن نفسها — سلمية محضة مع عامة الدول ، لأن الأزمة وقعت ووزارتنا تعنى باصلاح ما أفسدته الحكومة البائدة [1] من تأمين السبل حرصاً على نفوس رعاياها وأموالهم ، وتسكين الفتن والثورات التى أرّثت نارها تلك الفئة الباغية الطاغية ، ونشر العلم والعدل ، وإعداد الخطط اللامركزية لتسيير ولايات الدولة على نظام خاص مراعية فى ذلك عادات كل قوم وأخلاقه ومنازعه ومقوّماته القومية وفى مقدمة ذلك اللغة ، والشروع فى مشاريع اقتصادية تحيا بها البلاد والعباد . وهى تهتم فى هذه الأيام زيادة على ذلك بدراسة شروط الصلح بيننا وبين إيطاليا حتى لا يصيبنا من ورائه حيف ، أو نعقد معها صلحاً غير شريف ، وتسعى فى أن تمشى الانتخابات على محور السداد وكما يقضى بذلك القانون ، حتى يكون لنا مجلس قوى يضم بين جنباته أكثرية قوية تتألف منها وزارة عاقلة تتوسد المناصب وتسعى فى تطبيق مفاصل القانون ، لتدرك الأمة أمانيها وتبلغ آمالها .

بالجملة ، بينما كانت الحكومة الجديدة تهتم فى مداواة ما طرأ على الكيان العثمانى الكبير الهرم من الكلوم ، وما اعتراه مدة الحكم المطلق من الأدواء الاجتماعية والسياسية ، نقلت لنا الأسلاك البرقية عن أربعة من الحكومات البلقانية الصغيرة — وهى البلغار والصرب واليونان والجبل الأسود — أنهم اتفقوا علينا بعد أن كانوا مختلفين ، وجمعوا جموعهم لمناوأتنا ، وكلنا يعلم أن هذه التى نسميها اليوم الحكومات الصغيرة والتى لا يتجاوز تعداد نفوسها عشرة ملايين والتى تبلغ مساحة أراضيها السطحية على وجه التقريب ٢٢٩ ألف كيلو متر مربع ، كانت منذ نيف وثلاثين سنة فى جملة ولايات الدولة وأن بلغنا إحدى مدن البلغار هى التى حصلت فيها الموقعة العجيبة التى قادها الغازى عثمان باشا فى حرب ١٨٧٨ ضد

---

(١) الحكومة القائمة هى وزارة كامل باشا ، والحكومة البائدة هى حكومة الاتحاد والترقى التي تمثل المعارضة عند كتابة هذا المقال

العساكر الروسية ، وأشد هذه الحكومات بأساً ومراساً فى الحرب حكومة البلغار فان رعاياها من أصل مَجَرِيّ وبينهم الأرمنى والرومى والنورى ، هاجروا منذ أكثر من ألف سنة من جنوبى روسية إلى هذه البقعة التى يقطنونها اليوم وألفوا لأنفسهم حكومة مستقلة ، ثم حكمتها روسية مرتين واستقلت عنها مرتين أيضاً ، وحكمتها دولة البيزنطيين ثم أعلنت استقلالها عنهم بعد ثورات دموية ، حتى أتت الدولة العثمانية وأخضعتها ، وهى آخر من ردّها إلى حظيرة الطاعة من الدول ، ثم ما زالت تعمل للاستقلال تدريجياً حتى كان الأمير تعينه الحكومة العثمانية ويدفع للدولة خراجاً قدره ٢٠٠ ألف جنيه ، وما زالت كذلك دائبة وراء تحقيق غايتها ، والدول الأوروبية من ورائها ظهيرة لها ، حتى نالت استقلالها هى والصرب والجبل الأسود سنة ١٨٧٨ كما قضت به معاهدة برلين ، وانضمت إليها ولاية الروملى الشرقى سنة ١٨٨٥ .

ومن يراقب سير بلغاريا فى السنين المتأخرة يتبين له أنها كانت تعنى عناية عظيمة بتنظيم جنديتها وخصوصاً فى نشر العلوم والمعارف فى ربوعها حتى أصبح عندها معامل كثيرة وارتقت بها الصناعة والزراعة وأصبح الجزء الجنوبى منها معمورا خصباً مع أن أراضيه جبلية ، ويدرك لأول وهلة أنها كانت تتحين الفرص لتحقيق آمالها فى مكدونيا للوثوب على الدولة العثمانية ، ومنذ أكثر من شهر كنا نقرأ فى الجرائد التركية والعربية عن الاجتماعات التى كانت تعقدها فى مدينة صوفية عاصمة البلغار جموع الأهلين احتجاجاً منهم على حكومتهم لأنها لاتسارع إلى إعلان الحرب على العثمانية ، وقد عقد منذ عهد قريب فى صوفية اجتماع حافل حضرته ألوف مؤلفة من البلغاريين وكتبت لرئيس الوزارة البلغارية المسيو (كيشوف) كتاباً باللون الأحمر إشارة إلى الثورة ورسموا له خنجراً وسيفاً وهددوا فيه الوزراء بالقتل إذا هم لم يشهروا الحرب . وكنا نقرأ أيضاً عن المناوشات التى كانت تحدث بين جندنا وجنود البلغار والصرب والجبل الأسود على الحدود ،

وعن الحادثة الأخيرة فى بروانة ، وأنهم وجدوا فى جملة الرصاص الذى قتل به بعض من جنودنا المرابطين على النوع الذى يسمونه (دمدم) ، وكانت تنقل إلينا البرقيات أيضاً عن أعمال العصابات البلغارية واليونانية التى تعيث فى أطراف مكدونيا فساداً ، وتحمل الفلاحين من الرعايا العثمانيين على أن ينقدوهم أموالاً طائلة حتى لا يسوموهم بسوء . وبالجملة فبالرغم من تكذيبات الحكومة الرسمية كان العقلاء المتتبعون للحوادث يعلمون أن وراء الأكمة ما وراءها ، ويتوقعون من وراء ذلك شراً مستطيراً .

أما اليونان فإنها ما زالت منذ انفصلت عن الدولة سنة ١٨٣١ تناصبها العداء وقد جعلت مبدأها السياسى أن تسترد تحت رايتها الممالك التى كانت تظللها راية اليونان الأقدمين ، ومثل ذلك عناية ايطاليا باعادة المجد الداثر الذى كان لاسلافها الرومانيين فى سواحل البحر الأبيض ، وأن تجعل لها فيه أسطولا يمخر عبابه ، وترقى به إلى مصاف الدول العظام . والتاريخ أبان لنا أن اليونان أظهرت على أثر استقلالها من الضعف السياسى فى الإدارة ما اضطرب معه حبل الأمن ، مما دعا إلى دوام الثورات واشتداد الأزمات فى البلاد اليونانية ، وكان من نتائج ذلك سقوط الأسرة المالكة حينئذ ، واضطرت الدول الأوروبية أن تنصب حفيد ملك الدانيمارك ملكا على اليونان . وما زالت منذ ذلك الحين فى بذر الشقاق وبث الدسائس فى مكدونيا وكريد ، وتساعد العصابات وقطاع الطرق ، حتى نهبوا القرى وسلبوا أبناء السبيل ، وكان من وراء ذلك أن دارت رحى الحرب طوراً بين مسلمى كريد ومسيحييها ، وأخرى بين سكان مكدونيا والدولة ، وتارة بين اليونان والدولة ، وكان النصر فيها دائماً حليف الدولة ، خصوصاً فى الحرب الأخيرة سنة ١٨٩٧ ، وقد ظهرت قوة الدولة آنئذ فى أمثل مظاهرها ، ودعا انتصارها الباهر إلى أن تكون هذه الحكومة فى آخر صفوف الدول ، وكأنها لم تعتبر بذلك حتى قامت اليوم تحالف الدول الصغيرة ، وتقوم لمناهضة الدولة

العثمانية . يقول الخبيرون فى السياسة إن مما حمل حكومات البلقان هذه على أن تظهر بمظهر المهاجم وأن تستأسد أمام الحكومة العثمانية فى مثل هذه الأوقات باجتيازها الحدود وإهلاكها الجنود المرابطة ثمة بطش حكومة الاتحاد والترقى البائدة بالألبانيين الذين هم حرس البلقان وعين الحكومة التى لاتنام ، وجمعها منهم الأسلحة التى كانوا يذودون بها عن بلادهم وأنفسهم وأعراضهم ، ليدفعوا بذلك غوائل عن الدولة ، ويكفوها مؤونة وضع المخافر وإقامة الجنود ، إذ كانوا بمثابة معاقل طبيعية بازاء أعداء الحكومة الالدّاء ، وسواء صحت هذه القضية أو لم تصح فإنها تنطوى على حقيقة لا ينكرها إلا مكابر ، ولسنا الآن فى مقام المندد والمؤاخذ ، فان التاريخ كفيل بجمع ذلك وتمحيصه ، ومنه يعرف المحق من المبطل .

وبعد فما ندرى ماذا تكون خطة الدول العظمى إزاء هذه الحركة ، وهى التى سهلت لهذه الحكومات فيما مضى سبل الاستقلال بما انضم اليه من أسبابه ووسائله كالدين واللغة القومية والموقع الطبيعى ، وهى التى كانت سبباً فى منح كريد استقلالاً إدارياً ونصبها ابن ملك اليونان أميراً عليها ، واضطرارها الدولة العثمانية فى حربها مع اليونان أن تجلى عساكرها من (تساليا) ، وحملها الدولة على أن ترضى من الغنيمة بالإياب ، وأن توافق على القرار الذى سمح لبلغاريا سنة ١٩٠٨ بأن يعلن أميرها نفسه ملكا ، وكذلك أمير الجبل الأسود ، زد على ذلك أن الدول هى التى تزعم أنها لم يهدأ لها أبداً بال بما توالى فى البلاد البلقانية من الثورات والفتن منذ وطىء العثمانيون بأقدامهم القارة الأوروبية ، حتى أن ألبر سوريك أحد علماء التاريخ السياسى يقول : إن المسألة الشرقية بدأت منذ ذلك الحين ، وأن أمانى الدول بأسرها ساعية وراء إجلاء العثمانيين عن القارة الأوربية ، ومحو ما فتحوه من البلاد فيها من مصوَّر أوروبا الجغرافى إن لم نقل من مصور العالم .

وإنى لأرجو أن يكون فى هذا ، وفى قيام هذه الحكومات لمحاربتنا بعد أن

كانوا فيما مضى من جملة رعايانا ، درس عبرة فى الوطنية يورثه الآباء للأبناء ، حتى نقوّم أنفسنا ونقويها بالتربية والتعليم ومعدّات الإصلاح .

هذا ويجب على الأمة فى مثل هذه الأوقات الحرجة أن تظهر ما تنطوى عليه من الحمية حتى لا نكون أقل من غيرنا إقداماً . وجدير بنا أن نقتدى باليابان يوم إعلان الروس الحرب عليها ، فيسعى الأطباء منا إلى تأليف جمعيات الهلال الأحمر وينزحوا عن أوطانهم إلى ساحة الوغى لمواساة الجرحى ومداواة المرضى ، وأن يتطوع من يتطوع منا فى الجيش ، لا بل أن نفعل كما فعل إخواننا الارناؤط الذين أعلنوا أنهم مستعدون للزحف من سن ١٥ سنة إلى ٧٥ متمثلين بقول المتنبى :

عش عزيزاً ومت وأنت كريم　　　بين طعن القنا وخفق البنود

« كتبت فى دمشق »

أساتذة مدرسة الطب بدمشق وجمعية الهلال الاحمر

بلغنا أن أساتذة المدرسة الطبية فى دمشق من جرّاح وطبيب وإخصائى فى أمراض العيون وغيرهم من الأطباء أبرقوا إلى « حسين حلمى باشا » رئيس جمعية « الهلال الأحمر » فى عاصمته يطلبون اليه أن يقيد أسماءهم فى جملة أعضاء الجمعية المذكورة قائلين إنهم كلهم مستعدون للذهاب إلى ساحة الحرب لمؤاساة الجرحى ومداواة المرضى .

وقد اضطرب طلبة الطب لهذا النبأ وحسبوا للمستقبل ألف حساب ، زاعمين أن الأساتذة إذا ذهبوا إلى الحرب بقيت مناصبهم شاغرة ، ومن ثم تغلق المدرسة أبوابها ولم يعد سبيل للتحصيل ، ودعا ذلك إلى أن يتأخر الطلبة سنة ، وهو أمر يضر بمستقبلهم ضرراً فادحاً ، خصوصاً وفيهم البعيد عن الديار ممن أتى لتحصيل هذا العلم الجليل ، وفيهم من ليس فى وسعه أن يتكلف نفقات باهظة أخرى ، بل ربما أتى ذلك بما هو أدهى وأمر ، وذلك أن اغلاق المدرسة مؤقتاً ربما استدعى إغلاقها دائماً وفيه ما فيه من الضرر على الأمة والوطن .

من أجل هذا نقول : إن الواجب على الأساتذة أن يلاحظوا هذه الأمور الدقيقة ولا يضربوا بها عرض الحائط ، وإنه إذا أتى الجواب من رئيس الجمعية بالإيجاب عليهم أن يبحثوا عن غيرهم من الأطباء الحاذقين من أبناء هـذه الديار

ليعينوا فى مناصبهم مؤقتاً مدة تغيبهم ، وفيهم من توفرت فيه الشروط اللائقة ومن ضرب بسهم وافر من العلوم الطبية ، وأن لا يدعوَهم اختلاف اللغة ، والغرور الجنسى ، واختلاف المبادىء السياسية إلى أن لا يعينوا مواطنينا الأطباء النطاسيين مراعاة للمصلحة العامة ، إذ مما لا مشاحة فيه أن المصلحة اليوم تدعو أبناء الأمة كلها من جميع العناصر إلى التكاتف والتضامن ، وإن من أعظم ماتخدم به المصلحة العامة أيضاً التفكير فى شبان المستقبل من أولئك الطلبة لئلا يحرموا سنة دراسية ، لاسيا وإن مصلحة الوطن أيضاً توجب ذلك .

وفى هذا المقام لا بد لنا أن نقول كلمة موجزة ، وذلك أننا قرأنا فى الجرائد المحلية نبأ تأليف فرع لجمعية الهلال فى هذه الحاضرة باقتراح من رئيس الجمعية ، وأن هذا الفرع بدأ يعقد الاجتماعات وينظر فيما يجب عليه عمله فى هذه الأوقات ، وقد أخذ فى جمع الاعانات ، كما أن بعضاً من أولى الحمية والغيرة فى هذه الحاضرة وغيرها من البلاد العربية شرعوا فى جَمْع الاعانات أيضاً ، وذلك لإرسالها إلى رئيس الجمعية فى عاصمة السلطنة .

وعندى أنه لو اتفق علية القوم من وجهاء دمشق وبيروت وحلب وألفوا منهم جمعية باسم (الهلال الأحمر) حتى تكون مستقلة فى جمع المال وحفظه وتعين هى من يقع عليه الاختيار ممن شهد له بحسن السيرة والسريرة والمقدرة العلمية من أطباء المدن الثلاث بمرتبات كافية تذهب إلى ساحة الحرب باسم الديار الشامية على النحو الذى فعلته مصر[1] فإنها ألفت بعثات متعددة ، وأخذ أعيان ذلك البلد

---

(١) قام بتأسيس (الهلال الأحمر) فى مصر لأول مرة فى التاريخ الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد رحمه الله ، وجمعيته هذه هى التى أرسلت بعثات الهلال الأحمر الطبية للاشتراك فى الحرب الطرابلسية ، ثم فى الحرب البلقانية يومئذ . (م)

الطيب يحيون ليالى التمثيل ليرسلوا ريعها إعانات إلى المجاهدين فى الحرب الطرابلسية

إذا فعلنا ذلك نكون قد رفعنا من قدر الديار الشامية ، وكتبنا لها صحيفة ذهبية فى التاريخ ، ونكون نحن أيضاً قد أثبتنا بالفعل ما كان يتغنى به الشعراء وما سجلته أقلام الكتاب من أن مصر شقيقة الشام ، والشقيق الحقيقى لايقصر عن شقيقه ، والسلام على من سمع فوعى .

الحكومة ونظام ١٨٨٠ (١)

أنبأتنا البرقيات الواردة منذ أمد غير بعيد أن الدول العظمى أردن الباب العالى على إدخال الاصلاحات فى (مقدونية) برجوعها إلى نظام ١٨٨٠ وتطبيقه فيها مادة مادة ، وبذلك يستحوذ السلام فى البلاد البلقانية وتعود السيوف إلى أغمادها ، وإلا فلا بد من إشهار الحرب وامتشاق الحسام . . .

وبالرغم مما فى هذا النبأ من المغامز ، مما قد لا تخلو منه رسالة برقية ، وبالرغم من تكذيب الجرائد المهمة وقوع مثل هذا التكليف من قبل الدول ، وعلى فرض وقوعه وتطبيق هذا النظام الذى ليس فيه ما يخل بالشرف العثمانى ـ بالرغم من هذا كله ـ فقد اتخذ المعارضون من الاتحاديين هذه الإشاعة فى مثل هذه الأوقات الحرجة سلاحاً يقاتلون به الحكومة ، وأخذوا يرمون الوزارة بكل شائنة عندما آنسوا من بعض خصومهم فيما يظهر ارتياحاً إلى العمل به ، زاعمين أن ذلك يمس باستقلال الحكومة .

وياليتهم اكتفوا بذلك حتى قاموا يهيجون الرأى العام بتهاويلهم وأقاويلهم مما دعا إلى اجتماع طلبة الطب فى عاصمة السلطنة وتجمهرهم أمام الباب العالى طالبين إلى أركانه أن لا يأبهوا لهذا النظام ، وأن لا تقعد الحكومة عن إشهار الحرب ، لأن عامة أفراد الأمة ممن تخفق قلوبهم بعاطفة الوطنية وينبض فيهم للاخلاص عرق يمدونها بأموالهم وأبدانهم وأنفسهم .

---

(١) من المقالات التى كانت تنشر فى المقتبس

ونحن مع تقديرنا لعواطف أولئك الطائبة حق قدرها فى طلب الحرب حرصاً على الشرف العثمانى من أن يذل أو يهان ، نؤاخذهم بما فعلوه : أولا لأنا نود كما يود غيرنا أن لا ينصب العلم غرضاً لأهواء الأحزاب السياسية خشية أن يفسد بما يمازجه من لوثات السياسة ، لوثات الرعونة والطيش ، لوثات الرياء والدناءة . . . . فيهبط من ثريا الحقيقة إلى ثرى الأوهام . وثانياً : لأن الجهل بالأمور السياسية والدولية فى مثل هذه الأحايين ، ومطالبة الحكومة بما يتراءى لاول وهلة أنه حقيقة وهو على خلافه ، مجلبة للخطر ، ومدعاة للسقوط . وفوق ذلك فإنا كنا نأمل من إخواننا وزملائنا شبان الفجر الآتى أن لا يكونوا فى مثل هذه الدرجة من الغرارة ، فلا يطوحوا باستقلالهم الفكرى وبإرادتهم الذاتية فى مهاوى العبودية والاسترقاق لأهواء الأحزاب .

وبعد فما هو ياترى نظام ١٨٨٠ ؟ وهل صحيح مايقال من أنه يمسّ الحكومة حتى تقام لأجله تلك المظاهرات ؟ وهل فى تطبيقه ما يضر بمصلحة الوطن ؟ . .

هنا قبل كل شىء نرى من الواجب علينا أن ننبه على أن نظام ١٨٨٠ هو غير تلك اللائحة التى وضعت لإصلاح ولايات الروملى الشرقية وجزيرة كريت ، كما أنه لا يتضمن معنى الانفصال ، وليس فيه ما جاء فى المادة الـ ٢٣ من معاهدة برلين المنعقدة سنة ١٨٧٨ .

نعم ، ليس فيه ما يدل على الانفصال مطلقاً ، بل هو نظام وضعته الحكومة العثمانية سنة ١٢٩٧ باشتراك مندوبين من الدول أرسلتهم من قبلها إلى عاصمة السلطنة لقضاء هذه المهمة ، وذلك بعـــد أن رغبن إلى الحكومة أن تقوم بالاصلاحات حق القيام فى تلك الأصقاع ، وبعد أن وضع سعيد باشا الصدر الأسبق تلك الخطة المعروفة التى كانت غايتها قطع علاقات ولايات الروملى عن

عاصمة السلطنة ، الأمر الذى لم ترض به الدول آنئذ وعدلت عنه إلى ذلك النظام المعقول .

ومن يمعن النظر فيما ورد فى ذلك النظام من المواد لا يشم منه رائحة الانفصال أبداً ، فقد جاء فى المادة الأولى منه : « إن أهالى كل ولاية لهم الحقوق المصرحة فى قوانين الدولة الأساسية ، وهم يعملون بها » ، وتتلوها المادة الثانية القائلة بأنه : « لا تفريق بين الأجناس والأديان » ، والمواد الأخرى التى منها ما جاء بحرية التعليم وأن للحكومة الحق بأن تراقب عامة المدارس على السواء ، وأن لسان الحكومة الرسمى هو التركية على أنه يسمح للعناصر الأخرى أن تطلب تدريس لغاتها فى مدارسها ، ومنها ما يقول بأنه تقام فى كل ولاية من تلك الولايات كتائب من الجند والدرك والشرطة لتقرير الأمن وحفظ السكينة ، وأن « دفتردار » الولاية وإن كان دون الوالى فهو المسئول عن الشؤون المالية تجاه الحكومة رأساً ، وأن الوالى يعين نائباً عن الحضرة السلطانية مدة خمس سنوات ، فإذا كان مسلماً كان مستشاره مسيحياً ، وإن كان مسيحياً كان مستشاره مسلماً .

وبالجملة فان بقية مواد هذا النظام المؤلف من ٣٢٧ مادة تبحث عن حقوق الأهالى العامة ، وعن حريتهم ، وعن التشكيلات الإدارية والانتخابات ، والمعارف العامة ، والنافعة (الاشغال) ، وما شاكل ذلك مما فيه عمران البلاد وإصلاحها بتنمية ثروتها من طريق الصناعة والتجارة .

ومما تقدم يعلم أنه ليس فى تطبيق هذا النظام ما يضر بمصلحة الوطن ، بل إن العارفين بمصلحة البلاد يقولون بلزوم العمل به وتطبيقه بعد أن تنظر فيه الحكومة ، فإذا رأت فيه ما يستدعى التعديل والتهذيب كما تقتضيه طبائع الأمم

فعلت ذلك . وفى ارتباط المالية بمركز السلطنة ــ وهى روح الدولة كما هو معلوم ــ ما يُدحض مزاعم القائلين بأنه يرمى إلى الانفصال . وزد على ذلك أنه ساوى بين أبناء العناصر فى الحقوق ، وجعل مدة حكم الوالى خمس سنوات حتى لا يكون عرضة للعزل والنصب كل ساعة شأن بعض الولاة الذين قيل عنهم إنهم كقطع الشطرنج فى التنقل ، وذلك ليتمكن من معرفة أخلاق الأهلين وعاداتهم ومنازعهم حتى يأتى بالاصلاح المطلوب كما تدعو اليه حاجة البلاد .

والغالب أن حكومتنا اليوم عرفت مكانة ذلك النظام فأحلته المحل الجدير به من حيث عزمها الأكيد على تطبيقه من نفسها لا بسائق من الدول كما أيدت ذلك الجرائد الكبرى ، رغبة منها فى إصلاح حالها ودرءاً لما عسى أن يحدث من المفاسد فى المستقبل مما لا يدخل فى حساب السياسة . وقد أيد ذلك سفيرنا فى باريس للمسيو بوانكاره رئيس الوزارة الفرنسية بعد اجتماع طويل . . .

مبدأنا أمام المصائب[1]

للأمير صباح الدين[2] ، معربة عن مجلة « وظيفة » التركية

إن أعظم واجب وجدانى هو البحث عن الحقيقة فى كل صقع ، والسعى وراء الدفاع عنها ، ووضعها موضع العمل ، ويكون أداء هذا الواجب فى الأحايين بمثابة الفرض العينى ، ولو كلف ذلك ما كلف .

هذه هى الحال اليوم . فهل مصلحتنا ، فى الحرب وفى السلم ؟

إنا نعد الدفاع بكل صراحة عما نجزم باعتقاده أمام هذا السؤال ، وعما يتعلق به من مسألة الاصلاحات الشكلية ، فرضاً وجدانياً .

ولا ريب فى أن ما خسرناه فى هذه الآونة ليس سوى تتمة للخسائر التى كانت وما زالت تلحق بنا منذ قرون متطاولة ! وبديهى أننا إذ لم نعمل على إبادة الأسباب التى نشأت عنها هذه الأحوال فان مايعقبها من النتائج لا يتسنى أن يزول . والسبب الذى قضى على العثمانية أن يوقعها فى البؤس الداخلى والفوضى ، وأن يجعلها عرضة لطمع الطامعين فى الخارج ، هو كياننا الاجتماعى .

ولذا فان كياننا الاجتماعى وطرز إدارتنا هما اللذان جلبا الخطر العظيم إلى أبواب العاصمة أكثر مما أتى به الأعداء أنفسهم ، وعلى ذلك فان طريق السلامة

---

(١) نشرت فى « المقتبس » ١١٥٩ ، الاثنين فى ١ جمادى الأولى سنة ١٣٣١

(٢) الأمير صباح الدين ، ابن أخت السلطان عبد الحميد والسلطان رشاد . كان يؤمن بنظام اللامركزية وأنه النظام الوحيد الذى يصلح للسلطنة العثمانيـــه التى تتألف من قوميات مختلفة . وهذا النظام هو الذى كانت الولايات العربية تطالب بالعمل به

ليس فى تفسير الحوادث بفكرة سقيمة عقيمة تكون ترجمان العواطف والآراء الشخصية ، بل بادراك على صحيح منتج ناشىء عن الدراسات الاجتماعية .

ولو أنا فهمنا الحوادث على هذه الصورة لاضطررنا الى الاذعان بان مصلحتنا بادىء بدء هى فى السلم .

إن السعى فى سلامة الأمة والوطن من وراء الحروب ، فى حين أن البلاد من شمالها الى جنوبها ومن شرقها إلى غربها تضطرب بالثورات وتتطلب الاصلاح ، وإن السبب الذى يدعو إلى الاعتداء الأجنبى هو تلك الفوضى التى تزداد يوماً عن يوم داخل البلاد ، فهى انتحار باعتبار النتيجة ، حتى لو كان الظفر حليفنا فى جميع المعارك ، إذ أن الأزمة التى وقعت بها الأمة ، تلك الأزمة المزمنة التى أخذت فى الآونة الأخيرة شكلاً حاداً ، هى كما أثبته العلم ناجمة عن كياننا الاجتماعى ، أى عن بعض أسباب اجتماعية لا تزال حتى الآن مجهولة عندنا . وإن أعظم انتصار يناله الجنود يظهر أمام هذه الأسباب بمظهر العجز المطلق ، ومن أجل هذا كنا نحن جماعة أصحاب المبادئ غير قائلين بالحرب أبداً فى زمن كانت فيه هتافات « نطلب الحرب » تبلغ عَنان السماء .

ولئن كان أنصار الحرب يدّعون بأنهم ليسوا هم الذين طلبوا الحرب وأن الأعداء فقط هم الذين كانوا سبباً لذلك ، ولكن هل كان اتحاد هذه القوى المتباينة علينا إلا ردَّ الفعل الطبيعى لسياستنا الداخلية والخارجية ؟ أليست اليونان هى التى رأت نفسها مضطرة لأن تحالف البلقانيين بعد أن حلت فى نفسها أمنية الاتحاد مع العثمانية اتحاداً خالصاً منذ سنين ، وبعد أن يئست من تحقيق أمنيتها هذه كل اليأس ؟ ألم يكن من المحتمل أن نوفق حقيقة لعقد اتفاق مع اليونان بشروط أصلح وأشرف ، وأن تنضم الدول البلقانية الأخرى فى هذا الاتفاق لو أنا رضينا بأن نعطى جزيرة كريت لقاء مصالح حقيقية عملية نحن فى أشد الحاجة الى نيلها ، بدلاً من أن

نزعج الدول دائماً باحتجاجات لا طائل تحتها ، وأن نذيع بهذه الواسطة عجزنا فى أقطار العالم باسم ما لنا من السلطة الاسمية فى جزيرة كريد التى خرجت من أيدينا فعلاً منذ زمن مديد . على حين أن اتباعنا فى سياستنا الخارجية طرقاً سلبية لا تلائم مصالحنا الإيجابية مع من يجاورنا حمل جيراننا على أن يمشوا متحالفين ضدنا على شدة ما بينهم من المباينة والتنافس ، حتى أننا بعد أن أضعنا كريد التى عملنا على الاحتفاظ بها ، سننفض أيدينا من بقية الجزر ، وسنرى أن حدودنا فى أوروبا ستنحصر فى أسوار الاستانة ، وحقاً إن هذه المنزلة من الغفلة لهو الجنون بعينه ، وإن ما جاز على اليونان من هذه الحقيقة يجوز أيضاً على الدول البلقانية ، لأن البلغاريين والصرب لم يوجدوا هذا التحالف إلا بعد أن علموا أن العثمانية لا يتأتى لها أن تتخلص من أمراضها حتى بعد الانقلاب أيضاً ، بل بالعكس قد ازدادت سيئاتها القديمة .

على حين أن مسلكنا الاجتماعى الذى ولد من ثمانية أعوام وهو يعتمد على أساس علمى قد أثبت بأنا لا يمكننا أن نتخلص بمجرد تبديل شكل الحكومة ، وبينا سلسة من الدلائل التى لا تقبل الرد دعائم الطرق التى لا بد من اتباعها لنحصل على الخلاص . والحقيقة أنه هل كان فى الامكان أن يكون موقفنا بمنزلة لا يحيط بها التصور والوصف لو لم نكن مناهضين بهذه الدرجة ولو لم نرتكب بأنفسنا ما أصابنا من المصائب بفكرة لاحياة بها أبداً والعجز بالغ منا أقصاه ؟ وبينا كانت الطرق التى اتبعناها تعمى أبصارنا بسبب الحرب الأخيرة ترانا ننتظر السلامة من المثابرة على ترك الطرق المعوجة ! ...

ولقد كان من الجنون الدخول فى غمار الحرب ونحن فى تلك الأحوال ، وقد جوزينا على هذا الجنون بأن سفكت دماء ألوف من مواطنينا ، وأن قضى على كثيرين منهم بالبؤس الفاجع .

على أنى لا أنسى وأنا أخط هذه الأسطر التى تدافع عن لزوم ابرام الصلح وفائدته بأنى بذلت الجهد فى مذكرة علنية رفعت إلى مقام السلطنة أُلفِتُ فيها نظر السلطة التنفيذية والرأى العام إلى الدّفاع القطعى وما يشترط اتباعه من الطرق المنجية .

أما وإن الأعداء رأيناهم يحاولون أن يضيقوا على العاصمة ، فان الدفاع القاطع قد صار من أبسط شروط البقاء .

وقد أدى الجيش هذا الواجب بشرف ، بالرغم من عدم كفاءة الحكومة التى سقطت(١) . فقد أظهر من الدفاع الجدّى المؤثر ما أرغم الاعداء الذين حاولوا أن يفتحوا الاستانة بحملة واحدة على التقهقر ظانين أنه أصبح عاجزاً عن الدفاع بسبب عدم استعداده للتعرض لهم . وقد تحسن موقفنا العسكرى والسياسى بعد هذا النجاح .

ولو أننا عرفنا كيف نستفيد من هذا الموقف الذى كان قد تحسن بما ينضم اليه من المساعى التى أثبتت فى المذكرة العلنية لكان من المحتمل كثيراً أن نوقع الآن على صلح يضمن بقاء أدرنة . ولكن تلك الفرصة أيضاً قد أضيعت كما هى العادة ، فقد سلكت طرائق لا مخرج منها بدلاً من تلك الطرق التى اجتهدنا فى إظهارها . وها قد مر على فسخ الهدنة زهاء شهرين والنتيجة الوحيدة التى أستفيدت هى سقوط يانية فقط ، لقد كان من الممكن اللازم ، ويانية تدافع عن نفسها بكل بسالة ، أن نبادل هذا الموقع المهم ببعض الجزر التى هى أهم منه .

أما وإنه لم يبق فى أيدينا هذا الامكان اليوم فالواجب علينا أن نعرف طرق

(١) هى حكومة الاتحاد الترقي التى استولت على السلطة عقب اغتيال أنور باشا لوزير الحربية ناظم باشا .

الاستفادة من التضحية التى أظهرها قائدا أردنة واشقودرة حتى نوفق الى مبادلة هذين الموقعين بغيرهما من المواقع مما نحن فى حاجة اليه أكثر . فحاجات المتحاربَيْن ومصالحهما المتبادلة الحقيقية هى ولا جَرَم فى تعجيل هذه المبادلة .

أما إنقاذ أدرنة بواسطة ما يأتيه جيش شطالجة من الحركات الهجومية فان هذا الهجوم كما أنه يجوز أن ينتهى بنجاح فكذلك يجوز أن لا يعقبه ذلك ! . . . وعلى الفرض الأول فان أدرنة ستبقى فى أيدينا ، وكذلك فان موقفنا الخارجى يظل محكماً ولو موقتاً . ولكن هذا النصر المؤزّر لا يشتمل على معنى مفهوم منه أن العثمانية سيكتب لها النجاة . إذ أنا فى اليوم الذى نفهم فيه معنى الاصلاحات الحقيقية(١) ونسعى إلى وضعها موضع العمل نكون قد سلكنا خطة نأمن فيها على استقلالنا ومستقبلنا السياسى واستقلالنا الخاص ، بحيث لا يتأتى لأية قوة خارجية أن تهددنا ، ونكون قد اكتشفنا وسيلة نتلافى بها وبما نأتيه من الترقى فى آسيا ما أضعناه فى أوربا ، ولو أننا استرددنا ليس فقط أردنة بل عامة مافقدناه من البلاد منذ سليمان القانونى ، فمن المحقق أننا سنضيع كل ذلك مرة أخرى ، إذا فعلنا خلاف ذلك ، وهذه حقيقة يؤيدها ما أضعناه من البلاد منذ سنين .

وعليه فمن الممكن أن نحكم استقلالنا بالرغم من ضياع أدرنة . ولكن انتهاء حركاتنا العسكرية بانكسار جديد سيهدد هذا الاستقلال فى مظهر حقيقى فجيع . إذ بانهزام جيشنا الذى يؤلف أكبر قوة لنا وأشهرها ، فبالضرورة نفقد بقية القوى . وعلى هذا التقدير سنضيع الاستانة من أيدينا ، بينا نحن نعمل على انقاذ أدرنة ، وفى هذا الوقت ستقع العثمانية بأجمعها فى الخطر ، ولذا فان أبسط

---

(١) أى العمل بالنظام اللامركزى

قياس نعمله بين ما سنحرزه من النتيجة فيما إذا كان النصر حليفنا ، وبين ما يصيبنا من المصائب فيما لو انكسرنا ، يأمرنا باسم أنفع مشروع عام للمملكة وأتمنه بأن نرجح السلم على الحرب . ولو فعلنا ذلك لكنا أبقينا وأعداؤنا على أرواح ألوف من الضحايا ، ونحول دون وقوع حادثات مضرة جديدة تهدد على القرب والبعد الأمة والوطن ، الأمر الذى لو لم يبعث أعداءنا على التسليم بلزوم عقد صلح معقول مقبول فان له شأناً انسانياً كبيراً يزيد فى همة الدول التى تقدر السلام قدره وفى مظاهرتهن للحق والحقيقة . . .

من أجل هذا فان بذل الجهد فى حل المسألة بطريقة الصلح على وجه السرعة عملاً بوصايا الدول العظمى الودية المتوالية ، وعندنا جيش معد لأن يقوم بكل تضحية ، وحصون أدرنة وأشودرة لا تزال ثابتة تدافع دفاع الأبطال ، والتذرع بما يلزم للمفاوضات السياسية بما توجبه من اللياقة والكرامة حتى نوفق لعقد الصلح بشروط موافقة ، ولانقاذ بحر مرمرة عاجلاً ، وحتى لا نجعل بلاد الأناضول المسكينة تنوء بأعباء الغرامة الجديدة ، وحتى يتأتى لنا على قدر الامكان مظاهرة أصدقائنا الأرناؤط المغدورين — إذا فعلنا كل هذا نكون قد أتينا بحركة صحيحة لمصالح الوطن الحقيقية أولاً ولمصالح أعدائنا اليوم الذين سيكونون حلفاءنا غداً ثانياً ، ولمصالح أوربا ثالثاً ، وبهذه الوسيلة نكون قد أدينا أعظم خدمة حكيمة لوطننا المعرض لأكبر خطر .

بيد أن هذه الخدمة لا تنحصر فقط فى السلم الخارجى ، بل اللازم ايجاد سلم داخلى ، ذلك السلم العامل المفيد الذى نحن فى أشد الحاجة اليه فى الحياة الاجتماعية جمعاء بين الآمرين والمأمور عليهم[1] ، ولنصل الى هذا المقصد الذى هو شرط

---

(١) يشير الأمير صباح الدين بهذا الى مذهبه فى نظام الادارة اللامركزية

لازم لبقائنا ، فانا فى أشد الحاجة إلى أن نعيّن منشأ هذا الفساد ، وإلى أن نرى كياننا الاجتماعى الذى سلخ عن الذين ينتمون اليه كل استعداد للرقى والعمل ، ونرى طرز إدارتنا التى حرمت من كل نظام وانتظام بسبب أنها ناتجة عنه ، كما أثبتت ذلك الدراسات الاجتماعية ـ نراها عاريين عن ذلك الفساد ، لأنا نرى أبسط الحقوق المرعية فى هذا العصر المتمدن ـ كالمال والنفس والعرض ـ لا يؤمن عليها فى بلادنا .

ألا وإن العبث بهذا الأمن ليبعث بالطمع على قيام ثورات دائمة ، ونتيجة ذلك هو الاحتلال الأجنبى شئنا أم أبينا . ومن المحقق أننا إذا لم نقم بآراء علمية من شأنها أن تؤثر فى كياننا الاجتماعى ، بدلا من تلك الفكرة العقيمة التى هى فى غفلة عن حقيقتنا وحاجتنا الأصلية ، وعن مسألة ذلك الكيان وما يدير المملكة تحت أى اسم أو شكل كان ، فاننا لا نكون فى آسيا أمة مستقلة كما كان شأننا فى إفريقيا وأوربا ، إذن يجب علينا بعد الآن أن نولى وجوهنا شطر طريق جديدة فى العاجل ، وذلك من أجل أن نحيا حياة مجد واستقلال .

وهذه الطريق هى طريق « المبدأ » الذى يظهر بوضوح استعدادنا فى حياتنا الخاصة ، وقوتنا على إجادة العمل فى حياتنا العامة .

ولا شك أننا لو كنا سرنا على الخطة التى رسمها لنا هذا « المبدأ » الذى أنذرَنا منذ أعوام متطاولة بما قد حل بنا من المصائب اليوم لـكنّا قد مهدنا لأبناء وطننا طريق السعى والـكمال مفعماً بالسعد والجد ، وصرنا عاملاً صحيحاً للسلم يحترمه العالم المتمدن بأجمعه بدلاً من أن نشاهد هذه الفجائع السوداء التى يحمر لها وجهنا خجلاً مع أنها لا تنيل أعداءنا شرفاً .

ولو أننا مع هذا كله نسلم باعطاء الحقيقة نصيبها من الحق ونشرع بانفاذها حالاً

راضين بالأمر الذى قضى ، ووقعنا على صلح يمكننا من انقاذ ما يمكن انقاذه فى حينه وما لا بد منه ، فاننا نظفر مرة أخرى بالزمان الذى نحن فى حاجة اليه لنجعل مستقبلنا فى أمان .

إنى أخاطب أصحاب الضمائر العالية من أى فريق كانوا ، وإلى أى حزب انتموا . إنى أخاطب أصحاب الضمائر التى تأبى أن نلقى بأبناء الأجيال الآتية تحت نير الأجنبى ، وتريد أن تكون بلادها لها ، أخاطبها وأدعوها أن تجتمع حول هذا « المبدأ » العلى و الحقيقة الأساسية التى هى الدعامة الوحيدة لنا أمام المصائب ، وأن تسير بعزم ثابت فتعيد السلام بحيث تنال ثقة العالم ، وتنظم المملكة العثمانية على أساس جديد .

ولا يمكننا أن نأمل شيئا من عناية الحق جل وعلا ، إلا إذا كان لنا مثل هذا العزم .

« دمشق »

الوباء والأطباء

من أصعب الأمور البت فى مسألة نفياً أو إثباتاً بمجرد الظن ، خصوصا إذا كانت من المسائل الحيوية التى لا يجوز القطع فيها إلا إذا قام عليها دليل مادى محسوس .

من ذلك أن إحدى الصحف المحلية نشرت مقالة استعرضت فيها آراء نفر من أطباء هذه الحاضرة ، وخلاصتها القول بنفى وجود الوباء ، وأن ما حدث فى دمشق فى هذه الأيام إن هو إلا مرض آخر يسمى « كولرين » وهو أخف من الكوليرا وطأة وأسلم عاقبة .

وهذا ما قرّره أولئك المحنكون المجربون العريقون فى صناعة الطب الشريفة ، وليسوا كغيرهم حديثى عهد بمزوالتها كما زعم كاتب تلك المقالة ، وإن كان بينهم من تخرج من المدارس الطبية قبل أن يضع الدكتور « باستور » نظرية الجراثيم (الميكروب) .

وإذا صح مايزعمون ، كانت بشرى يزفها هؤلاء الى المواطنين ، ويستحقون عليها من الحكومة أحسن الجزاء ، ومن الأمة أطيب الثناء .

ونحن نود من صميم قلبنا أن تصح تلك الدعوى ، كما أنا لانحب أن ننازع الناس فى آرائهم الخاصة إذا لم يترتب عليها حكم ولم تمس مصالح الأمة ، لولا أن المسألة مسألة حياة وموت ، وبنفيها تتعطل المصالح أو تسير سيرها ، خصوصاً وقد

ظهرت هذه الآراء من أطباء ، والطبيب يحمل مايقول فى هذا الباب فى الغالب على محل الصدق فى القول . وينقله الكثيرون ـ على غرارة فيهم ـ إلى من لا يتكلف مشقة البحث والتنقيب ، ولا يهمه إلا أن يبيت فى فراشه الوثير قرير العين ، وأن ينام ملء جفنيه من حوادث الدهر الساهرة ، لا سيما والنفس تنزع فى مثل هذه النوازل الى الآمال العذبة الجميلة تتلهى بها عن آلام الحقيقة المرة الجارحة ، فترسخ تلك الفكرة على مر الأيام ويتلقاها الكثيرون حقيقة ناصعة لا غبار عليها .

فإذا كان بينهم من تلك الفئة الرشيدة من يخافون شر هذا الداء الوبيل ، ويأخذون الحيطة لانفسهم عاملين ببعض القواعد الصحية التى قررها العلم الصحيح وأيدتها التجارب المادية ، ثم يدعون ذلك اعتماداً منهم على تلك الآراء ، فان نتيجة ذلك أن يفشو الداء فى هذه المدينة التى حرمت الهمم المهتمة بأمر الصحة العامة ، والأيدى العاملة فى تنظيف شوارعها ، والنظر فى أمر الباعة ، حتى يتأصل الداء ويتعذر بعد ذلك استئصاله .

وبعد فإن القائلين بنفى الوباء يستندون فى ذلك على عدم وجود الأعراض بأجمعها ، والواقف على النظريات الحديثة يجد أنه ليس من الشرط فى الحكم على وجود الكوليرا أن توجد عامة الأعراض السريرية (كلينيك) كالقىء والاسهال والمغص والتقلصات العضلية وهبوط درجة الحرارة وزرقة الوجه وتغوُّر العينين وتجعد الجلد ، الى غير ذلك من الأعراض التى قد يكون بعضها مفقوداً فى الأحايين ، فلا تظهر على أشدها فى المصاب ، ولا يستطيع معه الطبيب فى هذه الحال أن يتتبع عامة صفحات المرض بأدواره الثلاثة .

ويجب أن نعرف أيضاً أن الوباء على ضروب شتى ، فمنه مايحصل فى المصاب

قيء عادي وترافق ذلك أوجاع ، ومنه مايصاب به المرء أياماً ثم يبل منه ، ويتفق أن يكون شديداً فيهلك المريض بدون أن تظهر فى الأمعاء أعراض ، ويقال له الوباء اليابس ، وقد يحاكى الحمى التيفوئيدية فى الأحايين .

واستدلالهم بعدم زيادة الاصابات كل يوم حق ، ولكننا متى عرفنا أن ماء عين الفيجة نظيف فى الجملة بشهادتهم أنفسهم ، ومعظم عدواه تأتى من طريق الماء ، وأن الأهالى تكتم الاصابات بدعوى أن الأطباء اذا تحققوا أن الشخص موبوء واستوثقوا من تشخيصهم استحلوا قتله ببعض العلاجات السامة ، وأن بعض الأطباء على ما ترامى الينا يجارون الأهالى بكتمانهم الإصابات عن الحكومة ، متى عرفنا ذلك حق العلم لا نعجب إذا رأينا فى الاحصاءات الرسمية أن الإصابات لا تزيد فى اليوم عن الأربع والخمس ، مع أنه فى الحقيقة يفتك فى الأهلين فتكا ذريعا .

على أن التناقض يتراءى لك من ثنايا تلك الآراء حين تمعن النظر فيها وتعمل الفكر وتنظر إليها بعين النقد ، فبينا ترى أحدهم يدّعى قائلاً : « إن هذه الوطأة الخفيفة ليست وطأة الكوليرا » ، إذا به يقول « رأيت أعراض الداء فى المرأة التى توفيت بالعمارة » وقد أسند لثلاثة من الأطباء المذكورين القول بوجود الكوليرا ، واثنان منهم لم يصرحا بذلك ولم ينطقا بلسانهما ، وإنما جرى على لسان غيرهما ، وهذا يدعو إلى الريبة والظن ، والآخر لم يذكر له إلا أنه عرف الفرق بين الكوليرا والكوليرين بقوله « إن الكوليرا التى تكون خفيفة الوطأة تسمى كوليرين » .

هذا ما رأيناه ، أبدينا رأينا فيه ، ومنه يعلم أنه لا يجوز نفى وجود هذا المرض بالاستقراء ، خصوصاً بعد ما عرفنا من تعدد أنواعه وما شهدنا من تناقض

آرائهم فيه ، وإنه لا يصح الاعتماد فى الحكم على وجود هذا الداء إلا إذا ثبت فى علم الجراثيم (البكتريولوجى) بأمثل الأدلة وأحكمها ، لأن إلقاء الكلام على عواهنه فى مثل هذه النوازل ، ونشره على الناس جزافاً بدون تثبت ليتهاونوا به ويستصغروا من شأنه ، يعد جناية عظمى لا تغتفر .

ومن أجل هذا يجب أن لا يسارع الناس الى التهاون بالقيود الصحية وثمة من يدعى إثباته من الاطباء وبرؤيتهم لجرثومته فى فضلات المصابين واعتمادهم فى ذلك الفحص بالمكبرة (الميكرو سكوب) والبحث البكتريولوجى .

دفع الله عن البلاد كل مكروه ، وحفظها من الأسواء والارزاء ، إنه خير حافظاً .

« كتبت فى دمشق »

صفحة من تاريخ التمثيل

بين الصناعات الشريفة العالية ـ كالطب والصحافة والمحاماة ـ صناعة استدعت طبيعة العمران وحاجة البشر وجودها ، فنشأت ونمت ، فـكان لها بين هذه الصناعات تاريخ تقرأ فيه صورة القرون وحياة الأجيال ، أعنى بها صناعة « التمثيل » .

وليست الأمة الى صحفى أخذ على نفسه أن يبث فى هذه الأمة فـكرة الإصلاح لتقف على معنى حقوقها وواجباتها ، أو طبيب يدرأ عنهـا الأوصاب والمصائب ، ويعمل على تخفيف آلامها وأسقامها ، ولا إلى محام يدفعه ضميره وشرفه وذمته الى إحقاق الحق وإزهاق الباطل ليخفف الويل والثبور عن البؤساء ـ ليست الأمة الى هؤلاء ومن أخذ ـ إخذهم بأشد حاجة إلى ممثل جمع إلى الخفة فى الحركات والاشارات البراعةَ فى الإلقاء والأداء ، وباهى بما وُهب من المزايا الطبيعية ما اكتسب ، يلقى مساء كل ليلة درساً عاماً حيوياً لم تعه بطون الـكتب ولا طيات الدفاتر .

وهذا المسرح ـ الذى لا يبلغ ذرعـه عشرين ذراعاً ـ هو ولا جرم صفحة الـكون ، بل جامعة العالم العامة ، واليها يختلف مجموع الأمة خاصتها وعامتها ، وحضريها وبدويها . وما دروسها إلا ما يعرض فى المجتمع من عبر الدهر وغِيَره وحوادثه وكوارثه ، وما انتاب الأمم من ظلم الملوك وعدلهم ومكرهم ودسائسهم ،

وما يأتى به الانسان من وفاء ودناءة أو شرف ونذالة ، وما يكيد به النساء للرجال وما يمكر هؤلاء لهن : فإما رذيلة يتصدع لها كبد الأرض ، أو فضيلة يستنير بها وجه السماء .

وبالجملة فان عامة ما تدور عليه رحى البشرية اليوم من الوقائع فى ميدان تنازع البقاء هو من قائمة دروس هذه الجامعة الكبرى .



لا يعلم على التحقيق أين ومتى وكيف كانت نشأة التمثيل الأولى ، على كثرة الأخبار والآثار التى أتت فى تضاعيف المصنفات التاريخية الموضوعة فى بيان واضعه ونشأته . ولا تلبث تلك الروايات أن تسقط فى نظر البصير المسدّد متى رجع فى مثل هذه الموضوعات إلى كفتى الجرح والتعديل .

بيد أن من المحقق أن التمثيل عرفه فيما مضى اليونانيون بادئ الرأى على غير الطريقة المتبعة اليوم ، فقد كان يحتفل الفتيان فى الأرياف المجاورة لأثينة كل عام باقامة المراقص الدينية إكراما للرب ديونيزوس إله الكرمة . وكان بعض هذا الرقص متثاقلا يمثل أعمال المعبود ، فيعزف رئيس جماعة الموسيقيين على وتر أغنية ديونيزوس ، ويصور جوقته ورفاقه بأرجل تيوس يسكنون الغابات ، ثم يأخذون فى تمثيل عيش أرباب آخرين وأبطال قدماء (١) .

ثم خطر لأحدهم أن ينصب مصطبة يمثل عليها أحد الممثلين عندما ينتهى جوق الموسيقى من العزف بأنغامه ، وهكذا يتم المشهد ، وينتقل الى المدينة بالقرب من شجر الحور الفارسى ، أومجتمع السوقة ، فنشأت من ذلك الروايات الفاجعة (المأساة) .

أما الرقص الآخر فكان مضحكا : يتنكر الراقصون ويتغنون بمدائح الرب

(١) اعتمدنا فى هذه النقول على تاريخ الحضارة لشارل سينوبوس .

ديونيزوس وقد شابوها بأضاحيك يسلون بها الحضور أو مصورات هزلية فى حوادث حدثت فى ذاك اليوم . وقد صنع فى الجوق الهزلى ما صنع فى الجوق المفجع من إدخال ممثلين ومحاورات ، ونقل المشهد إلى أثينه ، وهكذا نشأت الروايات الهزلية (كوميديا) .

قال المسيو شارل سينوبوس صاحب تاريخ الحضارة : من أجل هذا كانت الروايات الفاجعة تمثل إلى يوم الناس هذا أبطالا . أما الروايات الهزلية فتمثل حياة كل يوم . واحتفظت الفاجعات (المأساة) والهزليات ببعض أصلها ، وظلت تمثل أمام هيكل الرب وان تكن فاجعة ، والئن غدا الممثلون وهم جلوس على المصطبة أصحاب موقع فى المشهد فقد ظل جوق التمثيل يرقص ويتغنى وهو يطوف حول المذبح ، وكان جماعة الموسيقيين فى الروايات الهزلية كما كانوا ويجىء المتنكرون يبدون ملاحظاتهم على السياسة بغلظة .

وقد أثر عن اليونانيين أنهم كانت عندهم مواسم مهمة ، منها ملعب جعل فى قلعة الاكربول للرب ديونيزوس إله الكرمة يسع ثلاثين ألف متفرج وذلك ليحضر الآثينيون عامة هذه المشاهد . وكان هذا الملعب كسائر الملاعب اليونانية مكشوفا فى العراء ومؤلفاً من مدرّجات حجرية مرصوفة على شكل نصف دائرة بإزاء جماعة الموسيقى حيث كان يطوف المنشدون أمام المشهد الذى تمثل فيه الرواية ولا تقام المشاهد فيه إلا فى أوقات أعياد الأرباب ، بيد أن المشاهد كانت تدوم إذ ذاك عدة أيام متوالية : يبدءون فى الصباح عند بزوغ الغزالة ، ويمثلون ثلاث مآسى أخرى فى الأيام التالية ، وهكذا كان المشهد ميدان مسابقة بين الشعراء ، والأمة تغمرهم بجوائز الاستحسان ، وأشهر هؤلاء المتبارين أشيل وسوفكلس واربنيدس .

وقد عهدت المباراة أيضاً بين مؤلفى الروايات الهزلية ، ولم يؤثر من كل ما

مثلوه من الروايات غير قطعة واحدة ألفها أريسطوفان الشاعر الهزلى .

هـذا ما قاله صاحب تاريخ الحضارة ، وقد شاهدتُ بأم العين فى مدينة أثينة عاصمة البلاد اليونانية — حين يممت دار السلطنة فى العام المـاضى وعرجت منها على البلاد اليونانية أطلالا بالية من هذه المشاهد ، عليها غِيَرُ الأيام كالأكربول وغيره ، والحكومة اليونانيـة كانت وما زالت تحتفظ بالبقية الباقيـة منها مخـافة أن تندثر وتذهب كأمس الدابر .



ولقد أخـذ الرومانيون عن الأمة اليونانية أيضاً هـذه المشاهد ، وكانت عندهم عبارة عن ألعاب وحفلات دينية ، وتتعاقب المشاهد طول النهـار ، وتتكرر فى الأيام التالية مدة أسبوع على الأقل .

والمشهد عبـارة عن موعـد تتوافد إليـه الأمة بأسرها ، وهناك كانت تقام المظاهرات ، ففى خـلال الحروب المدنية عام ١٦٩ أخـذ المتفرجون يهتفون بلسان واحد : السلم . والمشهد (الفرجة) كان بحسب ما تميل إليه النفوس فى ذلك الزمن ، فقد مثل فيه ثلاثة أباطرة فمثل كاليجول فى هيئة حوذى ونيزون وكومود مصارعاً . والمشاهد عندهم ثلاثة أضرب وهى المرزح أو المسرح ، والملعب ، وشكل نصف الدائرة (انفيتياتر) .

وكان المسرح على الأسـلوب اليونانى ، والممثلون يمثلون بوجوه مسـتعارة يقنعون بهـا وجوههم ، ويمثلون قصصاً أخـذوها من اللغـة اليونانية . وقلما كان الرومان يقدرون مثل هذه الروايات قدرها ، لأنها تعلو عن عقولهم ، وكانوا يؤثرون الروايات المضحكة الجافة .

دمعة شاعر [1]

هناك فى احدى الزوايا من غرفة مظلمة فتى فى ربيع العمر ، وزهو الصبا ، جالس وراء منضدة له وهو ينظر من حين إلى آخر إلى قطعة أفق براق كانت تتراءى له من نافذة تلك الغرفة .

أخذ ذلك الفتى يحدق التحديق الشديد فى نقطة مجهولة من ذلك الأفق وقد ساد على الغرفة سكون رهيب ، فلا صوت ولا حركة الآن غير أنين روحه ، وما يسمع من أنفاسه المستعرة ، وآهاته المتصاعدة . من يدرى ؟ لعله يفكر فى آمال له مزهرة عراها الذبول ، أو خيالات مذهبة قد تلاشت فى ظلمات الفناء ! .

لم يمض على ذلك بضع دقائق حتى ترك الفتى مكانه ، وأخذ يجول فى الغرفة غدواً ورواحا ، وهو كلما خطا خطوة مسح عبراته بمنديل أسود كان بيده . ولشد ما كان يبالغ فى حفظها معتقداً بأن قطرات اليأس لا يمكن أن تستحيل إلى بخار ! .

أنهك قوى الفتى آنئذ التعب ، وأخذ بما عرض عليه من المؤثرات العصبية يخفق قلبه هلعا وجزعا ، ثم ترامى على غير قصد منه على أريكة كانت ثمة ، وأخذ يصعّد الزفرات ويبكى بكاء الثكالى .

ثاب الفتى بعد مدة إلى رشده ، فجمع أطرافه وغير من قعدته ثم أخذ كمن

---

(١) المقتبس ١٥٠ يوم الأحد ٢٥ جمادى الأولى ١٣٢٧ ، ٣١ حزيران ١٩٠٩

يستجمّ للوثوب ، يناجى نفسه قائلا : « أف ، لقد قضيت أعز دور من حياتى بين معشر كنت أعتقد الصدق والاخلاص فيما يأتون أمامى من الأعمال . وكنت أظننى سعيداً بما يريقونه فى حجرى من ابتسامات السرور الأثيرية ، بيد أنى لم ألبث حتى علمت بل تحققت أن وراء تلك الحركات المصطنعة هوة سحيقة يرجع عنها الطرف خاسئاً وهو حسير ، وأن ما أراه على وجوههم من أمارات الولاء ان هو إلا ستر ملونة بألوان التمويه المزخرفة يسدلونها على عينى ليخفوا بها ما تكنه ضمائرهم ! » .

ثم قطعت سلسلة أفكاره دمعتان انهالتا على خده ، فمد بيده اليهما وأخذ يمسحهما باطراف ذلك المنديل الأسود ، ثم انشأ يقول :

« على أنى لم أدخر وسعاً فى اعطائى الصداقة حقها من الحقوق والواجبات لمن كنت أحسبهم إخواناً لى فى السراء والضراء ، فقد ترعرعتُ فى محيط ساكن هادىء مفعم بالشعر والأمل والحياة والنور ، وشربت الكاس التى شرب بها المتنبى والمعرى وحبيب وزهير من شعراء المشارقة و « سوللى بريدوم » و « الفريد دى موسه » و « لا مارتين » و « زولا » من أدباء المغاربة ، وانى قدمت لأولئك الذين كانوا يبطنون ما لا يظهرون روحى وفكرى ونتاج قريحتى رغبة فى أن أقضى ما يطالبنى به الاخاء من الواجبات ، فكان نكثهم لى العهد جزاء ! » .

ولم يكن منه إلا أن نهض إلى قمطر (محفظة الكتب) وأخرج منه دفترا مذهب الأطراف ، ففتحه فاذا هو مكتوب على الورقة الأولى منه بالحرف الجلى : « خفاياى » . ثم بدأ يقلب الورق الواحدة بعد الأخرى ، حتى انتهى إلى قطعة من الشعر المنثور كان أهداها إلى صديق له عنوانها « سرائر الحياة » وكان يترامى أثناء ذلك من الدفتر على الأرض أزهار البنفسج ذبلت فذهبت نضرتها الأولى ،

ولـكنها حفظت من بقايا الحياة آثاراً وأسراراً ، وأخـذ يوالى من تلك القطعة قراءة الدرر السوداء الآتية :

« ليست الحيـاة سوى مجموع الزفرات المتصاعدة من أعمـاق تلك الـكتلة الانسانية الضعيفة العاجزة المؤلفة من طبقات شتى أثقلتها السنون ونال منها النصب مبلغاً عظيما . . تسير ولـكن إلى العدم . . وتتحرك ولـكن إلى حيث السكون . . تتطاول إلى العلاء بكليتهـا ولا تلبث أن تلصق فى الحضيض . . .

« خصها الازل منذ البدء بابتسامة ، ويهديها الابد دمعة فى الختـام ، ويصل بين مسافة الطـلوع والغروب هـذه آهات حارة مديدة أسفاً على المـاضى وهلعاً من المستقبل .

« تسير تلك الـكتلة بدافع تنازع البقاء ، فهو داؤها ودواؤها . يجرد منهـا تنازع البقاء كل عاطفة شريفـة . . . ولا يبقى فى القـلوب الصافية النقية للرحمـة والطهر والعفاف والشعور وعامة الخصال الملـكية أثراً . وفوق ذلك فلا تقوم لهـا بدونه قائمة .

« إن المحور الذى تدور عليه الـكتلة الانسانية هو الامل . . . ويمكن أن أقول إن الحياة هى الامل . . . وإن الامل هو الحيـاة . . . ولا حياة لمن اخفق مسعاه ، ورأى باقة آماله الغضة الطرية آيلة للذبول ، إلى الاصفرار ، إلى الموت ... »

« العـالم والشاعر والرسام والصـانع والزارع وكل الخلق يشـكون من آلام الحياة المرة واضطراباتها . . أهذه هى الحياة ؟ أمن أجل البؤس والشقاء تحيا هذه الـكتلة الانسانية ؟ .

« إذا كان حظ كل مخـلوق فى هـذه الـكائنات أنيناً متواصلا يسرى فى جسمه فيتصل بروحه وقلبه وعامة جوارحه ، فما هو سر الحيـاة ؟ ...

ما هو ذلك السر المبهم الغامض فى هـذا الوجود الذى ندعوه بالحـكمة

النابغة اليوم ؟ . »

قرأ الفتى الشاعر هذه القطعة عدة مرات ، ثم طوى دفتره ووثب وثبة هائلة حتى انتهى إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فتناول بيده واحدة من ثقاب الكبريت وتقدم بها إلى النافذة فأورى زنادها ، ثم أدناها من الدفتر الشعرى الذهبى فاندلع منه ما تلاشت به ظلمات الغرفة وارتفعت على جدرانها ظلال مبهمة متحركة . . . وما زال يتموج بيده لحظة حتى لم يعد فى الامكان حمله ، وما كان منه إلا أن ذرّه فى الهواء دون شفقة ولا رحمة ، وأنشأ يقول :

ستبكى قوافى الشعر ملء جفونها   على عربى ضاع بين الأعاجم

أفكر

عن التركية ـ لأشهر كتاب الأتراك ورواتهم

أفكر فى أن العالم لو ظل ثابتاً على شكله الطبيعى ، ووضعه القديم ، لسكان الناس فى الغابات وهى على الحالة البدوية ، فى عيشة هنيئة راضية . ولكن لا ، تلك الغابات الطبيعية قد تحولت الآن إلى مدن عظيمة ، لقد نبذت حياتها الفطرية ظهرياً ...

تبدل المجتمع الانسانى من أساسه ، وحدثت حاجيات وميول غـــــير تلك الحاجيات والميول ، واستعاض الناس عن تلك الحياة ـ التى سرحت فى الطبيعة بحرية وسعادة أياماً قلائل ـ طوفانا من قيود ، ولم يلبث المجتمع الانسانى أن غدا متقلباً فى أمواج من هذا الطوفان الهائل .

أفكر فى أن التمدن لو لم يكن ، لسكانت السعادة ! ولعلى غير محق . بيد أن هذا المجتمع وطرز هذه العيشة قد حملنى على النفور من الحياة ، وإنى لأجد هذه الساعات القلائل التى اضطررت إلى إمرارها ههنا كأنها عبء ثقيل مضطرب .

أجيل بصرى فى عامة الأنحاء فأرى المجتمع الانسانى مكبلا بقيود وعوائق شتى ومقيدا بتقاليد واهية واهنة .

أتأمل الخلق ، فيخيل إلى أنهم تماثيل صناعية تمر أمام عينى .

أرى فى كل صقع تصنعاً ، وفى كل مجتمع حالات غير طبيعية .

أفكر فى أن هذا كله لم يخلق ليكون على هذه الصورة كما هو الآن .

أدقق فى المجتمع الانسانى فأجبه بمجموعه كادّاً كادحاً ، وأشاهد فى كل ناحية حركة وهيجاناً .

أرى الواحد منا يحاول مقصداً ، ومشاكل الحياة تتخطفه حتى يعيا !

لماذا ؟ ... لأن ثمة أسرة تطلب زاداً ، وهذا الزاد أليست الطبيعة مدينة لنا به ؟

إن الناس حرّفوا قوانين الطبيعة ، وكان من الواجب الاقتناع برغيف من الخبز .

انظر هذا الذى لا عمل له حين يمر بكل فخفخة وكبرياء ، تقله مركبة عظيمة وتطأطىء له على قارعة الطريق رءوس كثيرة بكل ذل وانقياد ! ...

من هذا ؟ ... هو أحد المتمولين ... وذلك البائس يتأثره بنظراته وهو ملطخ بالأقذار ، يرتجف من صبارّة القرّ . ولعل روحه تتملص من شدة الطوى ، فلماذا نرى ثغر ذلك المتمول ذى الثروة الطائلة والجاه المنبسط الظل باسماً ، وعين هذا البائس من الفقر المدقع دامية دامعة ؟

لما ذا يحتضن الرجل الواحد خزائن الطبيعة ، ويقضى على الآخر بأن يعيش فى حرمان تام ؟

نرى فتاة جميلة يجثو الناس أمامها بذلة وخضوع ، وأخرى أجمل منها يتخذها الخلق آلة لقضاء شهواتهم وملاذهم ، فما ذا فعلت تلك المرأة الأولى حتى كانت موضع الإعجاب والاحترام ، وماذا جنت هذه المسكينة البائسة حتى عاشت تحت أثقل ما يكون من الاهانة والتحقير ؟!

وبينا أنا فى تفكيرى ، يقطع مجرى تأملى عاقل يئن تحت أثقل ما يكون من إحن هذه الحياة ومحنها ... ولا يبعد أن يكون فى اضطرار لأن يعرض ثمن مواهبه

من أجل أن يعيش .

أرى شطرا من المجتمع الانسانى يضرم شرر العدواة والبغضاء ، ويعمل لاضمحلال الطائفة الأخرى .

أشاهد فى ناحية معتركا ، وفى جهة أخرى أيدى الخلق الدموية تعبث ، وهم كالوحوش الضارية يمزق بعضهم بعضاً ! . .

أرى كل هذا ، فأنفث الآهات النارية أسفاً وتذمراً .

أهذا ما تقضى به حياة الحواضر والمدن ؟

تمر ألواح الحياة أمام عينى مظهرة لى فجائع مؤلمة ومناظر دموية .

أرى فى كل زاوية حادثة تملأ فؤادى غماً وكدراً ، وأموراً تبعث بى على التذمر من هذه الحياة ! . .

أليست حياة الفطرة ، حياة القناعة والرضا ، أسعد للانسانية مما هى فيه الآن ؟ !

إلى الغـــد

أيها الشَّبَح الملثَّم بلثام الغيب !

هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا ، لنرى لمحةً واحدة من لمحات وجهك . . .

أو لا ، فاقترب منا ، علنا نستطيع أن نستشفّ خيالك من وراء هذا اللثام المسدول ، فقـــد طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكبادُنا وجداً عليك

المنفلوطي

أخبار الوفد السورى

هذا الوفد

حاول السلطان عبد الحميد والمتشائمون من الحياة النيابية أن يتخلصوا من النظام الدستورى .

أنشبوا الفتنة على الدستور فى القسطنطينية يوم ٢٢ ربيع الأول ١٣٢٧ (١٣ ابريل ١٩٠٩) .

زحف جيش الثورة من الولايات العثمانية فى أوروبا الى العاصمة بقيادة محمود شوكت باشا .

كان على رأس الكتيبة الأولى منه عزيز على المصرى .

كان كاتب هذه السطور فى القسطنطينية يومئذ ، وشاهد هذه الأحداث .

سقط عبد الحميد ، واعتقل فى قصر ألاتينى فى سلانيك ، وبويع أخوه السلطان محمد رشاد .

ندبت سورية وفداً من علمائها وأعيانها لتهنئة السلطان الجديد بالحكم الدستورى .

كان من أركان الوفد العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار صنو الشيخ جمال الدين القاسمى .

اختارت جريدة (المقتبس) ألمع شباب النهضة صلاح الدين القاسمى ليمثل الصحافة السورية .

كان صلاح الدين فى فجر شبابه ، فى التاسعة عشرة من عمره .

خطب بين يدى السلطان الجديد فى زيارة الوفد الرسمية للسلطان فأعجب بمواهبه على صغر سنه .

كانت هذه الرحلة التجربة الأولى لصلاح الدين ، وكان مع ذلك كاتم سر جمعية النهضة يومئذ .

كان صلاح الدين يأمل أن يلقى صديقه كاتب هذه السطور فى القسطنطينية ، ولكن الأقدار لم تجمع بينهما فى تلك المناسبة ، ولا بعدها ، إلى اليوم .

كنت فى طريقى من القسطنطينية إلى مصر لتكون وطنى الثانى ووطن أولادى وأحفادى .

كتب صلاح الدين الى (المقتبس) اثنتى عشرة رسالة فى هذه الرحلة ، هى صورة خاطفة لأدبه الغض وهو فى رجولته المبكرة ، كما أنها صورة اجتماعية لمجتمعنا فى ذلك الحين .

فيارعاها الله من أيام ، كان فيها حاضرنا يعيش لمستقبلنا وكان مستقبلنا محجبا عن حاضرنا

م .

الرسالة الأولى *

من بيروت

بيروت (نزل قصر البحر) : السبت ٧ جمادى الآخرة ١٣٢٧ ، ٢٦ أيار ١٩٠٩

سار بنا القطار ظهيرة الأربعاء (٤ جمادى الآخرة) كما تعلمون يُقلُّ وفدنا السوري ، ومضى يخترق الأودية والحدائق ، بين الآكام والآجام والوهاد والنجاد.

ان أول ما يهز أعصاب المسافر متى نأى عن بلاده وإخوانه شعوران متباينان : الوداع ، واللقاء ...

قد يلهو الانسان عن آلام الوداع بما يراه من مظاهر السرور ، بيد أنه متى سكنت نأمته رجع إلى نفسه فاكراً ، ذاكراً .

كانت سماء ذلك اليوم من أيام أيار براقة زرقاء ، فلا سحابة تجول بالأفق فتحول دون نفوذ أشعة الشمس المشرقة ، ولا ضباب يعـــير الـكائنات لوناً رمادياً كثيفاً . . .

ولقد استرعى نظري بعد استعراض الرياض الغناء التي تجري من تحتها الأنهار ، ويلعب في جوانبها النسيم النقي الصافي ، تلك الجبال القاحلة الجرداء والأراضي الواسعة البراح ، التي لو بذلت الهمة في تحسينها على غزارة الماء وجودة التربة والهواء ، لأنبتت من كل زوج بهيج ، ولانهالت على الفلاح المسكين موارد الثراء من كل صوب وأوب ، ولله حافظ إذ يقول :

---

* « المقتبس » العدد ١٦٤

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشى على أرض من الذهب

ومما يجدر ذكره ـ والشيء بالشيء يذكر ـ أن أحد المهرة فى الأعمال الميكانيكية سأل أحد النبهاء من وجهاء مدينتنا « دمشق » ممن كانوا معنا ، عما يحملهم على إهمال الآلات الميكانيكية فى الزراعة كالمحاريث البخارية وما شاكلها ، فأجاب أنه أتى بعدة آلات ولم تجد نفعاً . فما كان من ذلك الرجل إلا أن تقدم قليلا وقال ما معناه : يجب قبل أن نعد المعدات ونأتى بضروب الآلات والأدوات أن نبحث عن عامل ماهر يعرف كيف يدير شؤونها بكل دربة وحنكة ، ليكلل العمل بالنجاح ، وليحسن منها الانتفاع ، على أنه يجب الثبات والاستمرار فى عامة المشاريع .

قطع مجرى الحديث صوت القطار ينذر بدنونا من الزبدانى ، فوقف هنيهة من الزمن خرج فيها القائمقام والقاضى وجم غفير من أهل القضاء لتشييع وفدنا السورى ، وبعد أن أديرت كؤوس المرطبات ودّعنا القوم بما يليق من التجلة والاحترام .

وما زال القطار يسير بنا حتى بلغنا المعلّقة ، ولم نكد نطل من النافذة حتى وقع بصرنا على نفر من علية القوم وفى مقدمتهم قائمقام القضاء ونائبه ، قدموا لاستقبال أركان الوفد الأحرار ، وبعد أن تلا النائب الدعاء لسلطاننا الدستورى وللأمة المحبوبة وضرع إلى الله بأن يرعى الوفد بعين عنايته ، أطيفت كئوس المرطبات وسأل القوم أن يقرئوا سلامهم سلطانهم الدستورى أيضاً ، وأن يقولوا إنهم من أخلص المخلصين للحكومة الدستورية وإنهم متحدون بقلوبهم وأرواحهم . فأظهر عبد الرحمن بك اليوسف ارتياحه لذلك واعداً بأن يعمل جهد المستطاع كل ما فيه صلاح وإصلاح للأمة والوطن .

كانت آخر محطة حططنا فيها رحالنا « عاليه » بهوائها ومائها وجودة تربتها ،

وقد بلغناها الساعة الثالثة عربية ليلاً ، وبعد أن أخذ كل منا مضجعة بات الوفد الكريم ليلتئذ مطمئنا .

ولقد رأيت بأم العين من حكومة الجبل من العناية فى هذه البلدة ما يذهل ، رأيت جلاوزة البلدية يطوفون على الخيول المطهمة فى الطرقات يتعهدون الباعة ، وينظرون فيما اذا كان ثمة ما يخل بالنظام ، وقلت فى نفسى : لو صرف لبلدنا جزء من هذه العناية لكانت دمشق فى مقدمة البلاد عمراناً وجمالا .

وبارح وفدنا الحر عاليه الجمعة ٦ جمادى الآخرة الساعة الثامنة ، وبلغ بيروت فى الساعة التاسعة والنصف حيث كان لفيف من أفاضل المدينة وأدباءها وجمهور جمعية الاتحاد والترقى قد خفوا لاستقباله على المحطة . ومنها ركبوا المركبات وساروا تواً إلى نادى الاتحاد ، وبعد أن ارتاحو قليلا تقدم الشيخ أحمد طبارة صاحب جريدة الاتحاد العثمانى فرحب بالوفد الكريم ، وأيد رأى القائلين من الأحرار بأن أهالى دمشق لن يسعوا وراء مناهضة الحكومة الدستورية ، ثم انبرى بعده جبران أفندى لويس أحد أركان الوفد وألقى بالنيابة عن إخوانه كلمة شاكراً ما لاقوا من البيروتيين من الاحتفاء والاحتفال ، وتمنى لو يؤلف منهم وفد فى القريب العاجل يرافق هذا الوفد ، لأن مدينة مثل بيروت كان أهلها فى مقدمة البلاد السورية اتحاداً ووئاماً ، ومن أشدهم ارتباطاً بالدستور المكين ، ومثل هؤلاء جديرون بأن تجتمع كلمتهم على انتخاب وفد من خيرة الرجال يرافق الوفد السورى . ثم قام بعده الشيخ مصطفى الغلايينى صاحب مجلة النبراس ورحب بالوفد أيضاً وقدم للحاضرين أعضاءه واحداً بعد واحد ، وخص كلاً بما له فى نفسه من المزايا ، ثم قال ما معناه : إن فى دمشق وبيروت شرذمة من أهل الرجعى يجب تطهير البلاد

من جراثيمهم . ثم وقف على الأثر مسلَّم افندى عابدين الدمشقى أحد محررى جريدة (الحقيقة) وذكر للقوم ما بين والي دمشق وبيروت من وجوه الشبه فى حركاتهما وسكناتهما . وبعــــد ذلك اختتم الحفلة حضرة الأستاذ الـكبير الشيخ عبد الرزاق افندى البيطار مظهراً ابتهاجه بمـا لاقاه منهم من كرم الوفادة وحسن المأتى .

هذا وربما غادرنا بيروت الاثنين على باخرة إيطالية . وسنرسل إليـكم رسالة برقية ننبئكم بها عن ذلك . والسلام م؟

الرسالة الثانية [1]

من وراء البحار

أبحرنا من بيروت قبل ظهر الاثنين ٩ جمادى الآخرة ؛ فسارت بنا الباخرة تمخر فى عرض البحر ، وكلما امتدت المسافة فى عرض البحر كانت بيروت بما فيها من التلال والرمال تتضاءل أمام أبصارنا وتتراجع .

ها قد زادت المسافة اتساعاً ، ولم نعد نرى من تلك المدينة غير قطعة صغيرة تتصل بسلاسل من الجبال ، بيننا وبينها عالم كبير من خضم زخار يتنفس الصُّعَداء فيثور بأمواجه وأثباجه ، ويطفو عليه زبد لا يلبث أن يذهب جُفاء .

بهذا الزبد مثلتُ حال الواقفين اليوم فى سبيل الاصلاح عقبة كأداء ، فانه لا بقاء لثورتهم إلا دقائق معدودة لا يلبثون أن يكونوا بعدها نسياً منسياً . وهكذ صح ما قيل فى أمثالهم : لابقاء للباطل إلا فى غفلة الحق عنه .

مضى علينا حين من الدهر نأتْ فيه عن عيني بيروت بأسرها ، وليس أمامى الآن إلا صفحة مجمدة من البحر زرقاء ، تتصل بالأفق ، فترسم دائرة يعلو بعضَ محيطها قطع من السحب البيضاء المتراكم بعضها فوق بعض . . .

ساد على جهاتى كلها السكون ، فليس ثمة ما يحف بى سوى نغمات البحر المتناثر رشاشه ، وأنين الهواء السيالة موجاته ، ووقع أقدام رجل يتمشى غدواً ورواحاً ، وقهقهة أسرة كانت جالسة عن يسارى .

---

(١) المقتبس ١٧٣ يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٢٧ ، ١٠ تموز ١٩٠٩

نأت عن عيني الحقيقة الآن .. لم أعد أرى إلا الخيال ... ولا أتعلل من بلادي إلا بالذكرى . هناك حيث القلوب تخفق ، والعيون تدمع ... وهنا حيث لا أشهد إلا السماء والماء ، ولا ينسيني مرارةَ الفراق إلا حلاوة الذكرى .

دمعة الوداع هي ذوب الحزن ، وابتسامة اللقاء هي روح السرور . ولا شيء أدعى الى شفاء قروح القلب من حرارة قبلات الاصدقاء في ساعتي الوداع واللقاء ! .

هنا اليوم حيث أنظر إلى بلادي وإخوتي من بعيد فلا أرى شيئا ، فأرجع إلى نفسي وقد أخفق مسعاي ، فأودّ لو أسأل الله من عيني ما يفوق أشعة (رونتكن) لأنظر من وراء البحار من أرجو لقاءهم ، وهكذا إذا ضاقت بالانسان الحيل عمد إلى الأوهام مما يظن وقوعه مستحيلاً .

عند ذلك علت روحي في سماء الخيال الزرقاء ، فطفت مع كواكبها المزدهرة أنوارها ... حتى ذهب الأمل المومض بالألم الممضّ ... وأودى بالوداع القديم قرب اللقاء الجديد ، ولكن ما أحلى الذكرى !

غرقت آنئذ في ذكرياتي . . ذكرت دمشق وبيروت : ذكرت من دمشق أهلها وما فطروا عليه من الاستعداد للتقدم لو بذلوا مجهودهم في خدمة المعارف ، وتمحضت الطبقة العالية منهم للسعي في نشر اللغة العربية بين أبناء الأمة جهد الطاقة . وذكرت بيروت بنهضتها العلمية العملية فطفح قلبي حبوراً وسروراً .

زرت في بيروت مدرسة حديثة النشأة لم يمض على تأسيسها ثمانية أشهر ، فرأيتها غاية في البهجة وجودة التعليم ، يديرها شابان هنديان[1] ، متقدان على الاسلام والمسلمين غيرة وحماسة ، اجتمعت بهما فوجدت منهما نفساً كبيرة متشبعة بما لا يكاد يتناهى من الآمال .

---

(١) هما الأستاذان عبد الجبار وعبد الستار ، تخرجا في جامعة بيروت الأمريكية ، وأحبا أن تكون مدرستهما لدعوة الاسلام كالجامعة الأمريكية البروتستانية فيما يريده لها مؤسسوها والمنفقون عليها من الأمريكيين .

وبعد فلا يبعد أن تنمو هذه المدرسة الصغيرة فتخرج منها مدارس كبيرة ، ومديرها ورئيسها ومعلموها من أرقى المتخرجين فى الـكلية الاميركية ، وكل واحد منهما بيده شهادة (ب . ع) ، وإخصائى فى الفلسفة الاجتماعية ، وذو بصيرة فى التاريخ الاسلامى .

وقد أرانى مديرها ورئيسها الفروع التى سيحدثونها : فواحدة للأطفال ، وأخرى للبنات ، وثالثة للطب ، ورابعة للزراعة الخ .

وأريانى أيضاً شارة المدرسة العامة ، فرأيت عَلماً عثمانياً فى وسطه تمثال نخلة كبيرة ـ إشارة إلى الصعود دائماً ، وأن النهضة العلمية الحقيقية انبعثت من جزيرة العرب العرباء . وهم لا يرجون أن تتحقق فى حياتهم كل آمالهم جمعاء ، بل حسبهم ـ كما قال أحد المعلمين ـ أن يدخلوا فى دور التأسيس آملين ممن يأتى بعدهم أن يتم مشروعهم .

دخلت الصف الأول وهو الصف الابتدائى ، وفيه يتعلم التلاميذ مبادىء علم منافع الأعضاء (الفسيولوجيا) والنبات والفلسفة والطبيعة والحساب وما شاكل هذه الدروس عملياً ، فسألتهم ـ كما سألهم الرئيس ، وهو غير المعلم ـ فأجابوا عن أكثر تلك الأسئلة مستعينين بقوة الفهم أكثر من الحفظ ، لقراءتهم عامة الدروس عملياً ، ولغة التعليم فى هذه المدرسة هى اللغة العربية .

ألا وإنى لم أسر فى بيروت بشىء سرورى بهذه المدرسة التى آمل أن تبلغ فى زمن قليل مستوى المدارس الراقية ، لـكن لم ألبث كذلك حتى ابتأست من إهمال الحـكومة مدرسة الصناعات فى دمشق ذات الدوائر الـكثيرة الـكبيرة التى صرفت على بنائها أموال جمة .

هذا وأرجو أن تعنى الحـكومة بها ، لأن كل شىء لا يتعهد بالتربية والتنمية فمصيره إلى البوار والدمار .

الرسالة الثالثة[1]

الليلة الظلماء

« وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر »

دنت الشمس من المغيب ، ومثلت لنا الآن شكل كرة نارية بدأت تنغمس فى البحر رويداً رويداً ، وقد أرسلت منها إلى الشاطىء خطاً ذهبياً . هاهى قد غربت وانمحى ذلك الخط الذهبى ، وارتدى الأفق لباس السواد .

لم يكد القمر يعتلى كبد السماء حتى تكاثفت فوق الأفق سحب حجبت ما كان يتقاطر منه من ذرات النور . اكفهرّت السماء واسودّ البحر ، فكانت تجرى منه كتلٌ كأنها خضبت بمداد أسود .

تغير نوء البحر ، وهبت أعاصيره وعواصفه . لم يعد هناك قمر ولا نور ، بُدّلت السماء غير السماء ... وظهر البحر بمظهر مهيب رهيب .

أنا إن كنت أفكر بشىء فى هذه الساعة السوداء فانما أفكر بمن هم يترقبون ـ الحين بعد الآخر ـ ساعة لقائى ومقدمى ... لست أفكر فى نفسى ولا بحياتى ولا روحى ، إذ سواء لدىّ قُذف الإنسان فى أعماق الأرض أو زُجَّ فى قيعان البحار ، مادام مصيرُ كل شىء إلى الفناء ، إلى الاندثار . يقولون « إن أجمل أنواع الحب ما كان متبادلاً » ، ومعناه أن يشعر من تحب فى قلبه بما يعادل حبك له وزيادة .

---

(١) المقتبس ١٧٣

فإذا أرقت فى حجره ابتسامة عطف نحوك ابتسم لك بفمه وقلبه وروحه وعامة وجوارحه .

هكذا أنا الآن أفكر ، وأنا جالس على سطح الغرفة « القمرة » أفكر بمن يفكرون بى وحدى فقط ... نسيت أو تناسيت كل شىء حتى نفسى وحياتى ... لم أعد أتخيل شيئاً أبداً سوى تلك القلوب الخافقة . . . والعيون الدامعة . مضى علىّ حقبة من الزمن وأنا غارق فى تحليل هذه المسألة وتشريحها . وكأن قوة سماوية أيقظتنى ، لحانت منى التفاتة إلى ما حولى ، فلم أر أحداً ممن كنت رأيتهم فى نهارى ، فوقفت ذاهلاً ، وكانت الساعة دنت من الثالثة ، فلم أر ولم أسمع شيئاً غير ذلك الهدير المتصاعد من أعماق البحر الهائج . ذهبتُ لأنام وآمن فى سربى ، ولكنى لم أكد أخطو خطوة حتى ملتُ ذات اليمين وذات الشمال ، كمن لايزال فى نفسه من الكأس ثمالة ، ومن الخمرة نشوة ، فشددت من عزمى ، ونزلت إلى الغرفة حيث نمت نوماً متقطعاً حتى الصباح .

أفقت فى الصباح على نغمات « كالبيانو » كان يوقع عليه راكب فى جوارنا . ففتحت عينى ، واحتذيت سرموجى ، وكان أول ما سألت عنه : متى نصل إلى الاسكندرية ؟ فقيل لى الساعة السابعة « عربية » ثم صعدت على السلم حيث بلغت سطح الغرفة ، وهناك جلست على كرسى كان ملقى ثمة ، ممتعاً نظرى بمناظر السماء والماء .

كنت بادىء بدء أتلذذ بتلك المناظر الزرقاء ، ولم أكن أحفل بما سيعرونى من الهزات العصبية ، حتى اشتدت بى الحال ، فنزلت تواً إلى فراشى حيث لم أنهض إلا حين بلغنا الاسكندرية .

رست بنا الباخرة الإيطالية على هذه المدينة ، فنزل وفدنا الكريم ودخلناها

الساعة الثامنة ، فذهلنا بفخامة عمرانها وضخامة بنيانها .

طفت شوارعها فى المساء فزادت فى عينى رواء وبهاء ، وتجلت لى بكل ما فيها من الغضارة والنضارة . أكثر مما كنت أسمع عنها ، ثم قلت فى نفسى : « ليس الخبر كالخبر » وما راء كمن سمعا .

بتنا تلك الليلة بسلام ، على أمل أن نبحر غدا (الجمعة) على باخرة رومانية إلى الاستانة .

(كتبت فى الاسكندرية)



الرسالة الرابعة [1]

ذكرى المقتبس

ـ قبل عام ـ

قبل عام ، وفى مثل هذه الأيام ، كان « المقتبس » يصدر على ضفاف النيل أيام كانت هذه المدينة « القاهرة » مهجر السوريين الثانى ، وكانت كعبة القصاد لطلاب الحرية ودعاة الاصلاح . واليوم يصدر على ضفاف بَرَدَى حيث قدَّر الله ذلك فكان .

كانت الرجال عندما تضيق بها أخلاقها تشرد من بلادها مفضلة الآفاق الأخرى على مايمثله الدهر فى رياضها الاريضة من الظلال الوارفة ، وتزحف من كل صوب وأوب الى هذه المدينة ، القاهرة ، حيث نجد سماء صافيا أديمها ، وأرضا كريمة راوية تربتها ، فتظهر ماتشاء وكيف تشاء من خير القول والعمل .

وبعد فلم تكن هذه المدينة تضيق بالسوريين ، بل كانت ترحب بلقياهم وتبسم لمرآهم ، ولكن بعض أهلها ممن ألفوا الأثرة ولعلهم من أصول أعجمية ، كانوا يقولون عنهم انهم الدخلاء ، ويصمونهم بكل ما يشين .

وماذا تضرهم قالة القوالين اذا كان دأبهم الهمة والجد ومقاومة كل عمل صعب بالمزاولة والمحاولة ، أو ينفعهم إطراء المطرين إذا استناموا للخمول والجمود فى حركاتهم

---

(١) المقتبس ١٧٤ : يوم الأحد فى ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٢٧ ، ١١ تموز ١٩٠٩

وسكنتاهم . وحسبهم ما قال عنهم ذلك الأميركى : « ما وطئت قدمى أرضاً الا رأيت السوريين قد سبقونى اليها » .

ألا وإن الامة ليست كلها من طينة واحدة ، بل قد خلقت من طبقات مختلفة ، ولهذا كان من أهل هذه المدينة من يقدرون عمل السورى حق قدره ، وهذا شاعر النيل حافظ يقول :

وقالوا : دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى
رآنا نياماً ولما نفق فشمر للسعى والمكسب
وما ذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب

رجعت ببصرى الى دمشق وما كانت عليه قبل عام فى مثل هـذه الأيام ، واستعرضت صحائف تاريخها المطوية أيام كان الحر فى أرضها يلقى عذاب الهون ويقع على رأسه الويل والثبور إذا هو فتح فاه ليقول كلمـة نافعة رغبة منه فى خدمة الأمة والوطن ، فقلت فى نفسى : سبحان محوِّل الأحوال .

أكنتُ أتوقع أن أرى « المقتبس » فى غير هذه المدينة فى غير هذا الوقت ؟ ولـكن سرعان ما أدال الله من تلك الدولة فزلزلت عروش الاستبداد زلزالها ، وكتب الـكاتبون بمداد ذهبى آيات الحرية وأعمالها ...

فى هذه المدينة حيث أتمثل حملة الأقلام ليسوا دون أبطال الحسام ، وأرى تلالا متراكمة من شهداء الوطنية ، يضارعون فى ساحة الوغى شهداء الحرية . . .

البذرة الحية تنبت فى الأرض الصالحة فتورق وتزهر وتثمر ، هكذا لا يذهب أكلها سدى ـ كذلك كان يهاجر بعض دعاة الاصلاح الى هذه المدينة فيغرسون البذرة . وكان يستفيد بها أبناء سورية من بعيد ...

ناموس عام فى هذه الـكائنات « إن كل قوة لايمـكن أن تذهب ضياعاً » كذلك رجال العلم والمجاهدون فى سبيل الاصلاح يدخر الشرق العربى أعمالهم

الى حين ، ولا يذكر الرجل إلا بعلمه ونتاج عمله .

لقد اعتدنا نحن معاشر المشارقة أن نبخس ناسنا أشياءهم ، ولو كان الواحد منا الى الموت أقرب منه إلى الحياة أدبياً ومادياً ، عادة شببنا عليها فشبنا ، وتأصلت فى نفوسنا فجرت مجرى الدم من اللحم .

ولقد عوّدنا الدور البائد فى ذلك المحيط الأسود أن نمجد القديم المزيّف الذى أخنى عليه الدهر وجعله قطعاً بالية ، ونقبح القديم الأصيل والجديد الناضج ولو كان فيهما كل خير . ولو أننا كنا — كما يجب أن نكون — أمة وسطا ، فأنشأنا نضم إلى قديمنا الأصيل الأمور المعقولة من الحديث النافع لأزهرت نبتة الاصلاح فى نفوسنا وأثمرت ، ولكن مهما يكن الأمر فالمعاصرة — كما يقولون — حرمان ، ويرحم الله القائل :

قل لمن لم ير المعاصرَ شيئاً ويرى للأوائل التقديما
إن هذا القديم كان حديثاً وسيغدو هذا الحديث قديماً

(كتبت فى القاهرة)

الرسالة الخامسة(1)

الوفد فى العاصمة

ساعة اللقاء

فى سماء يوم صافية سماؤه ، كان ركاب الباخرة واقفين وكلهم أبصار تحدق نحو ربوات عالية تطل على البسفور ومرمرة ، وقد علتها مبانٍ ضخمة فخمة ذات قصور زاهرة مختلفة الألوان : من بيضاء إلى صفراء ، يحيط بها من المناظر الطبيعية ما أكسبها وضعاً شاعرياً سماوياً ...

نعم ، إلى مدينة القسطنطينية ذات الجلال والجمال ، وبعض متنزّهاتها مهبط إلهام الشاعر كانوا ينظرون ، وعلى وجوههم نضرة النعيم . وكان بعضهم يشير بالأنامل ، والآخر يرقب بالمجهر ما يتراءى له من الأماكن المشهورة من بعيد . وقد كانت تعزيتهم الوحيدة عن آلام البعد عن بلادهم وإخوانهم فى تلك الدقيقة قربهم مما يقصدون .

فيالله ، كم يسكن القرب من غليان ما يطغى على القلوب الحساسة مريضة الحب من شعور البعد ، حيث لا يقوى على ردّ هجماته إلا حرارة اللقاء !

فى تلك الساعة نشرت أمامى أعمق صفحة دموية مطوية من تاريخ هذه المدينة القديم ، وأنشأت أقارن بين الماضى والحاضر ، مقلباً تلك الصفحات السوداء

---

(1) المقتبس ١٧٩ ، السبت ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٢٧ ، ١٧ تموز ١٩٠٩

والزرقاء معاً ، فمرت بي خلجة عبرة ، وكنت كمن يريد أن يلاشي ابتسامة السرور بدمعة الحزن ، كما تصوّح زهرة البنفسج الغضة الطرية فتطوحها أعاصير الأنواء .

كان القادم إلى هذه المدينة قبل عام يلهو عن البوسفور وجناته وحواريه ، عن تلك الغابات التي تُكِنُّ في صدرها أدق الاسرار ، وعن الشمس التي كانت قطراتها تتحف حين الطلوع تربة هذا المحيط بأصفى وأرق القُبُلات ، وعما يحمل النسيم المتهادي من ذرات الأزهار العطرية ، وعما ينشر تحت ظل المساء الممدود من النغمات الأثيرية الشفافة — كان يلهو عن مثال الشعر والجمال في هذه الطبيعة حين كانت تخطر بباله أثناء دخوله هذه العاصمة فجائع باستيل الاستبداد (يلدز) وما كان يبث طاغيته في عامة الانحاء من العيون والارصاد ممن كانوا يضاهون في أعمالهم مهرة اللصوص ، بل كانوا أشد منهم فظاعة وجرماً ، إذ كانوا يباغتون كل آمن في سربه فيسرقون الافكار والاموال والنفوس والأعراض جميعاً ، بينما اللصوص لا يمدون أيديهم إلا إلى المال وحسبُ ، وربما كانوا يُقْدمون على اللصوصية بنابل الحاجة ، وقد يكون لهم من بقايا ضمائرهم مؤنب يسلبهم قرارهم ويجافي جنوبهم عن مضاجعهم .

كانت ترتعد فرائص القادم إلى هذه الديار هلعاً وجزعاً ، حتى كثيراً ما وقع الأخ في ريب من أخيه والأبن من أبيه وصاحبه وبنيه ، وربما توهم أن في ذكر الباستيل المشئوم خطراً يتهدد حياته فيظل العمر كله خائفاً واجماً لئلا يذهب طعمة للأسماك ، أو يقذف به في إحدى الزوايا المجهولة من البلاد النائية ، وهناك يموت موتاً بطيئاً . . .

أما وإن الجرثومة التي كان يعلق بها الرجعيون تلك الخيوط الدقيقة البالية من سراب آمالهم قد قطعت وأبيدت ، ولم يعد للمركز صلة بالمحيط ، فان القادم اليوم إلى القسطنطينية ليطفح قلبه سروراً ، وكذلك جرى معنا .

رست بنا الباخرة بعد برهة إزاء أخرى رأينا فيها مبعوثى العرب ونفراً ليس بقليل من الأفاضل والضباط خرجوا لاستقبال وفدنا . وبعد أن تلاقينا بهم وتبادلنا التحية والمصافحة معاً نزلنا جميعاً فى أشهر نزل فى العاصمة يدعى (پرا پالاس) ، حيث أقبلت وفود المهنئين زَرافات ووحدانا تقدم لوفدنا عبارات التهانى ببلوغه العاصمة سالماً .

واستأذن أثناء ذلك الوفد من القوم إذ أبلغوهم أنهم يقصدون زيارة الباب العالى ، وهكذا ركبوا العجلات وقابلوا الصدر الأعظم حسين حلمى باشا وناظر الداخلية فريد باشا ، وجرى البحث بأن يتريثوا قليلاً ريثما يؤذن لهم بالمثول بين يدى سلطاننا المحبوب ، ثم عادوا وعاد المهنئون من كل حدب ينسلون .

وبعد فأول ما مرّ بخاطرى حين وطئت قدمى أرض هذه المدينة من المعاهد التى أنا مصمم على رؤيتها قصر النجم (ييلدز) ، واليوم الذى أردت أن أذهب فيه إليه كان معداً للنساء فقط ، وموعدنا البريد القادم .

(كتبت فى القسطنطينية)

الرسالة السادسة(1)

الوفد فى العاصمة

حظوته بالمثول

مساء السبت : بكقوز (من ضواحى البسفور) ٢٥ جمادى الآخرة عام ١٣٢٧ .

فى الساعة السادسة من هذا اليوم كنا وبعض مبعوثى سورية ننتظر ورود الإذن بفارغ الصبر لنحظى بالمثول بين يدى سلطاننا المحبوب ، حتى إذا علمنا بصدوره ركبنا العربات قاصدين سراى (ضولمه باغجه) التى كانت من قبل للسلطان عبد العزيز ، وهى الآن مقر للسلطان الجديد .

وقفت العربات بعد مدة أمام باب السراى ، فدخلنا منه بادىء بدء على حظيرة فسيحة أحاطت عامة جدرانها بأشجار خضراء باسقة ، ثم منها إلى طريق منضّدة بالحصباء ، أوصلتنا إلى حديقة غناء مملوءة بضروب الأزهار الجميلة ، فمن أبيض ناصع إلى أزرق لازوردى ، ومن أصفر فاقع إلى أحمر قان ، كلها تشكل مجموعة من الألوان تمثل ـ بما لها من اللطف والجمال ـ أقواساً قزحية زاهية ألوانها .

كنا ساعتئذ نسير وقد غلب علينا السكوت ، فلا حركة تنتشر فى الهواء غير ما يسمع من وقع أقدامنا على الحصباء . أما أنا فكنت أنظر إلى تلك الحدائق الشعرية ذات اليمين وذات الشمال ، دون أن يخامر قلبى بأننا سنقابل الآن سلطاناً دستورياً أعتقد كل الاعتقاد أنه ناظر إلى عامة أفراد رعاياه نظر

---

(1) المقتبس ١٨٥ ، الجمعة ٦ رجب ١٣٢٧ و ٢٣ تموز ١٩٠٩

الأب الشفوق ، الى أبنائه الأفذاذ ، بل أشد من ذلك رحمة وحناناً ..

تمثلتُ آنئذ حال من كان يقابل السلطان المخلوع ، وماذا كان يعروه من الخوف ، وماذا كان يعدّ ذلك الطاغية من معدات الأبهة ، وكيف كان يظهر العظمة والوقار وضروب الدبدبة والطنطنة ليخدع بها العقول والأبصار ، وليملأ نفوس رعيته رعباً . تمثلتُ ذلك الحال وحالنا الآن ، وما يحف بنا من السرور ، فكنا نرى بهذه الكائنات من الابتسامات الأثيرية ما يشف عن سذاجة الطبيعة فى مثل تلك الساعة ، حتى أخذ العجب منى مكاناً قصياً ، وكنت أقول لنفسى : من الجاهل نعرف قيمة العالم ، ومن صاحب الفضيلة نقع على حقيقة المنغمس فى الرذيلة ، وهكذا بضدها تتميز الأشياء .

وما زلنا نوالى السير بين تلك الحدائق حتى صادم أنظارنا بناء شامخ ، أمامه سلم صغير مصنوع من المرمر الناصع ، فصعدنا عليه ، وإذا ببعثة من موظفى القصر لاقتنا بكل ترحاب ، ودخلنا قاعة فسيحة نرتاح فيها قليلا ، إذ أخذ كل منا يتصبب عرقاً فى حر تموز القائظ .

ولم يكد يستقر بنا المجلس ، حتى قدم أديب الترك الكبير خالد ضيا بك رئيس كتاب المابين ، فأظهر لنا من الحفاوة ما لا يستغرب أن يظهر مثله من رجل بمنزلته ، وبعد أن اعتذر عن عدم انتظام أثاث السراى ورياشه كما يجب معللا ذلك بأن ضولمه بغجه ظلت ثلاثا وثلاثين سنة مهملة وعناكب الاستبداد تنسج فى زواياها بيوتاً ، قال ما معناه : يقال إنهم وجدوا فى بيلدز نحواً من مائتى صندوق مملوءة بالتقريرات . فقال أحد أركان الوفد : ياعجباً كم ذا ينكشف فيها من الحقائق ؟ فأجاب خالد ضيا بك قائلا : كلا ، بل كلها بأجمعها ليست سوى أكاذيب وأباطيل .

بمثل هذه الدرر كان خالد ضيا بك يحلى جيد المجلس ، وبنفثاته السحرية

كان يتلاعب بالنفوس والأرواح ، وسرعان ما كانت المدة قصيرة حتى قيل له : يجب أن يكتب أسماء من يروءون المثول بين يدى الحضرة السلطانية ، فكتبنا بطاقة بأسماء الوفد ومن رافقنا من مبعوثى سورية ، وكنت فى جملة من كتبت أسماؤهم ممثلا لصحيفة المقتبس .

لم يمض على تقديم البطاقة إلا قليل حتى قدم إلينا توفيق بك القرين الثانى لحضرة السلطان وقال لنا بالتركية « تفضلوا » ثم مشى أمامنا وتبعناه ، حتى وصلنا إلى سلم آخر فخم عال ، فصعدناه ، حتى إذا ما انتهينا إلى قاعة ومنها إلى بهو كبير ، رأينا السلطان إذ ذاك قد وقف لنا وتقدم « محمد أفندى العجلانى » مبعوث دمشق وقدم كلاً منا على حدته .

ولقد عجب جلالته من جهة وسر من جهة أخرى لما قيل له بأنى أحد محررى « المقتبس » ، وقد سأل أحد أركان الوفد عن سنى التى أنا بالغها ، فقال : فى التاسعة عشرة من عمره تقريباً ، فقال فى التاسعة عشرة ، ومحرر ؟ .. ثم أخذ يهز رأسه ويبتسم تارة ويأخذ وضع الاستغراب مرة أخرى .

وبعد ذلك التفت جلالته الى أركان الوفد وقال ما معناه : « لقد أتى على هذه المدينة أيام وليال وقع فى خلالها برودة(١) بين العرب والترك ، ولكن لم ينجم عن ذلك والحمد لله شىء ، وما هو إلا كلمح البصر حتى امحت آثاره من صفحات الوجود . ومن المحقق أنه لا يمكن أن ينالنـــــا سوء مادمنا مرتبطين بدين واحد .

لقد ثلجت بكلامه هذا الصدور ، وانفسح للحاضرين المجال . . .

فقام عبد الرحمن بك اليوسف وقال ما ملخصه « إننا موفدون بالنيابة عن أهالى دمشق لنرفع لمقامكم فروض التبريك والتهانى بجلوسكم على العرش السلطانى ،

---

(١) أى سوء تفاهم

وقائلين : إن أهالى دمشق هم يضحون فى سبيل الحرية والدستور بأرواحهم وأموالهم ، وهم ينتظرون من جلالتكم القدوم إلى مدينتهم التاريخية » .

ثم قام بعده جبران أفندى لويس وافتتح كلامه بقوله : « سلطانى » . وأورد كلاماً يقرب مما قاله عبد الرحمن بك اليوسف . ثم جلس فنهضتُ أنا على أثره قائما ، ولم أكد أبدأ فى الكلام حتى أشار إلىّ السلطان بالدنو منه فدنوت وقلت بالتركية ما معناه « إننى من محررى جريدة المقتبس التى تصدر فى حاضرة الشام ، وقد جئت مع هذا الوفد الكريم لأتشرّف بأن أقدم لعظمتكم فروض التبريك والتهانى باسم (المقتبس) . فقال جلالته ما معناه : إنى مرتاح جداً لهذه التبريكات والتهانى . ثم قام الأستاذ العلامة الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فوقف الوفد ووقف معنا جلالته ، ورفعنا الأكف ، وتلا الأستاذ دعاءً مؤثراً بحفظ الحضرة السلطانية من عوادى الحدثان ، وأن يحفظ النظام الدستورى من عبث العابثين .

ثم جلسنا قليلا ، فقام كل منا وحياه بقلبه ويده وروحه ، ثم نزلنا وأمامنا رئيس الكتاب والقرين الثانى ، حتى وصلنا إلى القاعة الأولى حيث أبلغنا خالد ضياء بك بأنه صدرت الارادة السنية بأن نزور الخزينة الخاصة وغيرها من المعاهد .

وهكذا انصرفنا وكل واحد منا يحمد الله على أن قيض لهذه الأمة أباً شفوقاً يحنو عليها حنوّ المرضعات على الفطيم ، ويسأله أن يوطد دعائم الأنظمة الدستورية على قواعد العدل والاخاء والمساواة . . .

خرجنا وركبنا العربات تواً حتى وصلنا إلى مجلس الأمة ، وهناك صعدنا سلماً

إلى مقصورة من المقاصير الخاصة المعدة للسفراء وغيرهم من الوجهاء ، وكان الكاتب يقرأ إذ ذاك مواد نظام الجندية ويصدقون عليها مادة مادة بعد احتدام الجدال والمناظرة .

وأشكلت على بعض النواب مادة من بيانات الصدر الأعظم حسين حلمى باشا ، فطلبوا منه أن يشرحها ، فقام وهو فى مكانه ، فأشار إليه أحمد رضا بك رئيس المجلس يريده على الوقوف على كرسى الخطابة ، فترك الصدر الأعظم مكانه ووقف على ذلك الكرسى وقال « اننى أباهى بأن أقف فى مكان يقف فيه الأفراد الخ » .

سنزور المجلس زيارة أخرى ممتعة إن شاء الله ، ونكتب عنه بكل إسهاب .

الرسالة السابعة [1]

مقابلة مندوبنا الخاص لمحمود شوكت باشا

لمحرري الجرائد ومراسليها ثلاثة أيام من كل اسبوع ـ الأحد والثلاثاء والخميس ـ يقابلون فيها محمود شوكت باشا قائد جيش الحركة ومفتش الفيلق الأول والثاني والثالث ، من الساعة الواحدة إلى الرابعة .

ركبتُ صباح الثلاثاء عربة إلى نظارة الداخلية حيث يقيم القائد فى قصر خاص يرى فيه عامة ما يتعلق بوظيفته من الأعمال والأشغال .

وقفت العربة أمام هذا القصر الجميل الذى يخفق عليه العلم العثمانى ، والمطل على ساحة فسيحة من النظارة . فنزلتُ وكانت الساعة الثانية ، فصعدت على سلم قصير حتى بلغت أعلاه فرأيت جنديا واقفاً على الباب ، فسألته عما إذا كان الباشا هنا أم لا ؟ فأشار على بالدخول من الباب ، ففتحته ، ثم دخلت فرأيت غرفة يجلس فيها أحد أتباعه ، فقام وسألنى عما إذا كان ثمة من حاجة لى ، فناولته بطاقة ، فدخل إلى قاعة كبيرة ثم خرج وقال : ادخل ، فدخلت ، فرأيت رجلا طلق المحيا تلمع على ناصيته أشعة الدهاء ، جالساً فى صدر القاعة أمام منضدة عليها أوراق ودفاتر . فحييته ، فرحب بى جداً ، وأشار إلىّ بالجلوس على أريكة كانت بجانبه الأيمن ، وكان جالساً بجانبه الأيسر خورشيد باشا رئيس ديوان الحرب العرفى الأول فى العاصمة .

---

(١) المقتبس ١٩١ : يوم السبت ١٤ رجب ١٣٢٧ ، ٣١ تموز ١٩٠٩

ولم يكد يستقر بى المجلس حتى ابتدرتُ قائلا :

ـ لقد جئتُ مع الوفد الذى حظى بالمثول لدى جلالة السلطان المحبوب ، وتشرفت أنا أيضاً معه بالمثول ، وقدمت له باسم جريدة « المقتبس » التبريكات الخاصة . وها أنذا آت إليكم الآن لأظهر لدولتكم بعض ما يخالج ضمائرنا من شعور المحبة والاحترام . (فأجاب دولته) :

ـ إننى أنست بكم جداً ، فهل مضى على قدومكم العاصمة زمن كبير ؟

ـ مضى علىّ نحو أسبوعين فقط .

ـ كيف رأيتم العاصمة ، هل هى كما كنتم تتصورون أم لا ؟

ـ هى كما كنت أتصورها وزيادة .

ـ هل ذهبتم إلى أوربا ؟

ـ كلا لم أذهب ؟

ـ لو ذهبتم إلى البلاد الأوروبية لوجدتم البون الشاسع ، وبعده فكيف دمشق وأهلها ؟

ـ إن أهالى دمشق هم ممن يحبون الحكومة الدستورية حباً جماً ، اللهم إلا النزر اليسير ممن لوثوا اسمها فقاموا مسوقين وراء منافعهم الذاتية بما لا ينطبق على عقل ولا دين .

ـ أنا أعلم بأن أهالى دمشق مرتبطون بالحكومة الدستورية ويقدرون فوائدها حق قدرها ، ولكن نفراً ممن كان يرعاهم عزت باشا وأبو الهدى بعين الرعاية فكان هذان الاثنان يمطران عليهم الأوسمة البراقة والرتب المطنطنة تارة ، ويؤهلونهم لأعظم الوظائف فى الحكومة مرة أخرى ـ هؤلاء لما علموا أن الحكومة ستقضى على مراكزهم وتكون عليهم ضربة قاصمة ، ورأو أنهم آيلون

الى الهبوط ، بعد أن كانوا يخطون خطوات كبيرة فى سبيل التقدم فى تلك الحكومة البائدة . قاموا يناهضونها ، ولكنهم سرعان ما رجعوا على أعقابهم خاسئين خاسرين .

هنا سألني خوشيد باشا عما إذا كانت الجمعيات التى يؤلفها عزت أفندى فى أوروبا ، والنشرات الصادرة عنها تؤثر فى أفكار أهل دمشق ؟

فالتفت اليه آنئذ وقلت :

ـ لم نر نشرات وردت من قبل عزت ، على أنه لو ورد شيء من هذا فانها لا تؤثر فى أفكار أحد إلا طائفة السذج والبسطاء من العوام ممن يوجدون فى كل أمة ونحلة ، فانهم ليس عندهم من قوة المعارضة وحدة النظر ما يفرقون به بين الخبيث والطيب والغث والسمين . بل إنهم يتابعون هؤلاء لما ينفخون فى نفوسهم من روح الارتجاع

فأجاب شوكت باشا :

ـ العوام عندنا فى ميلهم إلى هؤلاء أشبه بمن يميلون فى أوروبا لحزب السوسيالست (الاشتراكيين) فانك بينا تراهم يعاضدون هذا الحزب إذا هم يميلون فى الغد إلى الحزب الآخر .

ـ نعم إن فى دمشق فئة ممن ذكرت لكم نتفاً قليلة عن أحوالهم ، فهؤلاء هم الذين يقومون من حين إلى آخر يريدون بث روح التقهقر ، فيظن أن القائمين هم أهالى دمشق بأسرهم .

(وهنا أخذت محمود شوكت باشا الحماسة ، وأجاب بنزوة الجندية وقال) :

ـ لا يستطيعون أن يقوموا بعد الآن . وإذا قاموا بأدنى حركة فان المشنقة موجودة ، والادارة العرفية تعمل عملها . وإن فى شنق جركس محمد باشا

(قبا صقال) وغيره عبرة ، ونحن بعد أن نتحقق الحركات نعلنها دون أن نهاب شيئاً .

(فالتفت خورشيد باشا إليّ وقال) :

ـ وإذا دعت الحال لأن تعلن الادارة العرفية فى دمشق فلا مانع يمنعها من ذلك .

(ثم سألت شوكت باشا) :

ـ هل تدوم مدة الإدارة العرفية ، ومتى تنقضى ؟

ـ ستدوم وليس لدوامها انقضاء فى وقت معين .

ـ هل يمكن أن أسألكم عن فتنة كريت واليمن ؟

فأجاب قائلا :

ـ إنى عسكرى ، وليس من شأنى الدخول فى هذه الموضوعات .

« كتبت فى الاستانة »

الرسالة الثامنة [1]

قصر النجم
أو
يلدز

موقعه الطبيعي :

على أكمة عالية من غربي القسطنطينية ترى إذا أرسلت نظراتك من باخرة ماخرة في البوسفور الى ساحل الروملي - بين (بشكطاش) و (أورته كوي) - قصوراً بيضاء محاطة بغابات كثيفة خضراء ، تهديها الشمس في الصباح ابتسامة من أشعتها الذهبية ، ثم تريق على تربتها في المساء آخر قطرة من قطرات الوداع .

ألا وإن الناظر اليها من بعيد لا يدرك لأول وهلة مكانتها العالية من حيث الموقع والبناء ، وما يضمه صدرها من الخزائن الطبيعية والصناعية ، بيد أن من يجول في طرقاتها الرحبة ، ويجلس تحت ظلال أشجارها الوارفة ، ويتغلغل في أحشاء غاباتها ويرى ما تحويه بناياتها الضخمة ، يتبين له أنه في مدينة صغيرة أنشئت على أحسن وضع من حيث العمران والاتقان .

إن ثماني ساعات على الولاء لتصرف في سبيل مشاهدتها ، ولا يوفيها هذا

---

(١) المقتبس ١٩٧ ، يوم السبت ٢٠ رجب ١٣٢٧ ، ٦ آب ١٩٠٩

الوقت الطويل حقهامن النظر .

وهى تنقسم إلى قسمين خارجى وداخلى :

١ — القسم الخارجى :

يبتدىء هذا القسم من طريق طوله (٥٠٠) متر تقريبا . ولا تكاد تقطع هذه المسافة حتى يصادم نظرك عدة بنايات عالية : فواحدة للسفراء ، وبأزائها أخرى لمن كان ينزل ضيفا كريماً (!) على السلطان المخلوع . وثالثة للمابين ، ورابعة بناية لها قصر ذو ثلاث نوافذ كان السلطان المخلوع يطل من إحداها ويحيي الأمة تحية كانت فى ظاهرها الرحمة وفى باطنها العذاب .

ولقد اغتصب السلطان المخلوع عامة ما يحيط بهذه الطريق من الأراضى الواسعة الشاسعة ، فلم يكن أحد يستطيع أن يشيد على مقربة منها داراً ، لعلمه أن الجواسيس كانت منتشرة فى أطرافها انتشار الجراد .

تدخل من باب هذا القسم وتسير خطوات غير بعيدة فترى أمامك من الحدائق الشعرية ما يذهل الناظرين .

رأينا فى هذا القسم لـكل من الحيوانات ـ كالحمام والحجل والهرر والدجاج والنعام والغزلان الخ ـ حدائق خاصة ، وللنباتات كذلك ، وقد أعدت لها عامة الذرائع الحيوية لتعيش تحت ظل ذلك الطاغية عيشة رضية هنية (!)

ولقد بلغت العناية بالنباتات ، مما لا يعيش إلا فى الأقاليم الحارة ، كالنخل والموز والـكاملـيـــا ، مبلغاً كان سبباً لأن تعيش فى مثل هذه الأقاليم ، وذلك بواسطة حجرات بلورية جعلت تحتها مدافىء كبيرة توقد فيها النيران ـ على قدر اللزوم ـ متى خيف من ريح سموم تصوّح زهرة حياتها .

وإنك لترى فى أرضها من الحدائق والبحيرات ما رسم على هيئة نجمة ، وقد رصفت على طرقاتها مصابيح غاية فى الابداع ، وفى حراجها وأنهارها من المناظر الطبيعية ما يخيّل للناظر أنه فى أحد مصايف لبنان .

والشطر الأكبر من قصورها الباذخة موصد فى الوقت الحاضر ، ومنها ما هو مختوم بالشمع الأحمر ، والنزر القليل منها مفتحة أبوابه للزائرين ، فمنها قصر (شاله) و (مراسم) و (قصر الزهر) و (مالطه) و (جهانما) و (جيت) و (تعليمخانه) وغير ذلك ، حتى أن فيها أيضاً معملا خاصاً تصنع فيه صحاف تماثل المصنوعات الصينية .

نذكر من هذه القصور الأخير (تعليمخانه) الذى كان يتعلم فيه السلطان فن الرماية ، وهو مؤلف من عدة غرف كبرى .

دخلنا إحدى غرفه فوجدنا آلة للرسائل البرقيـــــة (تلغراف) ، ومسرّة (تليفون[1]) .

وقد رأينا على جدران غرفة أخرى أقفاصاً بلورية بعضها ملىء بالبنادق ، وأخرى بالمسدسات والسيوف والجنبيات والخناجر .

ولهذه الغرفة بابان غير الذى دخلنا منه ، تفتحهما فيقع نظرك على ساحة فسيحة كان السلطان يتعلم فيها هذا العلم مقرونا بالعمل ، ومما رأينا فيها بندقية انـكليزية ترمى فى الدقيقة الواحدة خمسين رصاصة ، وكذلك آلة تامة لعمل الخرطوش ، وقد رأيت الآلات ملقاة على المنضدات وبينها موازين تماثل فى الدقة موازين الـكيماويين فى الصيدليات .

---

(١) وكانت عاصمة آل عثمان وسائر بلاد الدولة محرومة إلى ذلك الحين من إباحة التليفون للناس .

٢ — القسم الداخلى :

هذا القسم كان خاصاً بحرم السلطان ومن يلتف حول عرشه من الأوانس من ملائكة وحور[١] ، وهو أعظم من القسم الخارجى بهاءاً ورواء ، بما يتجلى فى ربوعه من الرفارف والزخارف .

لم يفتح فى وجوه الزائرين من هذا القسم إلا جهة واحدة ، تدخل اليها فترى بادىء بدء بحيرة وفى وسطها جزيرة صناعية فيها من أنواع الزهور والفواكه ما يلذ ويطيب .

تجول فى أطرافها فتجد هناك دُوراً خاصة للحيوانات كما فى القسم الخارجى ، وأقفاصاً بلورية صغرى وكبرى ، يمثل بعضها منظر بحيرة يرى قاعها وقد ملئت بأنواع الأسماك السابحة والطافية .

ويحد أطراف الحدائق درابزون تراه من بعيد على هيئة أغصان الشجر اليابس ، وما هو إذا قدمت اليه وجسسته بيدك إلا من حجر وحديد .

وآنا ترى هيئة مغارة تحكى ينبوعا قد جرى الماء من فوقها ومن تحتها ، وكراسى قد نحتت من صم الصخر .

لم أر فيما رأيت من الدور المعدة للحيوانات أكبر من دار فى قصر يلدز معدة لأنواع الطيور ، خصوصاً للحمام ، مما يدل على أن السلطان المخلوع كان بهذا النوع مغرى ومغرما .

وقد أحاط بهذا القسم سور كان منيعاً إلا على رجال الجيش ، فإنهم تقحموه يوم القبض على الطاغية ولم يكن فى جنب قضبهم ودربتهم شيئاً مذكوراً .

---

(١) انظر لدخائل نساء القصور كتاب (قادينلر سلطنتى) لأحمد رفيق بك .

تحت ظلال الأشجار في إحدى حدائق يلدز ، وقد أخذ الأفق يسيل تبراً ،
جلست أتأمل في هذا المكان الذي كان مقر الملك فتخضع له رقاب الأمة من قاصٍ ومن دان ...

هذا المكان الذي كان مهيباً عظيما في نظر الأمة فلا يستطيع أحد أن يرميه بنظرة ، أصبح اليوم في نظرها بسيطاً عادياً ، فيه من أنواع المطاعم والقهاوى مايماثل أحد المتنزهات .

أمامي الآن نهر يتموج من تهادى النسيم ، تسبح على صفحاته زوارق بعضها بسيط والآخر يسير على سطح الماء بالدراجة ، كان في أيام طغيان ذلك السلطان وجبروته مسرحا للغانيات :

المترعات من النعيم الراويات من السرور

يمشي فيه كل رجل الآن آمنا مطمئناً ، وكلما رأى هذه الظواهر والمظاهر يمر بخاطره ذلك الطاغية فيوصله إلى أعلى الدرجات تارة ، وينزل به إلى أحط الدركات تارة أخرى .

« كتبت في القسطنطينية »

الرسالة التاسعة[1]

من وراء البحار

الليلة القمراء

ـ الباخرة الخديوية ، مساء الثلاثاء الساعة الثانية ، ١٣ جمادى الآخرة عام ١٣٢٧ ـ

بارحنا القسطنطينية الساعة الحادية عشرة من مساء هذا اليوم ، وقد كان الوداع مؤثراً جداً اهتزت له أعصاب القوم وخفقت قلوبهم بين جنوبهم خفوق مناديلهم المرفوعة إلى العلاء فى الهواء .

وقد كانت تأتى الوفود من مبعوثى العرب والأصدقاء والاخوان وغيرهم من ذوى المقامات لتشييعنا مثنى وثلاث ورباع .

ثم لم تـكد تغرب القسطنطينية وضواحيها عن أبصارنا حتى دنت الشمس من المغيب وكلما أخذ قرصها فى الانحطاط تبدأ هالة القمر فى الارتفاع . آنئذ جلست على كرسى كان ملقى ثمة ، لأشهد صورة الحيـــــاة والموت . منظر الطلوع والغروب . . .

غربت الشمس وأخذت أشعة القمر تلاشى ستار السماء الأسمر ، وبدأت الآفاق تفيض على الـكائنات شلالات من النور أغرق طوفانه من فى هذا الشطر من الأرض من عالم الحيوان والنبات والجماد .

---

(١) المقتبس ٢٠٠ ، الثلاثاء ٢٤ رجب ١٣٢٧ ، ٩ آب ١٩٠٩

ها هى الـكائنات غارقة الآن فى بحر من ضياء ونور ... كلها ذوب فضة وذهب . تلاشت تلك الظلمات بأسرها ، ولم يبق هنا وهناك إلا بعض ظلال متموجة سوداء ، وقد رسب السكون فى أعماق هذا الليل ، وكل ما فى الوجود غارق فى سبات عميق ، فليس يحفز أرواح النيام غير مايسيل من نغمات الموسيقى المتطايرة فى هذه الآفاق المذهبة ، والسابحة على هذا البحر الذى يدع رشاشه المتناثر على ضفافه قبلات خفيفة يرنّ صداها من بعيد .

نعم ، كل شىء ساكن ساكت ، حتى قطرات القمر أيضاً لا يرى منها شىء غير ما تنسجه على صفحة هذا البحر الأزرق من تلك الطبقة الفضية السيالة بخيوط لامعة من نور ...

كل هذا يصح أن يكون مهبطا لإلهام الشاعر ، حيث يرى أمامه من الدرّ والجواهر والفضة والذهب ما فيه الغناء لأن يكون مادة غزيرة لقريحته السماوية فينظم عقوداً من اللؤلؤ المنثور ، وينثر دراً من الجوهر المنظوم

قارنت الآن بين هذه الليلة القمراء ، وتلك الليلة الظلماء .

فى تلك الساعة حيث غرب عن عينى القمر ، والآن حيث أراه بما فيه من جلال وجمال . أمواجها أمامى فى ذلك المحيط الأسود ، والآن أرى بريق المنى يمتد من مجرّة الحياة تحت سماء صافية ، لا يصعد إليها غير أنفاسى الحارة يمازجها شوق مديد — كالأبدية — إلى لقيا بلادى وإخوانى .

الرسالة العاشرة (١)

أثينا

أثينا : ظهر الخميس ، ١٥ جمادى الآخرة ١٣٢٧

وقفت بنا الباخرة فى جزيرة مدللى صباح الأربعاء ، ولم تتريث إلا ريثما نزل منها ملاقون ، وركب فيها مودّعون .

سارت تمخر لجج البحار ، وما زالت كذلك حتى بلغنا إزمير الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم . نزلنا إليها وتجولنا فى شوارعها للمرة الثانية ، ولم نلبث سوى ثلاث ساعات حتى أقلعت عن هذه البلدة ، ثم أرست فى ميـاه « بيرا » ظهر الخميس .

نزلنا إلى « بيرا » وتجولنا فى شوارعها قليلا ، ثم ركبنا فى قطار يسير بقوة الـكهرباء إلى (أثينا) عاصمة اليونان ، والمسافة بينهما ٧ كيلومترات يطويها فى ٢٠ دقيقة .

بلغنا أثينا مبعث العلم اليونانى والفلسفة القديمة ، فنشر أمامى فى ثوب ما طوى من الإعصار والأدوار ، وحييت تلك الأعظم الرميمـة بنفحة من التذكار .

نزلنا من القطار وقد أحسسنا بهبوب ريح حارة ، وقالوا إنها أشد من حرارة القطر المصرى .

---

(١) المقتبس ٢٠٠ يوم الثلاثاء فى ٢٤ رجب ١٣٢٧

مياه هذه البلدة قليلة ، والقوة الانباتية بالنسبة لبلادنا ضعيفة أو مفقودة تقريباً والحكومة لا تمكن المسافر من إدخال الفواكه إلى ثغر « بيرا » ، بل ان الأهالى يأكلون من محصولات بلادهم ، وأكثر ما تعطى أراضيهم من المحصولات الزيتون والعنب ، وفيها شجر النخل ولكنه لا يثمر لأنهم لا يعنون بالتلقيح الذى اهتدى إليه البشر بالفطرة وأثبته العلم اليوم .

ومياه هذه البلدة وإن كانت قليلة بيد أنها فى غاية الجودة ، وهى فى حالها الطبيعى باردة كأنما أذيب فيها كتل الثلج . والسبب فى ذلك هو أنها تنبجس من صخور بركانية ، وخير المياه ــ كما بين العلم ــ ما ينبجس من أمثال هذه الصخور ، على العكس من المياه المتفجرة من الأراضى ذات الطبقات المختلفة التى يقولون عنها « الأراضى الرسوبية » كما فى بلادنا ، فانه يكون فيها فى الغالب مركبات كلسية وغيرها مما يعيق سير الهضم .

أما أهالى هذه البلدة فلا يعهدون نزول الثلج أبداً . وإنك لترى على أرصفة الطرق أشجاراً خضراء لا تفقد نضرتها حتى ولا فى أيام الشتاء الشاتية .

أما طرقاتها فواسعة جداً ومنتظمة ، تشبه طرق الاسكندرية ، ولكنها أقل منها نظافة . ويوجد فى هذه المدينة مدارس كبرى منها ما أعد للطب والفنون الجميلة ومستشفيات للعميان .

صعدنا إلى ذروة فى الجبل تشرف منها على البلدة كلها حيث يوجد أنقاض مجمع الأمة (الاكروپولوس) ، والحكومة الآن تعنى بالتنقيب عن دفائنها ، ورفع ما تداعى من بنيانها ودعائمها ، وإعادته إلى شكله الأصلى .

نزلنا من الذروة حيث دعانا الترجمان لأن نزور المتحف ، ولما لم نبلغ الساعة الثالثة عربية ، والعادة هنا أن لا تفتح الحوانيت أبوابها إلا بعد الساعة الثالثة ، تركناها ورجعنا من حيث أتينا .

الرسالة الحادية عشرة [1]

من وراء البحار

قلب الشاعر

الباخرة ، مساء السبت ١٦ جمادى الآخرة ١٣٢٧

هو كان يقول لى :

ـ تمر بى فى بعض الأحايين ساعات ذهبية مفعمة بالأمل والنور ، فأود لو يستتب لى الخلود فأحيا حياة أبدية ليس وراءها فناء . وتمر بى ساعات أخرى تضطرب لها سماء حياتى السوداء كما تضطرب صفحة هذا البحر الزرقاء ، فأتمنى لو يقذف بى فى هوّة كالتى تفتحها أثناء مسيرها هذه الباخرة الماخرة .

ثم أسند بيده اليمنى جبهته التى تلمع عليها أشعة الذكاء وأطرق قليلا ، وبعد أن فكر مليا رفع رأسه وابتسم ابتسامة اليائس وأنشأ يقول :

ـ آه يا أخى ، أنا الآن أحس فى صميم روحى باحتياج إلى عش طاهر ، إلى ملجأ أمين ، إلى قلب نقى يشركنى فى آلامى وآمالى . . . نعم يكاد يودى بزهرة صباى ما أراه من تقلب هذا العالم ، فبينا أرى ممن أصفى لهم الود قلبا مَلَكيا ، إذا بى أراه منغمساً بلوثات شيطانية أزالت منه كل شعور شريف . فهو أشبه بزهرة غضة نبتت فى مستنقع .

---

(١) المقتبس : ٢٠١ : يوم الأربعاء ٢٥ رجب ١٣٢٧ ، ١١ آب ١٩٠٩

وأنا كنت أقول له بلهجة من يعرف الحقيقة ، ثم يحاول إخفاءها :

« لا بأس أيها الأخ ، فلم يقيّض الله للبشر أن يجعل مجرى حياتهم على غرار واحد ، بل كان من سننه فى خلقه أن جعل فى الكائنات التحول ناموسا مشاعاً بين أدق ذرة وأحط حيوان إلى أعظم جرم وأكمل إنسان ...

« فمن سرور إلى حزن . ومن أمل إلى يأس . ومن وداع إلى لقاء . ومن قرب إلى جفاء . ومن حياة إلى موت ...

« إن البشر بأسرهم على السواء يشعرون فى قلوبهم ، وحتى فى أرواحهم ، بمؤثرات هذا الناموس العام . ولكن منهم من ينخدع بمظاهر ملونة بالأقواس القزحية فتسقيه الحياة كأساً مذهباً دهاقاً : الماء القراح فى أولها والسم الزعاف فى آخرها.

« وهكذا تتحول عليهم الأحوال فيتأثرون . ولكن مهما يكن فلا يوجد أشد تأثراً من قلب الشاعر الذى لا يمر عليه شىء جميل إلا ويدع فيه قرحة دامية ...

« هذا القلب الحساس يرغب أن يرى قلباً يضاهيه ويضارعه ويبادله ما تغلغل فى أعماقه من الحب المستتر تحت باقات من الشعر غضة أزهارها ، ولكن قلما يجد قلباً كما يريد ، وإن وجده فسرعان ما ينقلب ...

وإذا كان « القلب أسرع تقلبا من الطرف » كما يقول ابن المقفع ، فان الحب الصحيح أشد ثباتاً من الرواسى . ولكن لا . لا تبتئس أيها الشاعر ولا تقنط من روح الحياة ، وليكن لك من قلبك الطاهر خير ملجأ لحفظ أسرارك ومرائرك ، ومن نجم أملك بريق ابتسامات يبدد ما تكاثف فى سمائك الشعرية من السحب المكفهرة .

« هكذا علّمت الحياة الإنسان الخداع والتلاعب والمكر والتقلب ، وهكذا شأن كل من لم يفهم معنى الحب الصحيح ، فحسبك أن لك قلبا ملؤه حب طاهر لا يتلاشى . . . »

الرسالة الثانية عشرة [1]

عيد الدستور

فى العاصمة

« بيقوز » على ضفاف البوسفور

لم تر العاصمة فيما مضى عيداً اشترك فيه عامة أفراد الأمة من كبيرها إلى صغيرها ، ومن رفيعها إلى وضيعها ، بقلوبهم وأرواحهم ، مثل اليوم الذى مر تحت سماء هذه العاصمة فى الصباح والمساء .

١ : أفراح الصباح

انبثق فجر « الجمعة » فى هذه المدينة عن شموس تشرق تحت سمائها ، ونجوم تلمع فوق أرضها ، فما كنت ترى إلا أكاليل وأقواساً مزدانة بالأزاهر ، وأعلاماً تخفق على شرفات الفنادق والحوانيت وأبواب المدارس ، خفوق القلوب يومئذ فرحاً وطرباً .

ولقد جرى استعراض الجنود ، وإقامة ذكرى شهداء الحرية فى موضع يسمى (ربوة الحرية الأبدية) تبعد عن العاصمة ساعتين تقريبا ، وهى التربة التى طلت فى أطلالها دماء جنودنا المظفرة أيام دافعوا عن حوزة حريتهم ودستورهم دفاع

(١) المقتبس ٢١٠ يوم الأحد ٦ شعبان ١٣٢٧ ، ٢٢ آب ١٩٠٩

المستميت ، وأظهروا من البسالة ما خلد لهم فى التاريخ صفحة أبدية تنقل الأيام أخبارها وآثارها .

لم تبلغ الساعة الثانية عربية صباحاً حتى غص المكان بالمدعوين ، حيث ضربت سرادقات خاصة للوكلاء والأعيان والنواب والسفراء والرؤساء الروحيين ومحررى الصحف ومراسليها ، مفروشة بالنفيس من الأثاث والرياش ، ويتقدمها سرادق الحضرة السلطانية المصنوع فى عهد السلطان محمود عام ١٢٢٤ .

وإذ ذاك قدم سلطاننا المحبوب بموكب فخم ، فاستقبله كل من محمود شوكت باشا قائد جيش الدستور ومحمود مختار باشا قائد الفيلق الأول وصالح باشا ناظر الحربية وعزت باشا رئيس أركان الحرب وفون در غولتس باشا القائد الألمانى وعامة رجال العسكرية ، ومشوا بأجمعهم وراء عربته إلى الربوة التى يحتفلون باقامة تلك الذكرى فيها ، حيث وضع بيده الحجر الأساسى ، ومما قاله آنئذ : « لو كان فى وسعى أن أشيد جدران أمثال هذه المعاهد والمؤسسات بنفسى لما اكتفيت بوضع الحجر فقط لهذا المعهد » . وبعد ذلك أمر بقراءة الفاتحة وإتحافها لأرواح الشهداء .

ثم عادت الحضرة السلطانية من تلك الربوة إلى الباحة المعدة لاستعراض الجيش حيث جلس فى سرادقه الخاص ، وبدأت الجنود تمر أمامه بكل نظام :

فمرت فرق المشاة والفرسان والمدفعية والمطافىء ، ثم كتيبة السيارات الحربية ، وكتيبة الدراجات ، ثم حرس الحضرة السلطانية وتسمى كتيبة الرماحة الذين كانوا ممتطين الصافنات الجياد وبأيديهم رماح تعلو رؤوسها أعلام تخفق ، وكانوا كلهم ينقلون أقدامهم ويسيرون بجيادهم على نغمات الموسيقى بين هتاف الجمهور الذى بلغ يومئذ أشده كما قال شوقى :

وثبات تســــاوقت   طبق ماعازف ضرب

وبعد أن تم استعراض الجنود وقف أمام الحضرة السلطانية تلاميذ المدارس من فتيان وفتيات وبيد كل تلميذ وتلميذة أعلام ، والواحد منهم لم يبلغ العاشرة بعد ، وبدأوا يهتفون بالنشيد الوطنى ، ويتناغون بالحرية والدستور ، فسرّ لذلك كثيرا ولا سيما حين رأى الحمالين قد اجتمعوا وفى مقدمتهم شيخهم أجلس فى تخت خاص مفروش بالأقمشة الحريرية يجهرون بالدعاء لتأييد الدستور وبقاء الحضرة السلطانية .

٢ : أفراح المساء :

ولم تكد تغرب الشمس عن هذه الآفاق حتى طلعت فى هذه الأرض شموس وأقمار من مصابيح تتلألأ كالكواكب الدرية أو أشد بهاء ورواء . وكنت ترى الأسهم النارية تخترق كبد السماء ، فى ذلك المساء .

ولم يبق فى هذه المدينة محل مشهور إلا دخله النور ، ولا مصيف من مصايف المضيق « البوسفور » إلا كان يتلألأ بأنواع المصابيح الوضاءة ، وتهتز جوانبه طرباً لهذا العيد السعيد .

فكانت ضفاف المضيق حتى ما يمخر بينها من البواخر والزوارق والقوارب مزدانا بالمصابيح ، وكلما مرت باخرة بإزاء أخرى يعلو من راكبيها الضجيج والهتاف وتتألق الأنوار والأضواء حتى كان كبار الرجال ليلتئذ يفرحون فرح الأطفال .

وقد أقامت جمعية الاتحاد والترقى مأدبة فى (يلدز) دعت اليها ما يربو على الثلاثمائة نسمة وفيهم الوكلاء وبعض الأعيان والنواب ورجال العسكرية والملكية ورؤساء البطريركيات ومحررو الصحف ومراسلوها وغيرهم من ذوى المقامات .

وعلى أثر تناول الطعام ألقى كل من فريد باشا الداماد والصدر الأعظم حسين حلمى باشا وسعيد باشا رئيس الأعيان وأحمد رضا بك رئيس النواب وصالح باشا

ناظر الحربية خطباً بليغــة رددتها صدور القوم ، وهتفوا لها هتافاً شديداً .

وبعد فقد تقرر أن يكون اليوم العاشر من تموز عام ١٣٢٤ عيداً للأمة ، لأنه هو اليوم الذى فيه أعلن الدستور فى مناستر ، وأقام الأحرار ثمة احتفالات شائقة .

وقد كتب عبد الرحمن شرف بك رئيس اللجنة التى ألفت لتدوين التاريخ العثمانى بالطريقة العلمية فصلا تاريخيا عن يوم الدستور ، وأن يكون عيدا دوريا للأمة فى العاصمة وجميع الولايات .

رسائل الحجاز

١

من دمشق إلى تبوك

كنت أود منذ أمد بعيد أن تكتب لى الرحلة إلى الديار الحجازية ، لأرى بلادا كانت فيما مضى مبعث الحياة والنور والعلم ، ومن آفاقها الصافية الزرقاء انبثق فجر الحضارة العربية ، وطلعت شمس النهضة الاسلامية ، فأضاءت الخافقين .

إلى مثل هذه البيئة كنت أتمنى أن أشد الرحال ، حتى حققت الأيام أمنيتى .

بارحت دمشق غداة الاثنين فى السابع عشر من ذى الحجة سنة ١٣٣١ (١٧ تشرين الثانى ١٩١٣) الساعة الثانية والنصف وعشر دقائق على القطار الحجازى ، فسار بنا وهو يطوى المفاوز ، ووجهتنا الأولى « تبوك » وهى على بعد ٦٩٣,٢ كيلو مترا من دمشق ، يقطعها القطار فى ثلاثين ساعة ، وفى جملتها ساعات الوقوف .

والقطار فى سيره هذا كان يغوّر بنا تارة ويُنجد ، وأعلى نقطة يرتفع بها عن سطح البحر بين دمشق وتبوك هى العقبة ، عقبة الحجاز ، الواقعة بين بئر الثدية ووادى الرثم ، وهى على ٥١٤,٦ كيلو مترا من دمشق وارتفاعها يبلغ ١١٥١ .

وللخط محطات مهمة فى الجملة ، أولها القدم ، ثم درعا ، ومَعان . والمحطات مؤلفة من عدة أبنية وفى جملتها مكان أعد لطبيب الخط وصيدليته ، وهو عبارة عن غرفتين الواحدة يفحص فيها الطبيب المرضى من مستخدمى الخط وغيرهم ، وفيها منضدة للكتابة ، ومنضدة للعمليات ، وكرسيان أو ثلاثة ، وبعض آلات قليلة . والأخرى صيدلية صغيرة يعدُّ فيها ما يلزم من الأدوية والعقاقير ، وكلاهما معينان

من قبل إدارة الخط الحجازى ، وربما وجدت غرفة أخرى ليبيت فيها الصيدلى ، أما الطبيب فيبيت فى دار أخرى على نفقة الإدارة .

دخلت هذا المسكان وتجولت فيه فوجدته لا يليق بمكانة الطب وشرفه ، وأخرِ بالإدارة التى تسعى وراء ترقية موظفيها وراحتهم فتشيد لهم الدور الشاهقة أن تنظر بعين الإنصاف والعدل إلى هؤلاء الأطباء ، وأن تعنى ببناء مستشفى صغير يكون مشتملا على ست غرف أو ثمان يبيت فى بعضها الطبيب والصيدلى ويكون بعضها صيدلية وقاعة كبرى توجد فيها بعض سرر للمرضى وغرفة للعمليات المستعجلة. ولا شك أن العناية بذلك عناية بالمرضى من مستخدميها أيضا ، وعندئذ تزيد عناية الأطباء بهم بنسبة ما يتوفر لديهم من الوسائل والوسائط التى يستعينون بها على معرفة الداء والدواء ، وجلهم بل كلهم نشيطون أكفاء ، جديرون بكل مكرمة وثناء .

وهنا لا نرى بدأ من الإشارة إلى أن بعض مستخدمى الخط من غير الأطباء لا يعرفون للعمل الرتيب معنى ، ولا قيمة للوقت عندهم ، ففى محطة دمشق مثلا ، وفى غرفة الموظف الموكل إليه أمر قطع الأوراق الخاصة بالمسافرين وغيرهم على الخصوص ، نرى الموظف على ارتباكه وحيرته غير مبال بالأمر ، على حين كان يجب عليه أن ينفرد فى غرفته الخاصة ويغلق من دونه الأبواب ، ولا يدع أحداً يدخل عليه ، وأن يناول المسافرين من نافذته الصغيرة ورقة الركوب كما رأينا ذلك فى البلاد الراقية . وبهذا يكون قد سهل على نفسه العمل ، وخفف أيضاً عن المسافرين شيئاً من عذاب السفر إن صح فى هذا العصر ما كان يدّعيه القدماء من أن « السفر قطعة من العذاب » .

وبعد فان المسافر بعد أن يقطع فى القطار زهاء ساعة تنقطع عنه آثار العمران ، ولا يعود يرى نباتاً ولا ماء ، إلا شجيرات بادية فى العراء . وكل ما يشاهده فى طريقه دور بعض القصبات والسكور ، وهى قائمة بتنضيد الحجارة السوداء بعضها فوق بعض مما يرى مثله فى تلك الأراضى الشاسعة التى لا يدرك الطرْف آخرها . ولا ترى للحكومة فى مثل هذه الأماكن أثراً إلا بعض قلاع مبنية على الطراز الشامى تتراءى هنا فخمة فى الجملة بالنسبة لتلك البيوت التى لا تزال على الحالة البدائية

٢

تَبُوك

نفوسها ـ سكانها (معايشهم) ـ بنو عطية وشيخهم ـ هواؤها ـ ماؤها ـ الحالة الصحية ـ أوضاعها ـ قابلية أراضيها للزراعة ـ درجة الحرارة ـ المحجر الصحى ـ البعثة الطبية .

وصلنا تبوك فى اليوم الثانى من مبارحتنا دمشق الساعة الثامنة والنصف عربية (الواحدة زوالية) وقد كان يدلنا عليها قبل أن نصل إليها ببرهة يسيرة منظر نخلها الأخضر الكثيف .

هذه الكورة لم تكن شيئاً مذكوراً قبل مسير القطار ، فهو الذى أعاد لها ذكرها القديم . على أنها لا تزال متأخرة فى العمران ، وسكانها قلائل جداً . وهى ناحية من أعمال معان ، وفيها ثلاثون بيتاً أو أربعون ، ومجموع نفوسها بأسرهم يتراوح بين المائة والخمسين إلى المائتين ، أما سكانها الأصليون فلا يبلغون الأربعين نسمة .

ومن هنا يعلم أن سكانها قسمان : أصليون وطارئون . أما الأصليون فيدّعون أنهم من قبائل الحميدات ، غزاهم بنو عطية منذ مدة فاستولوا عليهم ولم يبقوا منهم سوى ذلك النفر القليل ، وأصبح لبنى عطية الكلمة العليا . وهم على ما يظهر أغنى من أهل البلد الأصليين . ولشيخ هذه القبيلة ـ الشيخ حرب ـ حديقة مسماة باسمه ولأقربائه أمثالها أيضا . وقد توفى شيخهم منذ عهد قريب وخلفه ابنه محمد ، وقد

اجتمعت به فرأيته لا يبلغ العاشرة من العمر ، والوصى عليه ابن عمه ويدعى سليم ، وهو شاب فى مقتبل العمر وشرخ الصبا ، وله وكيل خرج يسمى الشيخ صالح المقبلى.

أما الطارئون على تبوك فقد أتوا من جهات « تيماء » و « حائل » واستوطنوا هنا ، وفيهم غرباء أيضاً يأتون من الأطراف فى زمن الحج ويطلبون مرتزقاً لهم فيستخدمون إما فى المحجر الصحى أو فى الخط الحجازى .

وأهلها يعتاشون بنخيلهم وزرعهم وما ينال المستخدمين منهم فى المحجر . وبعضهم يشتغلون بالبيع والشراء ، يبيعون من بنى عطية بالدين ثم يستوفون ما لهؤلاء من المرتبات التى تنقدها لهم الحكومة . وراتب شيخهم — على ما ذكر لى وكيل الشيخ الصغير — ٧٥ ريالا مجيدياً فى الشهر .

وهواء هذه الكورة نقى جيد ، لا يشعر بذلك إلا المقيمون فى خارجها من أطباء المحجر ، ومستخدمى الخط وموظفيه ، لأن هواءها يفسد من مائها الراكد ، وهذا الماء يترشح من الأرض فيجتمع فى حوض كبير أقيم على أطرافه وأمامه حوض آخر ، وبجانبهما حوض ثالث وقد كان ذلك الحوض الكبير يسد فيمتلىء ويصب فى الحوض المقابل والمجاور له . وقد بنيت بإزائه منذ القديم قلعة كان يقيم فيها جنود موكلون بحفظ هذا الماء ليستقى منه الحجاج » ومنذ سار القطار إلى المدينة زالت الحاجة إلى ذلك الماء ولم يعد يعنى به ، فأصبحت تلك الأحواض مستوبلا (مستنقعاً) وخيما تنمو فيه أنواع الجراثيم ولا سيما جراثيم الحمى المتقطعة (الملاريا) وتنبعث منه روائح خبيثة ، وهو مملوء بالأوحال ، ومع ذلك فلا يزال بعضهم يستقى منه مع وجود بئر الجامع الذى فى البلدة ووجود بئر الخط وهو على قيد غلوة منها.

وذلك ما دعا إلى فساد هواء تبوك وانتشار الأمراض المنوعة بين أهلها ، وضعف نسلهم وتقليل عددهم ، وهذا يفسر لنا الرمز الذى يعتقدونه من أنهم لا يزيدون ولا ينقصون ، بل كلما ولد لهم واحد مات آخر .

وفى هذه السكورة جامع ينسب إلى النبى (ﷺ) جدده كاظم باشا لما كان ناظراً لانشاءات السكة ، ومدرسة شيدت على عهده أيضاً ، وفيها نحو (٣٠) تلميذا نصفهم من أبناء العشائر والباقون من أبناء الموظفين ، ويقوم بتثقيفهم معلم دمشقى عربى يتقاضى فى الشهر من الحكومة خمسمائة غرش وفيها دار للحكومة تتألف من غرفتين ، ودائرة للبرق ، وهما مبنيان على الطرز الذى يبنى به أهالى هذه السكورة بيوتهم ، وهو لبن يصنع من رمل أرضها ، ويرى منظره الترابى ، وفى جدرانها كوى يبلغ طول السكوة زهاء (٩٠) سنتيمتراً وعرضها (٣٠) سنتيمتراً ، وجدران الغرف واطئة وضيقة ، تسقف بسعف النخيل على الحالة البدائية .

وحكومة هذه الناحية رأت أن هذه الدار لا تليق بالحكومة ، فاستفزتها الحمية ، وافتتحت قائمة إعانة اكتتب بها مشايخ بنى عطية وأطباء المحجر والخط وموظفوه لتبنى لها داراً خططتها منذ أسبوع ، وستباشر البناء بعد مدة ، ولكن هذه النفقات ستذهب فيما أحسب سدى ، لأن الدار الجديدة لا تخرج عن حد الأولى من حيث البناء إلا أنها ستكون أوسع . ومن العار أن يكون لحكومة تبوك بناء على هذا الطرز ، بينما تقوم أمامها صباح مساء أبنية الخط الحجرية المبنية على الطرز الحديث .

وفى هذه السكورة ثكنة عسكرية تقيم فيها كتيبة لمحافظة الخط ، ومستشفى عسكرى يسع أكثر من ستين سريراً يداوى فيه الجنود المرضى من أفراد الكتيبة وممن يشتغلون منهم باصلاح الخط أيضاً ، وله طبيب عربى غيور حلبى الأصل ، ومعاون وصيدلى . وقد زرت هذا المستشفى فرأيت فيه عدة مرضى مصابين بأنواع الأمراض ، ولذلك الطبيب البارع عناية خاصة بهم .

وللمستشفى حديقة جميلة فى الجملة ، عنى بها طبيب المستشفى المذكور ، وقد زرع فيها أنواع النباتات ، وتشاهد الآن الفول نامياً فيها مزهراً ، وتنشق أريج

زهره وأنت فى أيام الخريف كأنك فى فصل الربيع . ولولا جراد انتشر صيف هذا العام فالتهم بعض النباتات لرأيت الحديقة على غير ماهى عليه الآن .

وهنا لابد لى أن أقول : إن هذه الأراضى قابلة للزراعة جداً ، إلا أنه يعوزها شىء من العناية بالأرض ، يدلك على ذلك ما تراه فى هذه الحديقة وفى غيرها من الحدائق كحديقة حرب وأقربائه ، وهى مزروعة بالتين والعنب والتين الشوكى (الصبّارة) والطماطم (البندورة) . وقد بدأ بعض الأهالى هنا يزرعون الشعير فى بعض الأراضى وتراه الآن آخذاً فى النمو .

وتبوك حارة جداً فى أيام الصيف ، حتى أن درجة الحرارة بلغت هذه السنة ٤١ مئوية فى الظل على ما أخبرنى أحد الأطباء بل ارتفعت إلى الـ (٤٣) ، لذلك لا عجب إذا كنا الآن هنا ونحن فى تشرين الثانى لا نشعر ببرد مطلقا إلا عند الفجر . بل كأنما نحن فى أواخر الربيع وأوائل أيام الخريف ، فالهواء يهب طلقاً رخاء ، والسماء مصحية لا تغيم إلا فى النادر كما وقع هذا العام والعام الماضى مما لم يشاهد فى السنين الغابرة ، فقد أمطرت السماء منذ عشرة أيام رذاذا وبدأت تتساقط على رمالها المحرقة قطرات دافئة كقطرات الدموع ... وتهب فى الأحايين ريح شديدة تحمل معها ذرات الرمل ، ويصاب المتعرض لها بالرمد الحبيبى وغيره من أمراض العيون . والبرد لا يبلغ أشده هنا الا فى كانون الأول والثانى .

والذى يجدر بالذكر هنا المحجر الصحى ، وهو يبعد عن المحطة زُهاء عشر دقائق ، وقد شيد منذ سار القطار إلى (المدينة) ويبنى بالتدريج ، وهو مؤلف من أبنية خشبية منظمة مصبوغة بصباغ بنفسجى ومبثوثة هنا وهناك ، اثنان منها لأطباء المحجر وكتبته ، وآخر للمستشفى فيه زهاء عشرين سريراً ينقل اليه الحجاج المرضى من الموبوئين وغيرهم . وفيه صيدلية تحتوى معظم ما يلزم من الأدوية والعقاقير ، ودار للجراثيم وفيها مكبرتان « ميكرسكوبان » ومكان خاص فيه آلتان كبيرتان لتطهير

ألبسة الحجاج وحوائجهم وغير ذلك ، وإدارته منظمة ، صرف عليه حتى الآن زهاء سبعة وعشرين ألف ليرة[1] .

وتخرج اليه كل عام بعثة صحية تصل فى العشر الأول والثانى من ذى الحجة ، وفى الأحايين قبل ذلك بحسب الحاجة ، وذلك للاشراف على حالة الحجاج الصحية وضرب النطاق عليهم ومداواة المرضى منهم ، ويعين أعضاء تلك البعثة من قبل إدارة الصحة فى العاصمة ، ويتقاضى الواحد منهم راتباً قدره ٣٠ ليرة عثمانية كل شهر ويعطون نفقات طريق من الأربعين ليرة عثمانية إلى الستين وبعضهم يتناول أكثر من ذلك . وللمحجر مدير دائمى مركزه دمشق ، ويأتى إلى هنا قبل البعثة لإعداد المعدات فى هذا المحجر وإصلاح ما أفسده الزمان والانسان .

والبعثة الصحية فى هذا العام كانت مؤلفة من سبعة أطباء ثلاثة منهم سوريون يأتون من العاصمة وفيهم صيدلى ويرأسهم المدير . وللمحجر ثلاثة كتاب وحراس يأتى جلهم كل سنة من العاصمة ووظيفتهم ومهمتهم حفظ المحجر ومراقبة الحجاج خشية أن يفروا ، وله مستخدمون وطنيون أيضاً .

وللمحجر رسم يتقاضاه من كل حاج عن كل يوم سبعة قروش أميرية ونصف ويعفى منه الفقراء . ومدة الحجر فى حال الصحة ثلاثة أيام وفى حال المرض خمسة ، ويتجدد إذا تعددت الإصابات والوفيات .

وقد بلغ عدد الحجاج الذين مروا بتبوك هذا العام زهاء ستة عشرين ألفاً .

ومما يبعث على السرور أن صحة الحجاج العامة هذا العام على غاية ما يرام والحمد لله .

---

(١) كانت الليرة العثمانية الى وقت كتابة هذا هى الليرة الذهبية ، وهى تنقص نحو العشر عن قيمة الجنيه الانجليزى الذهب .

٣

على ذكر الكلية الاسلامية

فى المدينة المنورة

مر من هنا على تبوك بعض أعضاء الجمعية الاسلامية العاملين (١) وقد اتفق أنى كنت يومئذ على المحطة ، فقدّم زميلٌ لى رئيسهم وهو المعروف منذ القديم بمواقفه العدائية لأفاضل الجالية السورية بمصر ممن أصبحت لهم مكانة اجتماعية فيها ، والمشهور بتفريق الكلمة بين الأمة العربية مسلميها ومسيحيها ، والقائم الآن بدعوته الاتحادية للجامعة الاسلامية . فاجتمعتُ به فاذا موضوع حديثه رقى الاسلام والمسلمين ، وأن الأمة العثمانية لا تنهض إلا بجامعة إسلامية متينة ، ومن أجل هذا قال : إنه أوفد ورفاقه إلى المدينة المنورة ، وقد رآها أصلح بقعة ليشيد فيها كلية تسير على تلك الخطة ، ويحتفل بوضع الحجر الأساسى لها .

هذه خلاصة ما قال ، وقد اعترانى آنئذ عاملا سرور وأسف : سررت لأنى أحب أن أرى من صميم قلبى للمسلمين نهضة كبرى وعناية بالتربية والتعليم وتشييد المدارس والكليات بغية أن يجاروا إخوانهم فى الوطنية وغيرهم ممن سبقوهم باقامة المعاهد العلمية والأوضاع الخيرية ، حتى يصبحوا على مستوى منهم ان لم يسبقوهم فى الارتقاء الأدبى والمادى ليعملوا يداً واحدة على انقاذ هذا الوطن البائس . وأسفت

---

(١) هى جمعية حكومية كان حزب الاتحاد والترقى وعلى رأسه أنور باشا قد أسسها للاغراض الحزبية ، وكان من مقاصدها مقاومة روح القومية العربية ، ومناصرة الاتحاد والترقى فى سياستها ذات الوجوه المتعددة .

لأني أرى تصوري هذا ظلا زائلا وخيالا باطلا ، وكأني بتلك المساعى ستذهب أدراج الرياح ، وإذا أثمر بعضها فسوف نرى أن الفائدة المتوخاة منها هى دون ما سينفق عليها عن الاموال الجمة .

نعم ، أسفت ثم أسفت ، لأن ذلك سيتخذ من جملة الذرائع لمقاومة الرأى العام العربى المطالب بالاصلاح وليقاتلوه بسلاح ماض طالما اتخذوه آلة لتفريق كلمة الأمة حتى يلتحم بعضها ببعض . هـذه هى الحقيقة ، وإلا فليس ثمة مسألة إسلام ولا علم ولا نهوض ، بل مسألة منفعة وسياسة تكالب على رئاسة ، وما كان الله ليبقى عمل قوم لا يكون الاخلاص رائدهم ، ولا التدبير قائدهم .

وبعد فلو أراد القوم نهضة الأمة الاسلامية حقيقة أو قصدوا الخير لها والنفع وأرادوا أن يبقى مشروعهم خالدا أبد الدهر ، لفكروا فى الأمر وراعوا فى ذلك الأسباب الطبيعية وتساءلوا قبل أن يقوموا بهذا الأمر ما أوردت على رئيسهم فى هذين السؤالين وأردفتهما بالجواب عنهما : هل البيئة التى يشيدون فيها دار الفنون أو الكلية الإسلامية صالحة لذلك ؟ وهل بين أبنائها من شدوا أيضا من العلوم مبادىء ، فأتموا دراستهم الابتدائية والثانوية حتى يكونوا أهلا للدخول فيها ، وجديرين بالتعليم العالى ؟

ربما ترجح المدينة المنورة على غيرها من المدن لأنها محط رحال العالم الاسلامى ، ولأجلها يخفق قلب المسلم ، ولكن وجود هـذه الميزات على مكانتها لا تجعلها صالحة لاقامة هذا المعهد فيها إذا أريد حقيقة أن ينتفع منه كل النفع ، إذ أن كل من ينظر إلى المدينة المنورة ويقف على حالة بيئتها الاجتماعية يرى أنه يعوزها أولا المدارس الثانوية بل الابتدائية الراقية ، دع عنك العالية . وذلك ليعم العلم طبقات الاهلين ، حتى إذا كان منهم كتلة متعلمة كبيرة حق لهم أن يشيدوا كلية بل كليات

وكنت قد تحدثت فى هذا الموضوع مع مدير جريدة (بيسه أخبار) الهندية التى تصدر فى لاهور ، ومن أهل الرأى والكلمة النافذة فى الشرق الاسلامى ، فرأيته متأسفا على إقحام الأغراض الحزبية والسياسية فى الشئون الاسلامية والثقافية ، ويرى أن من الخير أن تقام المشاريع للمصلحة العامة لا للأغراض الحزبية .

ولو نظروا بعين الانصاف والتدقيق لوجدوا فى دمشق مثلا مايغنيهم عن غيرها لتوفر الشروط اللازمة فيها مما يضمن لتلك الكلية بقاءها وارتقاءها ، لأن دمشق هى المدينة التى تتطاول اليها أنظار الأمة العربية ، وهى قلب البلاد العربية وقاعدتها من القديم . وفيها المدارس على اختلاف مراتبها : من ابتدائية إلى رشدية ، ومن اعدادية إلى عالية ، مما شيدت بعضه الحكومة وقام بالبعض الآخر الأهلون ، وترى فى أهل دمشق – إذا أسست الكلية فيها – كثيرين يتسابقون إلى الدخول فيها والالتحاق بصفوفها .

من أجل هذا أرى أن تشييد دار الفنون الاسلامية فى المدينة مخالف للناموس الطبيعى – ناموس النشوء والارتقاء . وإذا صحت العزيمة وظهرت هذه الكلية إلى عالم الوجود فلا بد لها أن تصير إلى أحد أمور ثلاثة : وذلك إما أن تصبح مدرسة دينية صورية كبعض المدارس التى نراها فى دمشق ، ولا يكون للتعليم الدينى الحقيقى ولا للعلم المادى فيها من أثر . واما أن تنقلب إلى مدرسة ابتدائية أو ثانوية وان زعموا أنها كلية أو دار فنون أو مدرسة عالية . وإما أن تغلق أبوابها وتذهب تلك المساعى هباء منثورا ، وفى ذلك من ضياع الوقت على غير طائل ، وصرف أموال الأمة فى غير وجوهها ما لا يرضاه كل من فى قلبه ذرة من الحب للاسلام والمسلمين .

وقد رأينا للحكومة مثالا من ذلك ينطبق على ما ذكرناه كل الانطباق ،

فقامت هذه السنة بتأسيس مدرسة للحقوق فى بيروت ، ومع أن العرب فى أنحاء البلاد كافة تلقوا ذلك بكل ارتياح ، وعدوا ذلك منها دليلا على رغبتها فى ارتقاء هذا العنصر الكريم ، فان المفكرين والعقلاء من الأمة العربية لم يستحسنوا اختيارها تلك البيئة مكانا لتأسيس تلك المدرسة ، كما لم نستحسن نحن الآن اختيارها المدينة المنورة لتأسيس ماسمته « دار الفنون الاسلامية » .

وها هى إدارة المدرسة قد أعلنت منذ ثلاثة أشهر أن على الراغبين فى الدخول أن يراجعوا الادارة للقيد والقبول ، وقد بلغنى آنئذ أن عدد المراجعين لها كان خمسة طلاب أو ستة ، وما أدرى كم بلغ عددهم الآن ؟

وإذا دامت الحال على هذا المنوال فربما لا يشرع بالتدريس هذه السنة لقلة المراجعين ، وهذا ربما دعا إلى إغلاق أبوابها .

وليس السبب فى ذلك ، ندرة المتعلمين كما ذكرناه فى المدينة المنورة ، فإن فى بيروت شطراً كبيراً من الشباب المثقف يقدر أن يملأ صفوف هذه المدرسة ، بل ثمة أسباب أخرى من أهمها جعل لغة التدريس التركية ، ولا يغنى عن ذلك جعل درس أو درسين كالمجلة مثلا باللغة العربية ، لأن المدار على بقية الدروس ، مثل مادة العقوبات وحقوق الدول والحقوق الأصلية الأساسية وغير ذلك .

وفى ناشئة بيروت قليل ممن يعرف التركية ، بل من النادر ، بسبب المدارس الأجنبية من انكليزية وإفرنسية . وإن الأجانب سعوا منذ زهاء أربعين سنة لنشر لغاتهم بين ظهرانيها ، وعنوا فى الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية حتى ترى النادر من الشبان من لا يحسن احدى اللغتين إن لم نقل كلتيهما .

ومنها أيضاً ثقة الأهلين بالمدارس الأجنبية أكثر من ثقتهم بالمدارس الحكومية ، وهى حقيقة وإن كانت مؤلمة ومرة ، بل وربما شابها بعض المبالغة ، ولكن يجب الاعتراف بها ، ليس لأن مدارس الأجانب تخرج متعلمين يفوقون

بعلمهم وعملهم المتعلمين فى مدارس الحكومة ، كلا ثم كلا ، بل لأن الحكومة لم تعمل فى بيروت عملا كبيراً يلفت نظر الأهلين وينفذ فى قلوبهم كما هو حالها فى الروملى ، ولم تقم بشىء قليل مما قام به الأجانب من تأسيس المدارس والكليات حتى يقبل عليها الأهلون ويروا ثمارها يانعة فيعتمدوا عليها وتكون لهم ثقة بها .

ومن تلك الأسباب بل من أهمها غلاء المعيشة بالنسبة لبقية البلاد العثمانية ، وهذا مايهم التلميذ فى الدرجة الأولى ، خصوصاً والأهلون فى ضيق وضنك ، والتلميذ يفضل لذلك الذهاب إلى العاصمة ليدرس فيها بدلا من الذهاب إلى بيروت ، لأنه يعتقد أن المدرسة التى أسست منذ زمن بعيد وهى فى العاصمة لابد وأن تكون أرقى من المدرسة الحديثة ، لا سيا وإن المال الذى ينفقه فى بيروت ربما يعادل ما ينفقه فى العاصمة أو يزيد عليه ، وقد رأينا فى مدرسة الطب فى دمشق كثيراً من الأرمن فضلوا المقام فى دمشق لهذا الباعث ، وربما كانت لهم دواع وبواعث أخرى .

وبعد فان على الذين يرسمون هذه الخطط إذا أرادوا لها النجاح إما أن ينظروا فى تلك الأسباب فيعتبروا بدراستها ، وإما أن يجعلوا تلك المدرسة فى بلدة كدمشق مثلا فينقلوا مدرسة الحقوق أيضاً اليها على شرط أن تكون لغة التدريس العربية ، لوقوف كثير من شبانهم على التركية ولاعتماد الأهلين فى دمشق على مدارس الحكومة ، ولأن المعيشة فى دمشق بالنسبة لبيروت رخيصة ، لا سيما وفى دمشق مدرسة طبية ، واذا وسعت الحكومة تلك الدائرة ففتحت مدرسة للزراعة ثم انتقلت إلى ارقى من ذلك ففتحت مدرسة للتجارة ، وضمت إلى ذلك المدرسة الاسلامية التى يراد انشاؤها فى المدينة ، فانه يصبح فى دمشق جامعة كبرى يؤمها الطلاب من كافة الأقطار على اختلاف طبقاتهم ، وتعود لنا بذلك ذكرى الدولة الأيوبية على عهد صلاح الدين .

٤

درس فى التغرب

بين أطباء البعثة الصحية فى تبوك طبيب أرمنى فى الخمسين من العمر ، ولكن الناظر اليه يحسبه ابن ستين لما عليه من آثار الهرم والشيخوخة فارق أسرته وأطفاله الصغار ، وأتى إلى هنا مع من أتى من العاصمة ، ليقوم بوظيفة عهدت إليه إلى أجل مسمى لقاء راتب كاف واف ، ثم يعود اليها وقد قضى واجبه وظفر بأمنيته .

كنت كلما رأيته وتصورت ما تقحم من المشاق مما أزعجه عن مطمئن الراحة ، على هزال فيه وضعف منه ، تتجلى أمامى همته الفتية ، فيزيد اعجابى به ، وأتمنى لو أن الفتى العربى من أبنائنا ، ممن آثروا الخصاصة مع الراحة على البسطة مع العناء ، يقوم ويحتذى مثال هذا الشيخ الأرمنى ، فيضرب فى الأرض ولا يبالى بألم التغرب ومرارة الفراق .

لا جرم أنى لا أعنى بكلامى هـذا ذلك العربى السورى الذى تجشـم من المتاعب مـا أقض به مضجعه انتجاعا للرزق وارتياداً لوسائل العيش ، فعمل ، فأبان عن كفاءة واقتدار ، ومضى فى عمله فدل على عزم وحزم إلى أن تأثل وارتاش وارتقى حتى بذ الاكفاء من الوطنيين أنفسهم ، كلا ؛ ليس هو موضوع مقالى هـذا وإنما أوجه كلمتى هذه إلى أبناء الأمة العربية ممن تعلموا فأصبحوا أهلا لأن توسد اليهم المناصب ، وباتوا جديرين بأن تلقى اليهم مقاليدها ، وأن يتسلموا زمام الأعمال فى الحكومة أو فى الشركات المهمة الأجنبية منها والوطنية ، كل بحسب

استعداده وما خلق له وعوّد نفسه عليه ، حتى لا يكونوا دون غيرهم فى التسابق فى ميدان الحياة .

نعم ، إنهم اليوم دون غيرهم فى هذا التسابق ، ولطالما سعت لبعضهم الوظائف فزهدوا فيها على إعوازهم ، أو احتملوها وهم لها كارهون . وهذا ما دعا غيرنا إلى أن يبتز أموالنا ، ويتمتع بثمرات بلادنا وخيراتها ، ويتحكم فى رقابنا .

وحريٌّ بنا الآن أن نبحث عن السبب حتى نتلافى الأمر ونداوى العلة ، فما هو السبب يا ترى ؟ السبب يختلف بحسب الأشخاص والمبدأ والغاية والتربية والبيئة ، فاذا رفعنا العوارض المنبعثة عن الحكومة أو عن ارتباط المرء ببلده بتجارة أو غيرها نجد أن حب بعضهم لوطنهم واستسلامهم للراحة يدعوهم إلى أن لا يرحلوا إلى بلد آخر ولو ذاقوا كل يوم أشكالا من العذاب وألوانا ، بدعوى أن البلدة التى يرحل اليها محفوفة بالمخاطر ، أو ليس فيها من المناظر الطبيعية ما ترتاح نفسه لمرآها ، أو أنها يعوزها صديق يأنس به وخليل يسامره .

وأمثال هؤلاء يعذرون من جهة ويلامون من جهات كثيرة : يلامون لأنهم رضوا بالدون وخافوا حياة التنازع فوقعوا فى موت السكون . ويعذرون لأنهم لم يتربوا تربية عالية يمكنهم بها مقاومة العوارض الجوية ، ومغالبة طوارئها الصعبة .

وإلا فكيف يعيش الأوربيون ، من انكليز وألمان وفرنسيين ، فى بادية الأناضول وصحارى السودان ومجاهل إفريقية ، وكيف يتناءون عن وطنهم فيوغلون فى الأقطار العربية عراقيها ويمانيها وحجازيها ، فيستخدم من يستخدم منهم فى السكك الحديدية ، ويقوم بعضهم بوظائف عهد بها إليهم . ويذهب بعضهم لاكتشاف الآثار والعاديات فيكتبون عنها المجلدات ، وتناط بآخرين وظيفة التعليم فى الارساليات ويطوفون البلاد من أدناها إلى أقصاها دعاة ومبشرين .

هذا وربما وجد المرء فى غير بلده خديناً يعاشره أرق من خدينه الأول ، ومنظراً يروقه أجمل من المنظر الذى تركه . دع عنك إذا كان من المولعين بمطالعة الأسفار والكتابة ، وكان يقوم بكل ما يعهد اليه من المهام ، فانه لايمل ، بل على العكس ربما لم يجد متسعا من الوقت ، ولا يضير به أنه يحن إلى عشه وفراخه وأهله وعشيرته ، ويئن لفراقهم ، وأنه يتحمل فى الأحايين العناء ، فان تنازع البقاء يقضى عليه أن يتجرع اليوم كأس الحياة مرة ليحتسيها غداً حلوة لذيذة . أو ليس فى قول الشاعر العربى :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت ، واى الناس تصفو مشاربه

حقيقة ناصعة لا ريب فيها ؟



وثمة فئة أخرى ممن تعلموا التعليم الحقيقى ، ولكنهم عافوا الوظائف بدعوى أن الموظف النزيه أندر من الكبريت الأحمر ، وأنه إن عف فلا مندحة له عن المدالسة والموالسة ، وأن الوظيفة ما داخل حبها قلب رجل ، إلا وأفسدته ، فهى كالخمرة يطرب بها شاربها ، وتنفث فيه سمومها القتالة من حيث يدرى ولا يدرى ، فتسلب إرادته وتنزع منه كل شعور حى .

ولئن كان فى هذا الكلام شية من الحق ، ولكنه يجب أن لا يؤخذ على إطلاقه ، إذ أن الوظيفة كما قلت مراراً قائمة بعمل المرء ، وهو معيارها ، فان كان شريفاً شرفت به ، ونشأ عنها نفع حقيقى ، وإلا كانت دنيئة خسيسة وآلة من آلات التدمير والخراب .

دع عنك أننا أصبحنا فى أشد الحاجة إلى موظفين عقلاء أكفاء يديرون شئون الأمة بحكمة وعدل ، فاذا زهد فيها أمثال هؤلاء فهل يروقهم أن يدعوها لغيرهم ليستحكموا منها بحكم الزمن ، وبما لهم من السابقة ؟ أو هل يرضيهم

ويرضى الأمة العربية أن يتولى أمورها شرارُها ممن يستحلون كل رذيلة ، قضاء لمآربهم ، ولا يبالون ، سعدت الأمة أم شقيت ؟

وما الغاية من ذلك إلا دعوة المتعلمين من أبنائنا الذين يحبون نفع هذه الأمة ويرغبون فى رقيها إلى أن لا يحجموا عن خدمتها بمقتضى مسلكهم . ولو كابدوا من جرّاء ذلك العناء ، حتى يكونوا عونا لها على قضاء مصالحها ، ولا يصدنهم عن ذلك صادّ .

أدعوهم ، وأنبه الغافلين الجاهلين منا ، إلى أن يتسلحوا بسلاح العلم والتربية ، لمكافحة مايعترضهم من الطوارىء ومقاومة مايقف فى سبيلهم من العقبات ليفيدوا ويستفيدوا ، لا من الحكومة وحسب ، بل من المشروعات الاقتصادية أيضاً التى تقوم فى هذه البلاد أجنبية كانت أو وطنية .

ولا مُشاحّة فى أننا معاشر الوطنيين إذا لم نعدّ من الآن العدة الكافية لمزاحمة ذلك الجيش الكثيف من المستخدمين الأغيار الذين يشغلون فى مرافقنا المواقع الشاغرة ، يكون حظّنا منها حظ المتفرج ، وعندئذ نندم حيث لا ينفعنا الندم .

عمران الوطن
ومسئولية الحكومة تجاهه

دمشق الجمعة ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣١

كثيراً ما نسمع ونحن فى دمشق أن الحكومة لا تعنى بعمران بلادها، وأنها لا تفكر برخاء الأهلين وسعادتهم، فتعمل على انماء الثروة فى هذه البلاد وتكثير المرافق الحيوية والاقتصادية. نسمع كل ذلك عنها، وغاية ما يظهره الواحد هو أنه يتأثر ثم يذهب تأثره أدراج الرياح.

ولكن الذى يخرج إلى الضواحى والأقضية، ويبعد عن دمشق مثلا مسافة ساعتين جنوبا، يتحقق ما يقال إن كان لم يصدق، وتزيد نقمته على الحكومة إن كان مصدقا لما يراه من آثار الخراب البادية فى كل بقعة من البقاع، ويرى أن تأثيرها ضئيل جداً، وأنها لم تعمل عملا خالداً، اللهم بعض آثار لولا مسيس الحاجة والأسباب الطارئة الأخرى لما كان لها أثر يذكر.

وكيف نرى هذه البلاد معمورة ولا نرى فيها جيرة ولا أناساً يعمرونها، كما هى الحال مثلا فى تبوك، فانها مؤلفة من ثلاثين بيتاً على وجه التقريب وإذا حسبنا أن فى كل بيت خمسة أنفس فمجموع نفوسها ١٥٠ نسمة! وما ذلك إلا لأن وسائل العيش مفقودة تقريباً فى هذا البلد، ولو كانت وسائط الرخاء والعيش متوفرة لكان أول أثر رأيناه من آثاره تزايد مقدار النفوس، وقد أثبت العلماء أن من أهم المقاييس التى تدل على عظمة الأمة واستقرارها ومكانتها تزايد نفوسها.

من أجل هـذا يأسف كل مفـكر عاقل يطوف هذه البلاد لهـذا التأخر الاقتصادى والاجتماعى ، ويتحقق أن الاصلاح كل الاصلاح ليس فى تغيير شـكل الحـكومة ، بل فى شعور رجال الحـكومة بمسئوليتهم نحو الاصلاح والعمران . وأول دليل عليه فى الانقلاب العثمانى ، بل فى إشادة آثار الرفاه والسعادة فى الأمة ، لأن الذى يحيي الأمم فردها وجماعتها ويشيد لبقائها دعامة متينة ويقى مستقبلها من الأخطار المداهمة الشعور بالمسئولية فى الاصلاحات الاقتصادية الاجتماعية أكثر من الاصلاحات السياسية .

ولا أريد بذلك أن أغمط تلك الاصلاحات السياسية حقها ، أو أنى أنفى عنها كل تأثير ، ولـكنى أجعلها فى الدرجـة الثانية ، لأن السياسيات لا تولد ثروة بنفسها ، وليست مورداً للثروة برأسها ، بل إن وجود رجال السياسة موقوف على وجدت لتعيش ، وطبقة ذلك مما يقود الأمة إلى مهاوى الانحطاط ما دامت هذه الطبقة على ما نعلم من الهزال الاقتصادى والضعف الاجتماعى .

وبعد فان تنازع البقاء لم يتغير أبداً منذ وجود الخليقة، بل ان ذلك الناموس قد أخذ فى النشوء ، وبنسبة تقدم الجمعية البشرية ، فاذا لم نتدبر الأمر ونتداركه بحكمة فان سيل الغرب الجارف لابد وأن يقضى علينا ، وعندها فلا مناص من الوقوع فى ربقة التحكم الأجنبى والاستعباد الاستعمارى ، بينما نحن نظن أنفسنا أننا أصبحنا أحـراراً . . .

مقالات علمية

هذه المقالات العلمية

هى ناحية أخرى من نواحى عبقرية صلاح الدين القاسمى ،

تلك العبقرية التى تفتحت له أكمامها وهو فى دراسته الثانوية .

كان وهو تلميذ فى التعليم الثانوى شاعراً يتطلع إلى الأدب ، وإلى إصلاح المجتمع .

كان يتعلم من خارج أسوار المدرسة ما لم يجده فى داخل أسوارها من معرفة .

كان يتخيَّر البيئة التى يتعاون معها على تكميل نفسه وتجميلها وإقامة مجتمع صالح .

وانتقل إلى دراسة الطب فكان طبيباً ألمعياً ، كما كان أديباً عبقرياً .

وفى خلال ذلك كان صحفياً ، وكان من دعاة بعث العروبة وإحياء العربية .

وعلى صغر سنه ، فى مراحل الدراسة وما يليها ، ملأ محيطه نشاطا وعملا .

كان نشاطه للحق والخير ، وكان عمله فى سبيل إقامة الحق وإشاعة الخير .

كان فى مدة عشرين سنة يأخذ لنفسه خير ما فى الإنسانية ، ليفيضه زلالا نقيا على مجتمعه .

وهذه المقالات العلمية أحد جوانب هذا الكفاح المتواصل ، العلمى والأدبى والقومى ، لتزيين النفس بأجمل ما فى الإنسانية ، ومحاولة تجهيز القومية العربية وتجميلها به . ولو عاش هو كما عشتُ أنا لكان مثالا للكمال العربى . ويحزننى أن أكتب أنا عنه ، وكان أرضىَ لى لو أنه هو الذى بقى وكتب عنى .

م

نظرة فى النظرات[1]

أُخرج هذا الكتابُ للناس فى هذا العهد ، والأمة فى صراع دائم بين القديم والحديث ، يريدها الأول على البقاء على الرثيث من تالدها مما ورثته بحكم الطبع أو التطبع ، ويضطرها الثانى إلى التجرد عما يأخذ بخناقها من العادات والتقاليد العتيقة التى أخنى عليها الدهر ، والأخذ بالجديد المفيد المنطبق على حاجات العصر اليوم .

وها نحن أولاء نرى بين علماء الدين فى مصر والشام والعراق والحجاز واليمن من يتساءلون عما إذا كان تعليم العلوم المادية الطبيعية والتوفر على دراستها حراماً أو حلالا ، بينما نرى بعض المفكرين من الباحثين العالمين يشهرون على أولئك حربا عوانا تدير رحاها الأقلام ، مصرحين أنهم لايدينون بسوى القوة والمادة اللتين هما من مظاهر الطبيعة ، ويضربون بكل علم عرض الحائط إذا لم يكن من العلوم المادية الطبيعية أو منطبقاً على نواميسها الصحيحة ، أو موصلا اليها متمماً لها . ففريق يبالغ فى إعظام الخيال ويغالى فى البحث فيما وراء المادة ، وفريق لا يعرف غير الحقيقة المادية مذهباً .

ألا وإن هذا الصراع الحيوى لم يكن مقصوراً على العلم فقط ، بل تناول عامة شؤون الحياة وفروع الفنون الأخرى ، فكان للأدب النصيب الأوفر منه ، فانا ما زلنا ولا نزال نرى بعضهم لا يرى للشعر المكانة العالية إلا إذا كان قائله

---

(١) نشرت فى الجزءين الخامس والسادس من المجلد الخامس من مجلة « المقتبس »

كالبهاء زهير وابن معتوق والشاب الظريف . ويحسبون أن الكلام الظريف هو ماجاء فى « ريحانة الأدب » وأشباهها ، غير معتدّين بما عداها من الكتب الممتعة مثل « نهج البلاغة » و « الدرة اليتيمة » و « كليلة ودمنة » وما جرى على أسلات ألسنة الشعراء المتقدمين كالشريف الرضى والمتنبى والمعرى وغيرهم من المتأخرين ممن جمعوا إلى التراكيب العربية الفصيحة الأفكار الغربية الصحيحة كما أنهم لا يعدونها شيئاً مذكوراً .

فى كل حركة تقوم بين ظهرانى هذه الأمة المنبسطة ظلالها فى هذه المملكة المتنائية الأطراف نشهد مثالا مجسما من مبالغ تأثير تنازع البقاء ، ونقرأ فيه التجدد نقياً لا يشوبه شوب القديم ، فنستدل منه على تقدم الأمة فى افكارها وآرائها ، وأن ما يناله القائمون بالتجديد من خصومهم الأعداء الألدّاء المكابرين لابد من وقوعه ما دامت الأمة جاهلة خاملة ، وما دام من كتب لهم العلم والنباهة أفذاذاً لا يزال تأثيرهم من الضؤول والحؤول بحيث يتراجع لأقل ريح تعصف .

وبعد فلا بدع إذا بودئ الأستاذ المنفلوطى صاحب هذا الكتاب لأول وهلة بما ناله من معارضيه من بذاءة اللسان والتسفيه فى القول ما نجله عنه ، لأنها سنة فى المجددين منذ القديم . فهذا « غستاف فلوبر » الكاتب الفرنسى المعروف كان يحتقره معاصروه ويهزءون بكتاباته وآرائه حتى كان يحمله ذلك على البكاء كالأطفال الصغار ، ويشرع يخاطب زملاءه زولا وكونكور ودودِ بقوله « بربكم أنبئونى لم لم تنل هذه المؤلفات الاستحسان الذى أنطلبه » فتأخذهم رعدة الكآبة والحزن فيبكون جميعاً . هذا الرجل الذى كان فى عصره بهذه المثابة ، ولم يكتب لآثاره أن يرتاح لها الرأى العام ، أصبح القوم اليوم يعبدونها ويمجدونها و يسبحون بحمدها .

أمامى الآن هذا الكتاب (النظرات) أنظر إلى الصفحة الأخيرة منه بعد أن كنت قرأت معظم فصوله فى الصحف ، وكانت نظرتى إليه فى المرة الثانية ومقالاته

مجموعة فى سفر خاص غيرها فى الأولى ، إذ كنت أطالعه وأنا أعاق عليه فى مفكرتى بعض ما آخذت به منشئه ورأيته مما يجدر أن ينبه عليه مثله . على أنى قرأت ما كتب عليه فى الجرائد والمجلات فاذا به لا يبل غليلا ولا يغني فتيلا ، مما دل على أن باب « التقريظ والانتقاد » لم يفتح عندنا كل الفتح ، ونخشى ان طال علينا الأمد أن يصيبه ما أصاب باب « الاجتهاد » .

وقد أفردت لكل من « أسلوبه » و « موضوعه » و « آرائه » و « لغته » و « وصفه » بحثا خاصا سأتكلم على كل واحد منه على حدة ، وأقفى عليه بالالماع إلى شذرة من « روح المؤلف » ، وذلك بقدر مامكنتنى الفرصة من القيام به وهدانى اليه البحث والنظر .

١
أســـلوبه

ممـا كتبه المنفلوطي في مؤلفه هـذا قصص جمـة كانت هي الباعثة لي على الخوض في غمار هذا الموضوع ، ولذا فأنا انظر اليه في هـذا المبحث نظري إلى قصصي أريد أن أبين طريقته في الانشاء ، وأحاول أن أردها إلى مذهب خاص مما أنشأه أدباء المغاربة في تاريخ آدابهم . إذ لـكل كتاب أدبي قصصي أسلوب خاص ينهج فيه مؤلفه المنهج الذي يرى أنه امتع وأنفع ، ووافق طبعه في الغالب ، أو يتبع في ذلك سنة الارتقاء .

قامت في أوروبا مذاهب شتى[1] في الأدب القصصي منذ القرن السابع عشر حتى اليوم ، وكلها حلقات من سلسلة تاريخ الآداب عند الغربيين . فمن هذه المذاهب مذهب يرى زعماؤه أن الغاية من الصناعة اصلاح الانسان وتعزيته لتخفيف آلامه عند حلول المصائب والنوائب . فتجدهم يضعون قلوبهم وأفكارهم في كتبهم بدعوى أنهم بتأثراتهم هذه تثور ثائرة القراء ، وإن ذوق كاتب القصة الشخصي ليتمثل في تضاعيف كتابه ، فتراه يخلق أشخاص الوقائع ليصف شعوره الذاتي وشوقه المبرح به نابذاً العناية ببث العواطف في أبطال الرواية ظهرياً ، من أجل هذا ندر ما استفاد التاريخ وعلم الاجتماع من أمثال هذه المؤلفات .

وما يحملهم على ذلك إلا مشيهم مع شعور القراء ، وتنزلهم إلى عقول العامة لأن هؤلاء اعتادوا أن يعيشوا مجردين عن الحقائق العادية ، وانهم

---

(١) معرب عن فصول من كتاب « المصنفون والمصنفات » .

ليتذمرون من مطالعة صفحات حياة الإنسان كما هي . ولذا كانت خطتهم في الروايات أن يجعلوا الوقائع والأشخاص على هيئة خيالية Idéal » يوم كان يستفيض على الألسنة أنه من اللازم اللازب الاختلاق في الروايات ، وكانت القصص السامية والاشعار الدقيقة الحافلة بالشعور ليس لها كلمة عالية ، وقد سمى هذا المذهب « مذهب المفكريين Idéalisme » .

وهنالك مذهب آخر في الانشاء يدعى (Romantisme مذهب الخياليين) ، وهو كما عرّفه ستاندال هوب : عبارة عن « صناعة تمثل نتائجها الأدبية ما يلائم معتقدات الأقوام وأطوارهم وعاداتهم في الحال الحاضرة مما يبعث في نفوسهم سروراً ونشاطاً ، بل هو كما يقول النقاد الشهير بروتير : هو « أن لا يعرف الصانع سوى ذوقه وتهوساته وخيالاته قاعدة وأصلا » بل كما قال اميل فا كى : « إن روح الرومانتيزم الحقيقية الحذر من الحقيقة ، وأن يكنّ لها الصانع في صدره موجدة ونفورا » قالوا : وهذا الحذر يتم باستسلام المفكرة للمخيلة كل الاستسلام ، وليس في هذا المذهب مشاهدة ولا تحقيق ولا ترصد ، كما أنه ليس ثمة معقول ولا محاكمة ولا منطق ، لأن هذه كلها أمور تدين للحقيقة المادية ـ هذا هو أصل الرومانتيزم .

ومن المذاهب التي نشأت وشاعت المذهب التاريخي الذي كان زعماؤه يعنون بوضعه في الروايات التاريخية فيحرّفون الحقائق التاريخية عن مواضعها ، وهم من التزوير والافتئات بحيث كانوا يطبقون قواهم المخيلة وعامة ما يخترعونه من الأفكار على الوقائع والحادثات . فالتاريخ عندهم كما قال اسكندر دومافيس « مسمار يستعينون به على تنضيد ألواحهم » ، فليس لديهم من ثم فكرة سوى أنهم يعملون على إدخال البشر والارتياح في نفس القارىء . بيد أن لجمال الأسلوب ورقة الوصف عندهم مكاناً من العناية . وأمثل نموذج لهذه المؤلفات التاريخية وأحفلها هما كتاب « خامس آذار » لا لفريد دوفيني و « نوتردام دو باري Notre dame de Paris » لفيكتور هوغو .

وقد نشأ مذهب جديد دعى بمذهب الطبيعيين Naturalisme ومن أخص ميزاته أن زعماءه وسعوا دائرة القصص ، وأخذوا يبحثون عن ملجأ يلوذ به أشخاص القصة خشية أن تخوض عباب الوقائع الغريبة التى يتعملها بعض الكتاب ، لتكون النتيجة إما الانتحار أو الزواج . وأصحاب هذا المذهب ينظرون إلى ذلك الضرب من القصص نظرهم إلى ألعوبة يتلهى بها الفتيان والفتيات . والذى يعنون به اليوم هو صفحات الدراسة والتتبع ، فشأن القصة عندهم بنسبة ما تعيه من صحيح الوصف وحديث الوقائع .

ومن أنصار هذا المذهب من القصصيين ، ممن جردوا الروايات من شوائب الكذب والاختلاق ، بعد فلوبر اميل زولا وموباسان الكاتبان الفرنسيان المعروفان ، ونشأ عن هذا مذهب آخر دعى « مذهب Impressionnisme امبرسيونيزم » . والفرق بين هذا ومذهب الطبيعيين هو أن زعماء المذهب الأول يعنون بابلاغ العواطف وآثار ما ولدته فيهم الحقيقة ، وهم يرون أن « الحقيقة واسطة » . أما أنصار المذهب الثانى فانهم مستقلون عن الذاتية وما همهم إلا تتبع الحقيقة كما هى ، على حين يترجم زعماء الأمبرسيونيزم الطبيعة أكثر من أن يبعثوها مرة أخرى . وعلى هذا كان مذهب الطبيعيين ولا جرم أمتن وأرصن ، وقصصهم أعظم مهابة ووقاراً .

وهناك مذهب جديد وضعه الكاتب الفرنسى الشهير « بالزاك » وانضوى تحت لوائه كبار المتأدبين ممن أثروا أثراً محموداً فى نهضة الآداب الفرنسية ، ألا وهو « مذهب الحقيقيين Rèalisme » وقد أتم وضعه فلوبر بمصنف له سماه « مدام بوفارى » وقد سبق هذا الرجل بالزاك وستاندال ومريمى فاذاقوا الفرنسيين بمصنفاتهم طعم الحقيقة ، ولكنهم لم يكسروا سورة شهوتهم بأسرها ، ولم يتعد تأثيرهم فى نفوس القراء إيقاظ الحقيقة فيهم . ولكن مصنف « مدام بوفارى » علم الناس أجمع ما هو

مذهب الحقيقيين بما ترى فى تضاعيفه من وصف الحياة بما فيها من اضطراب وضوضاء بأجلى تعبير وأوضح بيان .

وطريقة « بالزاك » فى قصصه أنه يبدأ أولا فى التعريف بالأشخاص ، ويأتى على تصوير المكان الذى فيه يعيشون ، والبيئة التى فى أرجائها يجولون ، وما يحوى المكان من أثاث ورياش ، ثم يذكر الخلق وأجسامهم وما يلبسون ويكتسون من أردية ، حتى إنه يرسم خطوط جبهاتهم ، وأخيراً ينفخ فيهم من روح الحقيقة فينطقون ويتحركون .

هذه هى « الطريقة العلمية » التى ينحو منحاها العلماء والعقلاء من كتاب أوربا فى التاريخ والأدب ، ولا يهمهم مما يكتبون سوى أنهم يمثلون الحقيقة للقراء عارية بأبشع وأشنع مظاهرها غير هيّابين ولا وجلين . وثمة من المذاهب ما كنت أود أن آتى على ذكره هنا لولا أنى توخيت فى هذه « النظرة » الإيجاز ، مثل المذهب الرمزى (سنبوليزم) والمذهب الفنى (كلاسيسيزم) وغيره من المذاهب .

وبعد فلم نقدم بين يدى القارىء هذه المقدمة التى نرجو أن نكون قد ألممنا فيها بطرف من مذاهب الكتاب ، إلا لنستطيع أن نحكم على بعض فصول « النظرات » القصصية ، ونضعها فى المحل الذى يجب أن تحل فيه بين هذه المذاهب كلها .

لا جرم أن الناظر فى هذا السفر والمطلع على هذه المذاهب يعلم أن المنفلوطى جرى فى كتاباته مجرى الخياليين ، وأن يجمع بين هؤلاء ومذهب الفكريين فى الأحايين . فهذه مقالة « الكأس الأولى »[1] و « عبرة الدهر »[2] يتجلى فيهما الخيال بأحفل مظاهره . فقد سمع صوت المؤلف فى الأولى عند قوله : « وما

---

(١) ص — ٥ (٢) ص — ٧٥

كان له وهو يهيم الخ ... » وكذلك عند قوله فيها : « والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن » . وقد أورد على لسان الشخص المريض الشاخص ببصره إلى السماء ـ ذلك الرجل الذى لم يبق منه إلا إهاب ممزق ـ حديثاً لا قدرة لا صحّاء الأجسام على إيراده فى مثل تلك الحال ، وقصد المنفلوطى أن يبين سبب الإدمان على الخمر فجمل ذلك بلسان المريض ذاكراً أن كل كأس شربها جرتها عليه الكأس الأولى ، وأن ليس الباعث على ذلك غير قصور عقله عن إدراك خداع الخلطاء . وبين « أن الخونة الكاذبين خدعوه عن نفسه خداعاً ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التى لا تتم إلا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع » . ثم عاد المنفلوطى وأظهر شخصية صاحب « الكأس الأولى » فقال : « ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه ، وأى ذريعة تذرعوا بها إلى ذلك ، لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة ، وضعيف إلى الغاية من الضعف » . وقد حكم عليه بالبلاهة ، ولم يذكر عن تربيته مايفهم منه أنه على غرارة وسذاجة ، بل الذى يتبين أنه كان صديق المؤلف ، وارتباطه بالصداقة يقضى بأن يكون فيما أحسب على غير ما ذكر .

وفى مقالة « عبرة الدهر » دليل آخر على مذهب الخياليين ، وهو ذكره (صاحب القصر) بأنه فاسد الأخلاق ، وإغفال البحث فى أن يذكر عن نشأته الأولى شيئاً نتبين منه أن بين جنبيه نفساً ملؤها الرذائل ، وكان عليه أن يصف « بلالا » الخادم الذى جعله فى موقف الحكم الحكيم ، وأنه من المبادىء العالية ما هو كيت وكيت ، وأن يذكر طرفاً من حنق زوجته وتلهفها على زوجها الذى كان يقضى الليالى الطوال وهو يداعب أزواج المحارم بمثل ما يداعب غيره زوجته . وهذا نقص كبير وخطأ فادح فى الأسلوب . ولكن المنفلوطى كما أسلفنا لم يهتم فى الحقيقة اهتمامه الزائد فى أن تكون جامعة لجمال الأسلوب الخيالى الذى ضمنه حكما

بالغة وعواطف شريفة بدون أن يتبين المواقف التى يقف فيها الرجل الغر الغمر . موقف المرشد الحـــكيم .

ومما يستدل فيه أيضا على تنكبه جانب الحقيقة سؤال (صاحب القصر) بلالا فى أى ساعة نحن من ساعات الليل ! فأجابه : فى الساعة الأولى ، ثم ذكر المؤلف أن الخادم لم يصل من الحديث إلى حد معين « حتى نَصَلَ خضابُ الليل واشتعل المبيض فى سوده » على أن الحديث يذكر فى بضع دقائق ليس إلا . . .

هذا نموذج مما ذكره المنفلوطى من الفصول القصصية ، ومن تشريح أسلوبه يعلم أنه احتذى مثال (الخياليين) فى إنشائه . وكل من تتبع الحركة الأدبية فى المشرق يعلم أنها مسوقة نحو الكمال بحكم ناموس « النشوء والارتقاء » وان كتاب المنفلوطى هذا إحدى حلقات من سلاسل الآداب التى لا يتم البحث بدونها .

وإنا نودع باستقباله ومما ضمنه من أسلوب جديد وتشبيه رائق واستعارات فخمة ، ذلك الأسلوب الخيالى المحض فى كتاب « كليلة ودمنة » وهو من تاريخ آداب المشرق بمثابة « لافونتين » من آداب المغرب كما أن غيرنا ودع بما عربه عبد الله ابن المقفع كتاب « ألف ليلة وليلة » وأقاصيص « عنترة » الممزوجة بالأبطال الخياليين مما كان بها وبأمثالها بدء نهضتنا الأدبية القصصية ، كما كانت « الالياذة » باكورة نهضة الغرب فى الآداب وفاتحة رقيهم وتقدمهم .

وجدير بكبار أدبائنا وهم يرون الغرب كل يوم يخطو خطوات واسعة نحو الحقائق ، أن يقفوا آثار مذهب الحقيقيين باطراحهم مذهب الخياليين جانباً وأن يطيلوا الفكر والتنقيب فيستبدلوا الأموات بالأحياء ويستعيضوا بالأرواح عن الأشباح ، وكفى .

٢

موضوعـــه

قسم المنفلوطى كتابه إلى عشرة فصول :

(١) الرسائل العلمية . (٢) الرسائل الأدبيـــة . (٣) الرسائل الأخلاقيـــة . (٤) الرسائل الاجتماعية . (٥) الرسائل السياسية . (٦) الرسائل الدينية . (٧) الدهـــريات . (٨) النسائيات . (٩) الروايات . (١٠) المراسلات .

ويجب أن نذكر هنا قبل كل شيء أن المنفلوطى لم يحسن تبويب الكتاب ، فقد أدخل مقالة « أفسدك قومك » فى الرسائل « الأخلاقية » وكان الأولى أن تكون فى « الرسائل الاجتماعية » ، كما أنه ألحق مقالة « مدرسة الغرام[1] » و « فى سبيل الاحسان[2] » بالثانية ، فى حين كان ينبغى أن تكون من موضوعات الأولى . وأنت إذا أردت أن تنزل هذا الكتاب المنزلة الخليق بها ، من حيث علاقته بالعلم والاجتماع والسياسة والأخلاق رأيته يضرب فى الأخير بسهم وافر ويجرى منه على عرق .

تقرأ روح الأخلاق فى مقالة « الكأس الأولى » و « أين الفضيلة » و « الغنى والفقير » و « وعبرة الدهر » و « مدينة السعادة » و « المرحمة » و « الصدق والكذب » و « الانصاف » . وتراه أيضاً يتعرض للموضوعات الاجتماعيـة فلا يلم بالبحث فيها

---

(١) ص ـــ ٢٦٥   (٢) ص ـــ ١٩٢

من عامة أطرافها ، على حين كان يستدعى درساً يسلب المرء فيه قراره ليسقط الناظر فيها على حقيقة ناصعة أو على علم جم أو فكر جديد .

يدلك على هذا بحثه عن الجرم فى مقالة « أفسدك قومك » [1] فإنا لا ننكر عليه أنه ذكر فيه ما يفهم منه أنه يحمل الذنب على المجتمع البشرى ، وعلى التربية الأولى ، وعلى القانون وعلى غير ذلك ، شان كثيرين ممن قاموا اليوم فى أوروبا يحامون عن المجرمين ويعدونهم كالبائسين يستحقون الرحمة ، ويطلبون تعديل القانون الجائر لتخفيف ما ينزل بهم من الويل والثبور . ولو كان المنفلوطى من كتاب الحقائق لتوسع فى هذا البحث ، وقرأ ما كتبه الأطباء فى هذه المسألة لتتم الفائدة .

ثبت مؤخراً بعد الفحص الطبى [2] إن للجناة من نقص ملكاتهم المادية والأدبية استعداداً لما يوقعونه من الجنايات منذ زمن مديد . وقد فحص « بنديكيت » أحد مشهورى أطباء فينا أدمغة كثيرين ممن يقترفون الجنايات الكبرى ، فوجدها بأسرها مؤوفة غير تامة التركيب ، وهذا الرجل يعدّ الجنون والجناية صنوين . ويرى رأيه هذا الدكتور « بوردى » الفرنسى ، وقد بحث فى أدمغة ستة وثلاثين جانياً حكم عليهم بالإعدام ، فرأى الناحية الجبهية مصابة ، والناحية الجدارية واسعة جداً . وهذا يدل على نقص القوة العاقلة ، والميل إلى الحنق والنزق . وقد نظر « غارُفالو » أحد مشاهير علماء العقوبات فى إيطاليا فى الجناة فلم يجد واحداً منهم خلواً من أمارات مادية وأدبية تحكى الانسان الأول .

وما ظهر من الحقائق الجديدة من أمثال هذا الاستقراء والاستقصاء هو موضوع الرأى العام فى أوربا فى شأن تنظيم العقوبة ، حتى نشأ عن هذه التجارب الطبية علم جديد يسمى « علم الجرائم البشرية ، انتروبولوجى كريمينل » وكان

---

(١) ص — ٧٦ (٢) المصنفون والمصنفات

للايطاليين اليد الطولى فى خدمة هذا الفن الجليل .

نال المنفلوطى من المدنية الغربية فى كلامه عليها ما لا أرضاه ولا يرضاه له كل من درسها حق دراستها وبحث فيها بحث العالم المتجرد عن المؤثرات دينية كانت أو قومية ، لا بحث خطيب أو أديب أو شاعر أو واعظ مرشد داع إلى وطنية أو أخلاق .

وردّد فى قوله هذا كلام ثلة من حملة الأقلام ممن لهم من أخلاقهم عصبية قومية أو نعرة شرقية . وسواء عندى كان قولهم هذا بدافع الوطنية أو الدعوة إلى إحياء آثار مجد لنا دثرت معالمه ، أو الاحتفاظ بما أبقى لنا آباؤنا من تراث عاداتنا خشية أن يخالطها الضعف أو تمازجها لوثة من لوثات الفساد ، فينشأ ناشئهم وقد انحل من وطنيته كما انحل من دينه ، وداخل الفساد أخلاقه كما أصاب عاده ومنازعه .

وإنى أشاركه فى كل ما جاء فى تلك المقالة إلا فى قوله : « إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقية ، لا بباريس وروما وسويسرا ونيويورك . وإن دعوناهم إلى مكرمة فلنسرد عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء المشرق وكلماته ، لا آيات روسو وبا كون ونيوتون وسبنسر . وإن دعوناهم إلى حرب ففى تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسون وبلوشر (بلوخر) ، وفى وقائع القادسية وإفريقيا والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترايتز والسبعين » .

هذا ما كتبه المنفلوطى إلى أبناء القرن العشرين من المشارقة ، وهو يريد أن يربوا تربية مدنية عملية يصدّون بها غارات الأجانب التى يشنونها عليهم من كل صوب وأوب ، وهذا هو السلاح الذى يحمل الشبيبة المصرية على أن يتسلحوا به ليقاتلوا أعداء الوطنية ويخرجوا من ديارهم من ابتزوا أموالهم وغلبوهم على أمرهم .

وكل يوم يريشونهم بسهام التعصب والطيش .

من الحكمة أن يدعو القائم بالاصلاح إلى قومية أو وطنية ، لكن بدون أن يزدرى مدنية الأمم الأخرى الناهضة ويعمل على الحط منها ، وهم الذين بها وطدوا دعائم استقلالهم ورفعوا منار مجدهم وسؤددهم .

وما أدرى كيف تقوم لنا نحن معشر المشارقة قائمة إذا اقتصرنا على ما ورثناه من المناحى والمنازع وأقبلنا على الأخذ بما أبقاه لنا آباؤنا الأولون من الآثار فقط ، بدون أن نمعن النظر فى آداب رجال الغرب وأخلاقهم وعاداتهم وتاريخهم ، وبالجملة نقف على سر تقدمهم . ولا أعلم لأى غرض نعنى بإرسال البعثات العلمية إلى البلاد الأوروبية ونادى على رءوس الإشهاد بأن هذا هو الذى يحقق لنا الأمل فى المستقبل ، إذا لم يكن المقصد منه درس تاريخ نابوليون وولنجتون وواشنطون ونيلسون وبلوخر ووقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز والسبعين ، أو لننهل حتى نروى من آداب روسو وباكون وزولا وألفريد دوموسه ، أو لنتبطن أسرار فلسفة ديكارت وباكون ونيوتن وسبنسر وغيرهم .

ويجب أن لا يغرب عن الإذهان أن ما توفر لقواد المغاربة من الأسباب والوسائل فى بيئتهم وبين بنى جنسهم وما كان يجول فى خواطرهم من الأمانى التى كانت المصالح تدفعها للانبعاث إلى حيز الوجود ، غير ما توفر لقواد المشارقة من العرب وغيرهم على اقتحام غمرات الردى فى سبيل الدفاع عن الحمى ، وهذا ما يدعو لاختلال التوازن فى الدهاء السياسى فى الفريقين بما يتذرع به من الحيل الحربية والدسائس فى مثل هذه الأحوال للنظر فى كتاب الغيب وقراءة مستقبل الأمم فيه مما ينجم عنه ما نراه من الاختلاف فى نتائج الحروب والمعارك نصراً كان أو خذلاناً .

وسواء صحت نظرية من زعموا أن من دواعى سقوط الدولة العربية جهل الامة

بتاريخ اليونان والرومان أو لم تصح ، فإن فيها حقيقة لا إخالها تخفى على أمثال الأستاذ المنفلوطى . وإذا اتخذنا هذه النظرية أصلا جاز لنا أن نبشر مساعينا بالإخفاق والحبوط ، ونحكم على حياتنا الاجتماعية والسياسية بالانحلال والاختلال فى مستقبل الأيام ، إذا قادنا الجهل إلى أن نحرّم على أنفسنا الوقوف على سر استبحار عمرانهم وانبساط ظلال مدنيتهم فى طول البلاد وعرضها ، فنحرم من الاستمتاع بعلومهم وآلاتهم .

ولو كان قوله هذا درساً يلقيه على صغار العقول من الطلبة الأطفال ليطبعهم بطابع حب الوطن فينشأوا على التضحية فى سبيله بالنفس والنفيس لما أوخذ بقدر ما يؤاخذ وهو فى موقف ودع فيه ـ كما قال عن نفسه ـ « الخيال والشعر ، وداع من يعلم أن الأمر أعظم شأناً وأجل خطراً من أن يعبث به العابث بأمثال هذه الطرائف التى هى بالهزل أشبه منها بالجد ، والتى إنما يلهو بها الكاتب فى مواطن فراغه ولعبه ، لا فى مواطن جده وعمله » .

ألا فليعلم الكاتب أن فى الغربيين من العادات ماهو خليق بنا نحن الشرقيين أن نغتبط به ونأخذ بالنافع الرافع منه ، والرجاء أن لا يظن بأننا بما نكتبه الآن نخدع الأمة عن نفسها أو نفسد عليها شرقيتها بتزييننا لها هذه المدنية تزيينا يجمع إلى استقلالها النفسى استقلالها الشخصى ، فلَشدّ وايمُ الحق ما نكون محتفظين بعاداتنا العربية الشرقية وآدابها ، ولكن ما نراه من تيار المدنية الغربية يريدنا على مجاراتها شئنا أم أبينا ، فان لم نعدّ لها عدّتها ولم نسر معها جنباً إلى جنب دحرتنا ، وربما أوردتنا موارد الهلكة ، غير حافلة بنا ولا آسفة علينا .

ومما أنكره عليه أيضاً تعرّضه فى مقالة الحساب [١] لولى عقله وأستاذه رجل الاسلام « الشيخ محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم بك أمين » . ولو اقتصر

(١) ص ١٠٦

على ذكر (المحسن) وذلك الرجل الذى كان فى حياته يتخذ فى أعماله ما يسمونه (الحيل الشرعية) وذلك (القطب) الذى كان أكبر تاجر من تجار الدين ، لو اقتصر على هؤلاء لكان أحسن صنعاً . وجل ما آخذ به الأول هو أنه « فاجأ جهلة المسلمين بما لا يفهمون من المبادىء الدينية الصحيحة والأغراض الشريفة ، فأرادوا غير ما أراد وفهموا غير ما فهم . وهذا ما دعا إلى إلحادهم (!) ومروقهم من الدين (!) بعد أن كانوا مخرّفين ، وأنه أوّل لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا المَلَك والشيطان والجنة ، وبين لهم حكم العبادات وأسرارها وسفّه لهم رأيهم فى الأخذ بقشورها دون لبابها فتركوها ، وإنه قال لهم إن الولى إله باطل والله إله حق فأنكروا الألوهية حقها وباطلها » .

أراد المنفلوطى بكلامه هذا أن يخطىء الامام بأن ما دعا إليه من المبادىء الدينية لم يحن بعد وقته ، وأن سواد هذه الأمة لم يتأهلوا لقبول هذه المبادىء ، جاعلا ذلك علة العلل فى إلحادهم ومروقهم من الدين . وهو قياس منطقى أعيذ المنفلوطى عن أن يحشو فكره بمثله من الأوهام والخيالات التى أبان فيها عن فكر ليس له حظ من التجربة والاختبار .

لا يستطيع صاحب النظرات — فيما أعلم — أن ينكر أن جل الداعين إن لم أقل كلهم أنجبهم الدهر وولدتهم العصور فى أوقات كانت فيها الأفكار حيرى يقارع بعضها بعضاً فى ميدان الحياة . ومن هنا نعلم الحاجة الماسة الى المرشدين فى مثل هذه الاحوال الحرجة والمآزق الضيقة ، وأنهم متى قاموا لفكرة إصلاحية لابد أن يلاقوا فى طريقهم من عثرات الفريق المخالف ما يستهدفون معه لضروب الايذاء فيقومون بين مثالب الطعن والنقد حتى تتسرب الفكرة الى بعض من يعمل على نشرها فى سرهم وجهرهم ليبقوا من سعيهم هذا خميرة حيوية فى المجتمع الانسانى لمن يأتى بعدهم ممن تجد لها من عقولهم مباءة فتتأصل فى نفوسهم فيستفيدون اذ ذاك ويفيدون

بما يدعون إليه ويسعون وراء إشرابه النفوس ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

بمثل هذا قامت المذاهب والأديان وتأيدت الآراء العلمية والنظريات الفلسفية . وإذا لم يكن الأمر كذلك فليُدْل لنا المنفلوطى ببرهان على أن مصلحاً قام بفكرة جديدة ولم يقم فى وجهه فى بيئته — حتى من بنى جلدته — من يعمل على محاربته أو مناهضته بكل ما فيه من قوة وقدرة .

ويالله كيف جاز له أن يحكم على أن المبادىء السامية التى دعا إليها الشيخ محمد عبده كانت مدعاة للالحاد والمروق من الدين بدعوى أن دعوته لم يحن بعد وقتها ، أو أنه يوجد ثمة من يمقتها أو ينبذها ، أو أنها نشرت بين فئة اتخذوا من هداها ضلالا ومن نورها دجى حالكا . وهؤلاء تلاميذه وأنصار دعوته — مصريهم وشاميهم وعراقيهم وحجازيهم فى عامة الأقطار — يتناغون بمبادئه ويتدارسون كتبه فلم ينظر إليهم الأستاذ المنفلوطى ونظر إلى فئة ضالة مضلة لا بد من وجودها فى كل عصر ومصر .

وكان الواجب على من لم يفهم ما أراد الأستاذ الإمام ، أو اشتبه عليه ما أراد ، أن يسأل عنه أهل العلم ، فقد قال أحد شيوخ العلم : « يستحيل فى نظر العقل أن يدعو الحق إلى الباطل ، والهدى إلى الإلحاد ، والدين الصحيح إلى المروق منه . بل ما أبطل مبطل ولا ألحد ملحد ولا مرق مارق إلا بجهله بالأصول الصحيحة ، ونبذه التعلم السديد وسلوك جوادّه القويمة » .

ولو كان من شروط الدعوة فقد المناوئين خشية مناهضتهم ومحاربتهم لما قام نبى بدعوة ، ولا عالم بإرشاد وتعليم ، ولكانت الفكرة الإصلاحية التى قويت وشاعت بالمناهضة تموت فى ثرى الرمس قبل أن يلحد القائم بها ، ولما كنا رأينا كتاباً منزّلا ولا أدباً غضا ولا علماً صحيحاً ، وبالجملة ما كانت للأمم مدنية زاهرة ولا عمران زاخر .

ولا وجه لانكاره على هذا الإمام التأويل، لأن اتخاذه التأويل قاعدة مما لا نكران فيه فى كل تأويل جرى اللسان بمثله ووسعته اللغة، وهى لثروتها وغزارة مادتها وسعت من المجاز ما يربو على الحقيقة، حتى صرح أئمة البيان بأن المجاز أكثر من الحقيقة. ولو أعار نظره إلى من سبق ذاك الإمام فى مسألة الجن والملك كحجة الإسلام الغزالى والراغب الأصفهانى والقاشانى ونحوهم لما أكبر هذه المسألة، وقد أوضح ذلك الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى فى كتابه « مذاهب الأعراب وفلاسفة الاسلام فى الجن » وأفاض فى هذه المسألة بما لا يبقى معه ريبة لمرتاب، فليرجع إليه من شاء [1].

وأما ما قام به الإمام من بيان أسرار الدين وحكمه فذاك فن قديم عنى به أئمة الاسلام وفلاسفته كالأئمة الذين تقدم ذكرهم وأضرابهم، وهو عندهم من أجلّ الفنون التى يجب درسها والتوسع فيها، وقد أخذوا على أنفسهم أن يفهموا الأمة أن الدين مُؤاخٍ للعقل مؤازر للحكمة ليس فيه ما يعلو عن العقل أو ينبو عن الفهم، وحجتهم فى ذلك أن القرآن الكريم هو الذى مهد السبيل للتعليل وصرح بذلك فى آيات لا تحصى، كما أوضحه الإمام ابن القيم فى كتاب « التعليل »، وقد حذا حَذْوَهُ من المتأخرين حتى برع فى هذا العلم — علم الحكم والأسرار — الإمام ولى الله الدهلوى فألف كتابه المشهور « حجة الله البالغة » وأفرغ جهده فى استنباط الأسرار فى العبادات والمعاملات، حتى جاء فى مجلدين كاملين حافلين.

ولقد سفه المنفلوطى رأى قاسم أمين أيضاً وأنحى عليه لأنه دعا المرأة المسلمة وقد رآها فى أحط دركات الجهل إلى أن تلم بمعرفة ما يلزمها فى جهاد الحياة وجلادها من تربية وتعليم لتكون امرأة صالحة لهذا المجتمع فتدير شؤون منزلها أو تضرب فى الأرض لترتزق إن عضّها ناب الفقر وفجعت بموت من يعولها ويكفيها، وهو

---

(١) نشر كتاب (مذاهب الاعراب فى الجن) فى الأجزاء الثلاثة الاولى من المجلد الخامس من مجلة المقتبس، ثم أفرد منها فى كتاب خاص على حدة.

لم يَدْعُها إلى ذلك ــ كما يعلم المنفلوطى ــ إلا خشية أن يمزق الحجاب وهى من الجهل المريع بمكان .

وما ذنب قاسم أمين إن بين رأيه ولم يأبه لكيد الكائدين من تجار الأدب والدين « والمرأة أخذت بالأسهل من رأيه والألصق بنفسها من نصيحته ، فتبرجت ورفعت برقعها ، قبل أن تنسج لها برقعاً من الأدب والحياء » .

ومما لا مشاحة فيه أن رجل المرأة قاسم أمين قام بدعوته أحسن قيام ، فوصف الدواء بعد أن شخص الداء ، ولو كان فى البلاد الأوروبية لا قيمت له النصب والدمى ــ ولو كان صاحب النظرات لا يقول بالتماثيل ــ احتفاء به واعترافاً ببيض أياديه وسابقة فضله عليهم ، ولو كان المنفلوطى يقدر عمل العامل وفضل الفاضل ، لما جرؤ على أن يقول فيه : « ما رأيت باطلا أشبه بالحق من باطله »[1]

(١) مقالة طبقات الكتاب ص ٤٢٢

٣

آراؤه

ذهب الأستاذ المنفلوطى فى طائفة من آرائه مذاهب فريق من فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر فى أوروبا ، حتى شبهه بعضهم بروسّو من حيث نظره إلى المجتمع الإنسانى ، ومما قالوه : إن ما كتبه روسو فى فن التربية والتعليم قائلا : « أيها الرجال ، لا ترهقوا صغار النشء على أن يفكروا كما تفكرون ، ويعتقدوا ما تعتقدون . ولا تحاولوا إفساد ملكاتهم بهذه الفضيلة الموهومة والحرية المطلية التى هى فى مذاهب العقل غاية العبودية ومنتهى الاسترقاق الخ .... » ـ إن ما قال روسو تعرض له المنفلوطى فى فصل له عنوانه « مدينة السعادة » (١) « وأغرب مالفت نظرى أنى لم أر فى تلك المدينة ذلك التمايز الذى أعرفه فى مدائننا بين الناس فى منازلهم ومراكبهم وأزيائهم ، كأن جميع سكانها سواء فى حالة المعيشة ودرجة الثروة » .

وفى المنفلوطى نزعة اشتراكية تتجلى على أشدّها فى هذا الفصل فى قوله : « وحسب الرجل من البشر بيت يُؤويه ، ومزرعة صغيرة يقتات منها ، ودابة تحمل أثقاله ، ثم لا شأن له فيما سوى ذلك » .

وقالوا : يرى روسو أن الدُّور العالية التى شيدتها الحكومات للتعليم هى التى تغرس مبادىء الجهالة فى النفوس ، وتبعد الإنسان عن عقله وفطرته (٢) .

والمنفلوطى يقول : « وأى حاجة إلى المدارس فى مثل هذا المجتمع وليس أبر

---

(١) ص — ٣٨ (٢) التربية الاستقلالية

بأبنائنا منا ، فنحن الذين نتولى تعليمهم وتهذيب نفوسهم وتمرينهم على العمل النافع ، فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم كيف يرمون البذور وكيف يستنبتونها ، وكيف يصنعون الآلات الزراعية وكيف يستعملونها .... الخ » .

وبالجملة فمن رأى الشيخ المنفلوطى أن لا يكون فى هذا المجتمع سيد ولا مسود ، ولا غنى ولا فقير ، ولا حاكم ولا محكوم ، فالشطر الأكبر من الفلسفة التى يقتفى أثرها هى فلسفة خيالية لا تأثير لها فى أبناء القرن العشرين إلا بقدر ما للأساطير من التأثير فى العلوم الرياضية . وهى إن جاز أن يكون لها أنصار قبل مائتى سنة أو يزيد فلن تجد لها فيما أحسب من هذا الجيل الجديد الناشىء على أفكار دارون وهيكل وهكسلى وسبنسر ورانكى وموسمسن وبالزاك وزولا نصيراً وظهيراً ، لأنها مخالفة لسنن الطبيعة والحياة العملية .

وقد ذهب مذهب (اسكندر دوما فيس) ولفيف من مفكرى المتأدبين الغربيين فى مقالته « غرفة الأحزان » فى المرأة المجرمة من حيث أنهم يمهدون لها الأعذار ، ويرون الرجل أجدر باللائمة منها ، لأنها ضعيفة مفرطة الشعور ولأنه هو الذى هم بها وأراد أن ينزل بها السوء ، فخدعها إذ عاهدها أن تكون له زوجة ويكون لها بعلا ، فسلبها قلبها وشرفها وعفتها ، وغادرها حين علم أن فى أحشائها جنيناً يضطرب ، وبين جنبيها ناراً تضطرم ، وكان سبب شقائها حتى أصبحت حزينة ذليلة تفضل الموت على عيش لا تستطيع معه أن تكون زوجة لرجل أو أماً لولد ، وأخذ المجتمع البشرى يتهكم بها ويعبث ، مما زادها حزناً واكتئاباً .

وقد مثل لنا هذه البغى وقد تركت وراءها ما تراه من النعمة الواسعة والعيش الرغد فى ذلك القصر الذى كانت متمتعة فيه بعشرة أمها وأبيها ، إلى منزل حقير فى حى مهجور لا يعرفه أحد ولا يطرقه طارق ، لتقضى فيه البقية الباقية من حياتها

ولم يكتف ببيان هذه الجناية وحدها ، بل جعل أن أمها وأباها قضيا حزنا

لفقدها ويأسا من لقائها . وختم الحادثة بأن أضاف إلى تلك الجنايات جناية أخرى وهى هلاك المرأة المجرمة بعد أن أودع نفسها من العواطف الشريفة ما شعرت معه بمصيبتها ، حتى ساورتها الهموم وبلغت منها مبلغاً أودى بحياتها ، وهكذا ضاعف الجرم على الرجل وجعله كاذبا وخادعاً ولصاً وقاتلا . وختم المقالة وهو يمحض الرجال القاسية قلوبهم النصح للرفق بضعيفات النفوس من النساء .

والظاهر أن الأستاذ المنفلوطى كان لا ينظر إلى القضية من حيث هى ، بل كان قلمه حين يأتى على وصف حادثة يختلف باختلاف المظاهر والمؤثرات ، فبينا نرى صفحات مقالته هذه مكتظة بما يملأ النفوس شفقة ورحمة وعطفاً وحناناً على العاهرة ، إذا به يضن عليها بجندى يقف ليخفرها ممن يريد أن يسلبها من الحقوق ما لم يبق لها منه إلا الذماء ، ويستكثر عليها ذلك فى موقف هى خليقة فيه بالشفقة والعناية أكثر من كل المواقف .

ولقد رأيناه وهو يتكلم على « المرقص » فى الأزبكية يحمل على الحكومة المصرية حملة منكرة ويحتدم غيظاً وحَنَقاً لأن الحكومة — التى هى مسؤولة أمام القانون عن استقرار الأمن واستتبابه — تبعث بجندى يحمى أبواب العاهرات لئلا يعبث المشاغبون بالأمن والسكينة أو يعيثوا فى الأرض فساداً .

ومما قال « إن العين لا تكاد تملك مدامعها سحاً وتذرافاً كلما أبصرت هذا الجندى الشريف واقفاً هذا الموقف الذليل يسمع قراع الدفوف ، لا قراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء ، ويحمى الفسق والفجور لا القلاع والثغور . وما أعجب بشىء عجبى لهذه الحكومة التى تضن بجنديها أن يشتمه شاتم أو يلمسه لامس فتغضب له غضبة مضرية تتراءى فيها الشهامة والحمية والعزة والنخوة ، لا تضن أن تؤجره نائحة فى الجنائز أو قوادة فى المرقص » .

هذا ما قاله المنفلوطى ، وما يحدوه إلى هذا إلا أنه ودّ أن يكون فى طليعة

من يعمل بالدرس الذى ألقاه على الرجال القاسية قلوبهم ليعلمهم فيه الشفقة والرحمة والاحسان !!! وما أراه فى مبدإه هذا الا كتولستوى الفيلسوف الروسى الشهير الذى تهيج هائجته على الحكومة الروسية ويصمها بالمعرة والدعارة لأنها تبعث بالأطباء إلى المواخير العامة وتعهد إليهم أن يعنوا بتطهيرها خيفة أن تنتقل جراثيم الأدواء الدوية من هؤلاء الباغيات فتعم الشعب بأسره ، وتراه يرمى الأطباء بكل مكروه ، بدعوى أنهم يسعون وراء إشاعة الموبقات ، وتسهيل أسباب الفسق والفجور [1] .

ويقضى علينا الأخذ برأى هذا المصلح الأخلاقى الروسى أن نهمل تعهد أماكن الفسق والمواخير ، وأن ندع الجراثيم تفتك بمن ملكت عليهم أمرهم لنشر العدوى فى الآخرين ، وتنتشر الأمراض الوبيئة الوبيلة فى الأمة حتى تهلك عن آخرها ، بدعوى صون أخلاق الشعب كيلا يتطرق إليها الفساد والخلل .

وقد رحم السيد المنفلوطى المرأة البغىّ فى غير هذا الموضع أيضاً وحض على التزوج بها [2] ليردّ إليها عرضها ، وزعم أن ذلك من أعظم القربات ، وعد الرجل الذى يردُّ العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه أشرف ممن يمنح الحياة فاقدها ، على شرط أن يكون الباعث على الزواج الرحمة والرأفة والحنان والشفقة ، لينظر فى إصلاح قلبها ويحاول أن ينزع من جنبيها ملكة الفساد الراسخة فى نفسها ، ويداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذى يصور فى نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها .

ومما قال : « ليت الرجال يأتمرون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة (الزواج) كل امرأة ساقها فقرها وفقر عائلها إلى البغاء » .

وقد صرح فى هذه المقالة أن « بغاء البغى شقاء ما جناه عليها إلا الرجل، فجدير

---

(١) رواية البعث لتولستوى

(٢) مقالة الاحسان فى الزواج

به أن يغرم ما أتلفه ، ويصلح ما أفسده » . وتعرض للمرأة أيضا فى مقالة (التوبة) فكأن بين جنبيه جذوة نار من الحقد والموجدة تتقد على الرجل لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الانسانى لأنه لا يعاقب القاتل على جرمه ، ولا يسلكه فى سلسلة المجرمين .

والغالب أن ثقته بالجرائد المصرية ضعيفة جداً ، فهو يراها نادياً من أندية القمار ، والكتاب جماعة اللاعبين ، والرءوس المصرية موضوعة على مائدة الألعاب كما توضع الأكر على طاولة « منضدة » (البلياردو) .

والسيد وطنى سلمى معتدل يفضل اتفاق الأحزاب السياسية على اختلافها ، وتعارفها على تناكرها ، ما دامت الغاية من تأليفها « تحذير الوطن من رق العبودية » .

ومن رأيه أن العلماء والجهلاء سواء ، وليس بين الفريقين من الفرق إلا أن هؤلاء لا يعرفون كيف يعبرون عن آرائهم وأفكارهم ، وأولئك أعرف منهم فى كيفية إفضاء الحكمة إليهم ، وسعيهم وراء وعظهم وإرشادهم ، وأن ما ينطق به الحكيم العالم من جوامع الكلم هو نفس ما يأتى به الجاهل من الأمثال ، لولا أن كلام الأول فى أسلوب مجوّد ، ومقال الثانى فى تعبير مبتذل .

يقول قوله هذا ثم يكتب فى مقالة « موت العظماء » ما نصه : « ليست ، هذه العشرة الملايين (يعنى المصريين) التى نراها إلا أطفالا رضع ، وسوائم رتع ، لولا علماؤها وأذكياؤها الذين يقودونها إلى الخير ، ويأخذون بيدها فى ظلمات الحياة » .

فليت شعرى إذا كان العلماء والجهلاء فى مستوى واحد من العلم والتربية فلماذا ينحى على أمته وأبناء دياره وينزلهم منزلة الحيوانات العجم وفيهم العالم والجاهل . وإذا كان المنفلوطى قد وجد فى معاجم اللغة أن مادتى العلم والجهل من الألفاظ المترادفة فيكون كلامه حينئذ جامعاً لمتناقض الأحكام .

٤

لغته

لم أر فيما رأيت من الـكتب الممتعة التى وعت نتاج قرائح أهل الأدب فى هذا العصر ــ كالريحانى وأمثاله ــ أفصح لغة ولا أصح تركيباً من كتاب « النظرات » فانك ترى على فصوله مسحة العربية الأولى ، وقد خلت فى الغالب من ركاكات الـكتاب الجدد والمبتذل من تراكيبهم وجملهم المتعاظلة التى اعتورتها العامة حقبة من الزمن فانسلخت فيه عن العربية الخالصة حتى أصبحت إلى الأعجمى أقرب منها إلى اللسان العربى المبين .

بيد أننا نرى من الواجب أن لا نمسك القلم فى نقد ما رأيناه من سقطاته فى جمل نزلت منزلة أقوال العامة ، وألفاظ لغوية كان الأجدر بكتاب أدبى مثل هذا أن يكون مصوناً عنها .

فمما نأخذه علية استعماله فعل (ازدرى) متعدياً بالباء ، والعرب لا يعرفونه إلا متعدياً بنفسه فى قوله فى مقالة « النبوغ » : من العجز أن يزدرى المرء بنفسه » . واستعماله (الوظيفة) بمعنى (المنصب) وقوله : « خرج فى المنطق عن الحيوانية والناطقية » والصواب أن يقال : « من الحيوانية والناطقية » وقوله « جداً عجيب » والأولى أن يقال « عجيب جداً » لأن « جداً » إذا قدمت أضيفت إلى ما بعدها . ونسبته « بديهة » على « بديهى » وكان عليه أن يقول (بَدَهى) كما يقول فى « بجيلة » (بَجَلى) واستعماله (تلاءم) بمعنى التأم فى قوله فى مقالة الجمال « غير متناسبة ولا متلائمة » . وقوله « ويحبسن عليها أنفاسها » فان حبس هنا لا تتعدى

إلا بـ « عن » فاذا تعدت بـ « على » كانت بمعنى « الوقف » . واستعماله « البسيط » بمعنى « ساذج » وقوله « ودققت النظر » والعرب تقول « دقق الشيء إذا أنعم دقه » . واستعماله « تربى » بدل « ربى » . وجمعه لفظة (مثل) على « آمثلة » والمسموع « أمثال » . وقوله « فى ألسنة العامة » والصواب على « ألسنة العامة » . واستعماله (الأعواج) بدل « الاعوجاج » و « احتجر » بمعنى « منع » . وقوله « لا تسلم إلا الحياة » وهى عامية والأفصح « ولا تفادى إلا بالحياة » . وإدخال واو الحال على الماضى بعد إلا فى قوله « فما رأيت سطوراً مقطوعة الأواسط متشابهة الأطراف إلا وقرأتها » وقوله « نهشه فى إصبعه » والصواب « نهش إصبعه » واستعماله « الأعراض » بمعنى « العلامات » وقوله : « يودعه الله فى فطرة الإنسان » والصواب « يودعه الله فطرة » الخ ....

هذا ما رأينا أن ننبه على ما ورد فى كتاب النظرات من الألفاظ والجمل مما لا عهد للعرب به ، كما أن ثمة ألفاظاً أغفلنا ذكرها كاستعماله لفظة (المراسح) بدل (المسارح) و (البالونات) عوضاً عن (المناطيد) و (الميكروبات) بدلا من الجراثيم ، والطاوله بدل (المنضدة) .

والعاقل يغتفر له هذه الهنات اليسيرة إذا عرف أن الكاتب بين ظهرانى أمة معظم صحفييها وأدبائها وكتابها يرون أن فى هذه اللغة التى يكتبون بها الغناء والكفاء عن أن يتحدّوا العرب العرباء فى مناحى أساليبهم وأقوالهم ، ولله فى خلقه شؤون .

٥

وصفه

وهب السيد المنفلوطى ملكة خارقة فى الوصف تكاد تكون فيه طبعاً وسليقة . وإنى لأقرأ له القطعة الأدبية فيخيَّل إلىّ من سحرها أن نفحه من نفحات قلم (هيكو) تهب علىّ فلا أكاد أتم قراءتها حتى أهمّ بإعادتها المرة بعد الأخرى ، وأحمد الله على أن وجد فى هذا العصر من ينفخ فى هذا الهيكل البالى من الأدب روحاً جديدة ليحيا حياة رغد وهناء .

قال فى مقالة الغد : « الغد بحر خِضَمّ زاخر يعبُّ عبابه ، وتصطخب أمواجه فما يدريك إن كان يحمل فى جوفه الدر والجوهر ، أو الموت الأحمر » .

« ولقد غمض الغد عن العقول ودق شخصه عن الأبصار حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها لا يدرى أيضعها على عتبة القصر ، أو على حافة القبر » .

« الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه العقول ، وتستدرجه الأنظار ، فلا يبوح بسر من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال »

« كأنى بالغد وهو كامن فى مكمنه ، رابض فى مجثمه ، متلفع بفضل إزاره ، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ، ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء » .

« يقول فى نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا البانى أنه يبنى للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ماجمع الجامع ولا بنى البانى ولا ولد الوالد »

إلى أن قال : « أيها الشيخ الملثم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى لمحة واحدة من لمحات وجهك . أو لا فاقترب منا علنا نستطيع أن نستشف خيالك من وراء هذا اللثام المسدول ، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك » .

« أيها الغد ، إن لنا آمالا كباراً وصغاراً ، وأمانى حساناً وغير حسان . فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها أأذللتها وأهنتها ؟ أم كنت لها من المكرمين ؟ لا لا ، صن سرك فى صدرك ، وأبق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا ، حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا فى أرواحنا ونفوسنا ، فانما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأماني وإن كانت كاذبة » .

وحسبنا هذه القطعة الذهبية التى أوردناها هنا دلالة على مكانة الكاتب من ملكة الوصف ، ومبلغ ما وهب من القوة الطبيعية فى النثر الشعرى أو الشعر المنثور .

وللمنفلوطى فى بعض فصول كتابه تشابيه جميلة ، واستعارات جديدة ربما غمضت على عقول من اعتادوا تمجيد القديم من المتأدبين ، أو تعامى عنها بعض من يرى أن المعاصرة حرمان ، فلم يرفعوا لها شأنا ، ولم يقيموا لها وزناً كقوله : « فتشت عن الفضيلة فى قصور الأغنياء ، فرأيت الغنىّ إما شحيحاً أو متلافاً . أما الأول فلو كان جاراً لبيت فاطمة (رضى الله عنها) وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد إصبعيه إلى أذنيه ثقة منه أن قلبه (المتحجر) لا تنفذ إليه عاطفة الرحمة ، ولا تمر بين طياته نسمات الاحسان » .

وربما أنكروا عليه وصفه القلب بالتحجر وعدّوا جعله للاحسان نسمات إغراقاً منه فى المجاز ومبالغة فى الاستعارة ، ولكن الحقيقة فى غير ما يزعمون .

ومثل قوله : « فقد عقد رياء الناس أمام عينى سحابة سوداء أظلم لها بصرى

حتى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً ولا كوكباً ساطعا » ، وقوله « درع منسوجة من نجيع » ، وقوله « بهذه الصواعق التى يطرونها علينا من سماء الصحف » .

ومن جمله الجميلة قوله : « وما نشر الظلام أجنحته السوداء فى الأفق حتى رأيتنى أحير من دمعة وجد فى مقلة عاشق ، يدفعها الحب ويمنعها الحياء . لا أعلم هل أنا سر كامن فى باطن الظلماء ، أو حوت مضطرب فى أعماق الماء » .

وقوله أيضاً : « وهناك أحسست بسلسبيل بارد من الأمل يتسرب إلى قلبى فينقع غلته ، ويطفىء لوعته »

وقوله فى مقالة يخاطب بها المحزون : « أنت حزين ، لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينك نوراً ، وقلبك سروراً . وما هى إلا كلمحة الطرف أن افتقدته فما وجدته » وقوله « ابتسامة هادئة » الخ .

وقد أجاد الشيخ فى مقالة « غرفة الأحزان » أيما إجادة ، حتى إن قارىء القصة ليجد أثرها فى نفسه بعد قراءته لها فى دمعة تترقرق فى جفنه ، فتنمُّ عن عواطفه وشعوره . وما هى لو علمت إلا جائزة القلب إلى اليراع الذى خط تلك السطور بأسلوب يتدفق شعراً وشعوراً . ولا يسعه إلا أن يكبر ذلك الوصف الذى ألمَّ بعامة أطراف الحادثة إكباراً ، فكان جامعاً لما تشعر به النفس من دبيب الآلام . واعياً لما يصدر عن النفس السامية من شريف العواطف .

٦
روح المؤلف

إذا صحت النظرية القائلة بأن « الكتابة صورة الكاتب » ، جاز لنا أن نحكم على المنفلوطي أنه من جماعة المتشائمين Pessimistes ولكن لا في مذهب من المذاهب الفلسفية أو التاريخية والسياسية ، بل هو ممن يرون أن لا سعادة في الحياة ولا هناء ، وأن من العبث أن يلقي المرء بنفسه إلى التهلكة في معترك الحياة مادامت الرذائل آخذة من النفوس مآخذها ، وأن ما نسميه فضيلة ليس إلا خداعاً ورياء ونفاقاً ، دعيت بالفضيلة وهي ليس لها ظل في هذا الوجود .

هو ينظر إلى المجتمع نظر الحانق الناقم لأنه يعتقد أنه « مصاب بالعقم في فهمه ، والاضطراب في تصوره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقة بوزنه وتقديره ، أو هو يسمى الفقير سافلا ، وطيّب القلب مغفلا ، وطاهر السريرة بليداً ، والحليم عاجزاً .

وإنك لترى في مقالته « أين الفضيلة » روح اليأس مجسمة ، وما يتخيله أو يفكر به هو قد مر بخاطر كثيرين من أدباء المشارقة والمغاربة ، وكثيراً ما أجهد الكاتب من هؤلاء نفسه ليضع قصة يأتي بها على شرور العالم ومفاسده ، وكنت كلما مررت بسطر من سطوره تصب اللعنات على هذه الحياة التي تراها مثل الشقاء ، وتتمثل آنئذ بقول الشاعر العربي الحكيم :

إنما نحن بين ظفر وناب — من خطوب أسودهن ضراء
نتمنى ، وفي المنى قصر العمر — فنغدو بما نُسرُّ نُساء
صحة المرء للسقام طريق — وطريق الفناء هذا البقاء

بالذى نغتذى نموت ونحيا أقتلُ الداء للنفوس الدواء
ما لقينا من غدر دنيا، فلا كا نت ولا كان أخذها والعطاء
من فساد يحويه للعالم الـكو ن ، فما للنفوس منه اتقـاء
قاتل الله لذةً لأذانا نالهـا الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقد فإيجادنا علينا بـــلاء

يدلك على هذا أيضاً ما تقرأه له فى مقالة « الشعرة البيضاء » ويعنى بها شعرة المشيب التى رآها تلوح فى فوده ، فخاطبها مؤنباً إياها بأنها تدنى له الموت ، وبالغ فى تأنيبها وتعنيفها ، وأغرق فى عتبها ولومها ، ثم رجع بعد ذلك لنفسه وكأنه ندم على ما فرط منه بجنبها وأخذ يخاطبها قائلا :

« ما الذى يحمله فى صدره لك من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه فيحزن على ذهابه ، ولم يذق حلاوة الحياة فيجزع لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصنا رطباً فيأسى عليها عوداً يابساً .

« ما الذى ينقمه عليك من الشؤون رجل يعلم أنك وحى الأمل الذى يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء إلا لمحات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأكدار . كما تـكدر أنفاس الحزن الحارّة صفحة المرآة .

« أليس كل ما أعدّه عليك من الذنوب أنك طليعة الموت الذى يخلصنى من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام ، الحافل بالآلام والأسقام ، الذى لا أغمض عينى فيه إلا لأفتحها على صديق يغدر صديقه ، وأخ يخون أخاه ، وعشير يحدد أنيابه ليمضغ عشيره ، وغنى يضنّ على الفقير بفتات مائدته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته ، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بين مُلك الملك وربوبيته ، ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل ، وظل زائل ، وغرض سافل ، وعيش باطل ، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها ، وأنياب تمزقها ،

وعيون حائرة ، فى رءوس طائرة ، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ما تحتها »

وهكذا رأينا المنفلوطى يرمى هذا العالم بنظرات كلها شؤم ، كما هو شأن جماعة المتشائمين فى عامة شؤونهم وأطوارهم وأحوالهم . ولولا أنه : « لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يعتقد إلا ما يسمع صداه من جوانب نفسه » لقلنا إنها خطرات شاعر وجدت لها من سماء مخيلته مطلباً ، ثم ما لبثت أن أدركها الغروب . أما وإن هذا الكلام هو صورة من صور نفسه فلا جرم أنها حالة نفسية كثيراً ماتعرو من يميلون إلى التجرد عن المادة ، ويرون فى سكون الموت وظلمته حياة مفعمة بالحركة والنور ، والرغد والسرور .

« كتبت فى دمشق »

الحشوية والوهابية [1]

فلما قام بين المصلحين أحد بفكرة اصلاحية أو مشروع جديد ولم يقم فى وجهه من أبناء جلدته مناهض ينوص للفتنة كل مناص ، فيتخذه سبة يتقوّل عليه مختلق الأقاويل ، وينقل عنه مختلف الأحاديث ، مما هو ليس من الحقيقة فى شيء . فان كان من أهل الحكمة والسداد وُصم بخرق الرأى ، أو من أولى الخير والصلاح رمى بشبهة فى الدين ، أو كان من حملة العلم الصحيح غمطوا من قدره ولم ينصفوه ، وربما ألّبوا عليه طغمة الجهل وزعانف القوم فيذهبون بآرائه مذاهب شتى ، وقد يوقعونه فى الردى فيجنون على العلم والدين جناية تدور مع الأحقب ، كما وقع ذلك لكثير من مشاهير المشارقة والمغاربة .

على حين أن ذلك المصلح لم يأت أمراً إدّاً يأباه العقل والدين ، وما ذنبه سوى أنه أتى بما لا عهد لابناء الوسط به أو لم يجدوا عليه آباءهم ، وقد سمى حجة الاسلام الغزالى أمثال هؤلاء الناهضين حشوية . وهم اليوم ضروب : فمنهم حشوية الدين ، وحشوية العلم ، وحشوية السياسة .

ولشد ما لقى المصلحون من شيوخ السوء حشوية الدين الجامدين فى سبيل الدعوة إلى الحق ، وما نالهم من النكبات مادياً وأدبياً . ومهما يحاول هؤلاء عرقلة مساعى أولئك أو اضطهادهم وظفرهم بأمنيتهم فى بعض الأحايين فانهم ليحاولون المستحيل فى الضغط على تلك الموهبة الفكرية التى امتاز بها أولئك المصلحون عن غيرهم من البشر ـ الميزة التى ولدت لهم أعداء الدّاء ، يحسدونهم فى السرّاء

---

(1) نشرت فى (المقتطف) فى الجزء الثالث من المجلد الرابع والثلاثين ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧

والضراء ، ويرمونهم بما هم منه براء ، كما هو الحال الآن فى حشوية الدماشقة ورميهم علمــــاءهم الأطهار ، وأحرارهم الأخيار ، بالوهبنة تارة ، والزندقة تارة أخرى .

ألا وإن التاريخ يعيد نفسه ، فقد مثّل لنا رمى هؤلاء الحشوية للمصلحين بالوهابية رمى الروافض لأهل السنة بالنواصب ، وتلقيب القدَرية لهم بالجبَرة ، وتسميه الجهمية لهم بالمجسّمة والمشبّهة . على أن هذه الأقاويل لا تغمط من قدرهم ، ولا تحط من علمهم شيئاً ، بل على العكس من ذلك فانها قد تــكون واسطة لرفعة شأنهم وتألّق شهرتهم كما قال الغزالى : « واستحقر من لا يُحسَد ولا يُقذف ، واستصغر من الـكفر أو الضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين ﷺ وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجمل وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا انه أساطير الأولين . . . » ومن ذلك قول ابن حزم « ومن حقق النظر ، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . . . » .

بيد أنى مع كل هذا وذاك أرانى فى حاجة شديدة تدفعنى إلى أن ألفت أنظار الجمهور إلى أنه لا يسوغ الاعتماد فى مثل هذه الحال على تقوّل الخرّاصين من أولئك الطغام الحشوية أنصار الحزب القديم ، أو الاخلاد إلى الجمود على ما نقل عنهم هؤلاء ومن لفّ لفّهم من الغاغة . إذ لو أخذنا القول على عواهنه كما يلقى على مسامعنا جزافاً دون بحث ولا نظر لاختلط الحابل بالنابل ، والعالم بالجاهل ، ولم نعد نميز بين من كان فى قومه مثال الـكمال فأتى بأعمال عظيمة وأحسن صنعاً ، وبين من كان شراً مجسما فعاث فى الأرض فساداً وساء عملاً .

وللوقوف هى جلية الأمر يجب أن نقلب صفحات التاريخ ، وننظر ما أثر

عنهم من نثٍ وقول وما أبقوا من عمل . ولا يكفي ذلك لمعرفة حقيقتهم تمام المعرفة بل يجب أن نستقرئ حركاتهم أيام حياتهم استقراء عالياً دقيقاً ثم بعد ذلك يخوّل لنا أن نحكم عليهم بعد أن كنا تصورناهم حق التصور ، فان وجدناهم طبق ما يقال عنهم قبلناه وحوّلنا مجرى أفكارنا ، وإلا رفتناه بأخمص أقدامنا وضربنا به عرض الحائط .

ومما يجرى هذا المجرى وتجدر العناية به وإعطاؤه جانبا من التمحيص والتدقيق مسألة (الوهابية) التي طار في عامة الأقطار نبأها ، واستلمت زمامها (الحشوية) فأصبحت تديرها ما شاءت وشاء لها الهوى ، حتى غمض الحق على طالبيه ، فذهب بين جهل شيوخ السوء وأغراض أعداء التجديد . وما كان أحرى بهؤلاء أن لا يخوضوا في هذه المسألة ، فقد آل نبأ الوهابية إلى أن صار سمراً وفكاهات ، ومن ذلك أن كل من روى من المدرسين أو الخطباء أحاديث في الشرك جلياً أو خفياً يتناجون بأنه يرمز للوهبنة ويسمونه (وهابياً) ، وهكذا إشاعتهم عن غرف القراءة العامة التي أسست في حاضرتنا حديثا [1] ونوهت بها جرائد سوريا وبيروت بأنها منتدى الوهابية . ومن النكت الغريبة أن أحد الشيوخ عنده لوح مكتوب عليه كلمة (ياوهاب) ، وله إطار نفيس ، فقيل عنه إنه لم يؤثر هذه القطعة إلا لأنه مغرى بالوهابية . وكذلك من كان اسمه (عبد الوهاب) صار يقال عنه إن أباه كان وهابياً حتى آثر تسمية ابنه باسم زعيم تلك الفئة ، مع أن زعيمهم يدعى « محمد بن عبد الوهاب » فكان الأجدر تسميتهم (محمدية) . وهكذا قل عن تلقيبهم الأهرام والمقطم وأشباههما بأنها جرائد الوهابية . ومثله تشهيرهم بأن كل من هاجر من وجه الاستبداد نازحاً عن بلاده هو من الوهابية ، وكذلك أبطال الحرية وخطباء الدستور ، مما يضحك الثكلى ويبكي العاقل .

---

(١) هي غرف القراءة التي أسستها في دمشق جمعية النهضة العربية وسبق التنويه بها في ص ٨ وما بعدها من هذا الكتاب

وهكذا الحال الآن ، فلا تسمع فى المنتديات ــ عامة كانت أو خاصة ــ إلا الوهابية والوهبنة لكل من أنكر منكراً ، أو ناقش فى أمر أو بحث فى مسألة . وقد عرف الجميع سر المسألة ، بل انقلب الأمر على القائمين على الوهابية وانعكست القضية إذ زرعوا فى أذهان العامة من الرجال حتى النساء منفرداتهم وما يؤثر عنهم وأصبح كثير من الناس يدقق فى تلك المسائل ويلهج بها ويسأل عنها النبهاء المنورين ليصل إلى أصلها . وكثير من أولى السذاجة والفطرة توهبن بفضل تلك الثورة التى هاج ثائرها منذ عهد غير بعيد .

ولقد كان بعض الفلاسفة يسر جداً باشهار بعض المسائل ولغط العامة بها أو اضطهاد الحكومة لأهلها فيقول « لا أنجح من ذلك لأشهار أمرها وإدخالها إلى كل أذن ودار » وكان يقول : « لو شعر الثائرون فى وجه أمر والقائمون عليه ماذا ينتج تثويرهم وهياجهم من رد الفعل وانعكاس الأمر عليهم لقبعوا رؤوسهم ولم ينبسوا ببنت شفة » .



قالوا « الحقيقة بنت البحث » . نعم ، وهذا ما حدا بى إلى أن آتى فى هذه العجالة على نتف من حقيقة أمر هؤلاء الوهابية ليتبين الرشد من الغى ، ويعلم أولئك المموّهون أن للحق أنصاراً ، وأن التاريخ لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا احصاها .

وبعد فمن هم أولئك الذين يفترى عليهم ما يفترى ؟

هم أولئك الطائفة من الحنابلة التى تتمذهب بمذهب الامام أحمد وعقيدته لم يخرجوا عنها قيد شبر ، وهم يتبرءون من الشرك الجلى والخفى الذى حذّر منه النبى ﷺ ، وهم يعتقدون أن الله سبحانه أقرب إلى الانسان من حبل الوريد ، وأنه على كل شىء شهيد ، وأنه أمر أن يدعى وحده كما جاء فى الآية : ﴿ وقل ادعوا الله

أو ادعوا الرحمن ﴾ وفى أخرى ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ وأنه يتوسل اليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبالأعمال الصالحة .

هم أولئك الذين يقدّمون أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة على غيرها ، ومذهبهم فى صفاته تعالى مذهب السلف : لا تشبيه ، ولا تعطيل ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

هم أولئك الذين على مذهب أهل السنة والجماعة (السلف) يمقتون المعتزلة والخوارج وكل فرقة ليست على مشرب السلف الصالح ، ولا همّ لعلمائهم إلا البحث فى الأصول وفى الفروع ، ولا لعامتهم إلا السعى وراء الاكتساب والاتجار ، وهم لا يأكلون لحم أخ بغيبة ولا يمشون بنميمة ولا تبدر على أسلات ألسنتهم بوادر القذف ولا يسلسون لأنفسهم العنان فينهمكون فى الفحش والموبقات ، وهم ليسوا بثعالب رواغه يمكرون أو يخدعون ، وهم أحرار جادون فى طلب العلم أينما حلوا وحيثما وجدوا .

وإنك لا تراهم مرة لاعبين أو عابثين ، وهم يفرّون من البدع فرارهم من المجذوم . وبالجملة فماذا يقال عن إخلاص قوم عرفوا بالتمسك بالاسلام ، وهم فى مقدمة كل طوائفه إيماناً وإيقاناً . ويرحم الله أحد الأفاضل حيث قال : « لو تجسم الاسلام بانسان لكان أهل نجد رأسه » .

هذا ما نعرف عنهم كما دلتنا عليهم مصنفاتهم التى ألفها أهل الرأى الراجح والعلم الصحيح منهم ، وكما رأينا ذلك فى غير واحد من التواريخ التى تبين سيرتهم أحسن تبيان كتاريخ (الجبرتى) وغيره . وإذا لم تكن هذه الطائفة كما ذكرنا فليأتنا المعاندون ببرهان من كتبهم يناقض ما نسطره هنا ، أو فليدلوا بحجة تخالف ما نقوله إن كانوا من الصادقين .

ليت شعرى بمَ يجيب ذلك المعاند الذى يرميهم بأنواع الكفر والضلال إذا

قلت بأنهم يقيمون الصلوات الخمس بأوقاتها ، ويؤدّون زكاة أموالهم بأنصابها ، وأنهم يصومون شهر رمضان ، ويزورون البيت الحرام على الطريقة المأثورة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ماذا يكون جوابى اذا رفعت عقيرتى قائلا : انهم فئة يكدّون ويكدحون فى جهاد هذه الحياة ، ويفارقون الأهل والأوطان ابتغاء النفع والانتفاع والكسب من الحلال ، فيتجرون بالعقود المشروعة ، ولا يتحيلون لشبهاتها ، بل ولا يرضون أن يعيشوا عيشة الاذلاء الأنذال كلاً على غيرهم .

نحن نسأل ذلك الرجل الذى يرميهم بشبهة فى دينهم : هل رأى واحداً منهم فى حانات الخمور ثملاً معربداً ، أو بين أذرع المومسات ضاحكا مستهتراً ؟ ! وهل يقدر أن يثبت أنهم أكلوا أموال الناس بالباطل ، واختلسوا المدارس بأموالها وأوقافها .

ولقد علم قيامهم بشعائر الدين فى حلهم وترحالهم ، وتصلبهم فى ذلك والتورع فى معاملاتهم كل من خبرهم ، كما عرف ذلك منهم معاملوهم من التجار فى كل قطر ومصر . بيد أنه انتقد عليهم مسائل اشتهرت ويرى الجمهور فيها نظراً وقد كثرت عليهم الردود لاجلها ، وربما كان فى تلك الردود شية من الحق ، ولكن على الباحث أن ينصف ، والحق يقال إن زعيمهم محمد بن عبد الوهاب لم يأت بشىء من عنده ، وإنما دعا إلى نصوص ظفر بها وعثر عليها وهى لمن تقدمه من الأئمة المشاهير ممن سبقوا على عصره بنحو ستمائة سنة .

ولا ريب أن من تقدمه كانوا أئمة مجتهدين عرفهم التاريخ ، والمجتهد مأجور باتفاق علماء المذاهب على الاطلاق ، ولا ينكر على إمام مجتهد على كل حال .

وإنها لكلمة ذهبية فاه بها الإمام مالك (رضى الله عنه) قائلاً : ما منا إلا من رد أو رُدّ عليه إلا صاحب هذا القبر (يعنى النبى ﷺ) : والحق ضالة

كل أحد المنشودة ، تؤخذ من أى وعاء خرجت وعن أى صدر صدرت . وما على المراد إلا أن ينبذ الهوى والعصبية ، وأن يقف عند حدود آداب الجدل والمناظرة وينظر فى أقوال محاوره نظر المنصف الحكيم ، وكما يجب أن يراجع الردود يجب عليه أن ينظر فى ردود الردود ، ليزداد بصيرة وعلماً ، وينجلى له الحق تمام الانجلاء .

ولئن كان يؤثر عنهم تنطع وغلو فى بعض المسائل فما من أحد إلا وعدت عليه هفوات ما خلا المعصومين ، والأصل والأصيل هو الاعتصام بأصول الايمان وقواعد الإيقان . وعلى فرض تنطعهم وغلوهم فهم لم ينفردوا بذلك ، اذ لم يخل مذهب من متنطعين غالين يرون ما هم عليه صواباً وما لغيرهم خطأ ، إلا أن كل متنطع فى أى مذهب كان أول من يبرأ منه المنصفون المعتدلون عن أهل مذهبه ، فأحر بغيرهم .

ويكفى مريد الحق وطالب الإنصاف فى شأن الوهابية ما كتبه شيخ الفقهاء الحنفية بمصر المؤرخ الشهير الامام الجبرتى ، فليتتبعه المنصف بدقة وليتأمل ما يقضى به العقلاء وما يحكم به المنصفون . وحرام على من لم يراجع تاريخ الجبرتى فى شأنهم أن يبهتهم رجماً بالغيب ، وهو مطبوع ومتداول يمكن أن يستقرأ هذا البحث منه فى نحو يوم ، فليعمل الطالب همته ولينزع عنه عصبيته ليرى صدق ذلك الفاضل بقوله « لو تجسم الإسلام بانسان الخ . . » ويعلم أن بعض الظن إثم .

ما كان الجبرتى وهابياً ولا نجدياً ولا حنبلياً وانما كان حنفياً بل مفتى الحنفية فى مصر فى عهد محمد على باشا الذى حاربهم . ما منع الجبرتى وهو مفتى عاصمة مصر تدرّ عليه مرتبات محمد على أن يتكلم بالحق فى الوهابية ومحمد على يحاربهم ، ما احتفظ عليه بذلك ولا كاده ولا أضمر له السوء ، ولا رمته علماء الأزهر بالوهبنة مع انتشار كتابه والشغف بنسخه وعدّ الظفر به من أعظم الكنوز العلمية التى تتزين بها المكاتب .

لم ذلك يا ترى ؟ . .

لأن محمد على لا يرى أن حربهم إلا لأمر سياسى وهو الاستعمار ، وأن لا حرب فى المسائل الدينية ، ولأن العلماء فى الأزهر أئمة فضلاء يذعنون للحق وينقادون له ، وهم يرون أمثال ما ينشره الجبرتى عنهم حقائق لا تشوبها شائبة وهم ولا ايهام .

وبعد فلسنا نقول ذلك تشيعاً أو تحزباً فان ذلك من شأن المتعصبين الجامدين ، بل دلالة على مكان المدح ، وحذراً من بخس الناس أشياءهم ، واستبراء للدين من قذف البرىء وبهت المؤمن ، وفى ذلك عبرة لقوم يذكرون .

ضراء العلماء[1]

— ١ —

يولد الاصلاح بادىء بدء غريباً لا يأنس به إلا ذوو الاستعداد الفطرى للمبادىء العالية ، وأبناء العلم والتهذيب من رجال الأمة . والبقية الباقية منهم يناهضونه إما بدافع جهلهم وتعصبهم ، أو لعدم انطباقه على ما ينزعون اليه من التقاليد التى وجدوا عليها آباءهم . ولهذا تعترضه قبل أن يدرج من عشه قوتان متناقضتان : الواحدة تسعى لإنمائه ، والأخرى تعمل على تلاشيه . ويساعد الثانية فى الغالب مال وخول ، فى ملك ضخم البنيان ، وجاه منبسط الظلال . . .

بين هاتين القوتين تشهر حرب شعواء يضطرب لها فلك الاصلاح ، ولا بد أن تنجلى وقد أزهق الحق الباطل ، لأن القوة الحقيقية بجانبه ، ولقوة الحق حركة كبرى فى ميدان تنازع البقاء .

ألا وإن أنصار الباطل كانوا وما زالوا فى كل عصر ومصر يوقظون الفتنة ويضرمون جذوة الثورة ، فيقومون بدعوى الغيرة على الدين مرة ، وخدمة النفع العام تارة أخرى ، وما يريدون بذلك كما يشهد الحق إلا منافعهم الشخصية ، فهى قبلة آمالهم التى يولون شطرها ، وكعبة ميولهم التى يسوقون اليها مطايا هممهم وهممهم .

وليس أضر على العلم والدين من هؤلاء ، فبمثلهم كسدت سوق العلم ، وراجت

(١) نشرت فى الجزءين الثانى والثالث من المجلد الرابع من مجلة (المقتبس) .

بضاعة الجهل المزجاة . وهم بما يختلقونه من الأوهام مثلوا الدين بأقبح صورة مشوهة يفر منها الناظر فرار السليم من الأجرب ، وفتحوا للدين مجالا واسعاً أمام الأغيار فأخذوا يسلقونه بألسنة حداد ، وينزلونه فى غير المنزلة التى عرفها له السلف الصالح أيام كانوا على بيضاء نقية لا يضرهم من خالفهم إذا كانوا هم المهتدين .

منيت الأمم الاسلامية جمعاء بمثل هؤلاء منذ ألف سنة أو تزيد . بيد أنه مع وجود هذه الطغمة بين ظهرانيهم وارتفاع جلبتهم وضوضائهم ، وعملهم على إطفاء شعاع الأمانى الذهبية فى مهب تلك العواصف ، لم تعدم الأمة طوائف توفرت على الأخذ بناصر الحق ، وسلبت قرارها لرغبة فى شد أزره ممن تمحضوا للعلم الخالص ، واغترفوا من معينه وشلا . فكانت القوة بجانبهم ينافحون بها أعداء الظلم الألداء ويكافحونهم ، والغلبة لهم وإن تألبت عليهم الجموع الكثيفة ، وتحلقت أمامهم الصفوف كالبنيان المرصوص ممن تجمعهم جامعة الجهل تحت لواء الحسد الذميم .

* * *

شهد شيخنا التاريخ منذ نشأ الفكر البشرى هذه الأعمال البربرية ولم تزل صفحاته ندية بعد ، فلم يجف ما أريق من الدماء فى سبيل نصرة الحق ولم يتبخر ما أذرف من الدموع الصافية المصدر والمورد . على تلك العقول الرصينة التى بينا هى ترصد فضاء السماء الفسيح ، إذا بها تفحص أعماق هذه الأرض ، وتجتهد فى استكناه أسرار الحياة المطوية طى تلك الطبقات الصماء . وها هو قد حشد فى صدره سيرة ألوف مؤلفة ممن ذهبوا ضحية الجهل والحسد ، مما لو جمع وأفرد بمؤلفات خاصة لأخرجت للناس مجلدات ضخمة فى « محكمة التفتيش الاسلامية الكبرى » .

وليس بالنزر القليل ما نال الأئمة المصلحين من النكبات التى يسودّ لها وجه الانسانية ، فكم رمى بالكفر من هو أشد الناس تمسكا بدين الله ، ومن هو أعظم

اعتصاماً بحبله المتين ، وحكم بالزندقة على من كان يحارب الدهريين ، واضطهد من كان يعمل فكرته للاجتهاد والعمل بكتاب الله وسنة رسوله .

وأمامى الآن كثير من أمثال تلك الحوادث فى بطون التواريخ التى تضم تراجم مشاهير المشارقة والمغاربة ، آتى على شىء منها مقتصراً على رجال الفريق الأول ممن ذاقوا الأرّم ، ولقوا من معاصريهم الألاقى ، لقاء بث فكرة إصلاحية ، أو القيام بمشروع جديد ، ليعلم أن التاريخ هو المحشر الذى ينسل اليه الناس من كل حدب ، وأنه لا يفلت أحداً دون أن يناقشه الحساب :

هذا مالك بن أنس(١) سُعى به إلى جعفر بن على ابن عم أبى جعفر المنصور ، فدعا به وجرّده وضربه سبعين سوطاً ومدت يداه حتى انخلع كتفاه ، وذلك جزاء قوله الحق حين سئل عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقولهم له « إن فى أعناقنا مبايعة أبى جعفر » فقال : « إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين » فأسرع الناس إلى محمد ، فسعى به وضرب لذلك .

قال صاحب الفلاكة : « ثم لم يزل مالك بعد فى علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حلياً تحلى بها » .

وهذا أبو حنيفة النعمان الفقيه الكوفى ضربه يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى وكان أمير العراقين مائة سوط وعشرة أسواط ، وكل يوم عشرة أسواط أيضاً ، وذلك لما أراده لقضاء الكوفة فأبى وبقى على الامتناع ، وسجنه فتوفى فى السجن فى أحد القولين . وقيل : إن سبب سجنه الأبدى ما ذكره الزمخشرى وهو من كبار الحنفية فى تفسير آية (لا ينال عهدى الظالمين) : إن أبا حنيفة رحمه الله كان يفتى سراً بوجوب نصرة زيد بن على رضوان الله عليهما وحمل المال اليه والخروج معه على المتغلب المسمى بالامام والخليفة كالدوانيقى وأشباهه ، وقالت له امرأة :

---

(١) اعتمدنا فى هذه النقول على كتاب (الفلاكة والمفلوكون) .

أشرتَ على ابنى بالخروج مع ابراهيم ومحمد ابنى عبد الله بن الحسن حتى قتل ، فقال : « ليتنى مكان ابنك » . وكان يقول فى المنصور وأشياعه : « لو أرادوا بناء مسجد وأرادونى على عدّ آجره لما فعلت » اهـ . وحينئذ يعلم الباحث المدقق أن سبب سجنه أمر سياسى .

ومثله أحمد بن حنبل بن هلال الشيبانى المروزى ثم البغدادى ، أمر المعتصم بضربه فأُخذ وجىء بالعقابين والسياط وضربه ضرباً مبرحاً حتى أغمى عليه وغاب عقله فنقل ، ثم أمر باطلاقه إلى أهله وهو لا يشعر ، وذلك لأنه أبى أن يقول خلاف ما يعلم أو يعتقد حين أجلسه المعتصم ودعاه إلى القول بخلق القرآن فامتنع وقال للمعتصم « ما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن القرآن علم الله ومن علم أن علم الله مخلوق قد كفر » .

فناظره أحمد بن أبى دؤاد وغيره وأنكروا عليه الآثار التى أوردها وقالوا للمعتصم : « هـذا كفَّرك وكفرنا » ، وقال له إسحق بن ابراهيم نائب بغداد « يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلى سبيله ويغلب خليفتين » فعند ذلك حمى واشتد غضبه وكان ما كان .

وكذلك يوسف بن يحيى البويطى صاحب الإمام الشافعى ، كان الشافعى يُسأل عن الشىء فيحيل عليه فاذا أجاب قال « هو كما أجاب » وقال عنه الشافعى : « هو لسانى » ، حمل إلى بغداد فى أيام الواثق بالله من مصر وفى عنقه غل وفى رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنه أربعون رطلا وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن فى قيوده .

وضم إلى هؤلاء الائمة من أساطين العلم والعمل من لم يرفعوا لأعمال المفسدين رأساً ، ولم يقيموا لها وزناً ، وليس ما أصابهم من المصائب بأقل مما نال هؤلاء ،

كابن تيمية والغزالى والنسائى وابن رشد وابن حزم ، فقد حمل حسد الجهلة الأغمار من معاصرى الأخير أن تألبوا عليه وكادوه واستظهروا عليه بالأمراء فأحرقوا كتبه الثمينة ومصنفاته ، وفى ذلك قال :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى　　تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى　　وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى الخ ..

وانك لترى العجب العجاب حينما تأتى على تراجم المشاهير وما تجد فى غضونها من المحن والإحن التى قصد من ايقاعها بهم غمط فضلهم والحط من كرامتهم ووضعهم أمام سيل شهرتهم الجارف سوراً من الجمود أركانه التعصب الأعمى ودعائمه الجهل المطبق .

ولقد أفضت ضراء العلماء والوقيعة بهم إلى الطعن بالمذاهب وقيام طائفة على أخرى كلما لاح لها من الفرصة بارق ، ومن ذلك قيام الأكابر على محمد بن هبة الله ابن محمد بن الحسين[1] الملقب بلقب أبيه جمال الاسلام وحسدهم له ، فانهم خاصموه واستظهروا بالسلطان عليه وعلى أصحابه وصارت الأشعرية مقصودين بالاهانة والمنع عن الوعظ والتدريس وعزلوا من خطابة الجامع ، ونبغ من الحنفية طائفة أشربوا فى قلوبهم الاعتزال والتشيع فخيلوا إلى ولى الأمر الإزراء بمذهب الشافعى عموماً وبالأشعرية خصوصاً ، قال السبكى : « وهذه هى الفتنة التى طار شررها وطال ضررها وعظم خطبها وقام فى أهل السنة خطيبها ، فان هذا الأمر أدى إلى التصريح بلعن أهل السنة فى الجمع وتوظيف سبهم على المنابر ، وصار لأبى الحسن الأشعرى بها أسوة بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، واستعلى أولئك فى الجامع فقام أبو سهل فى نصر السنة قياماً مؤزراً الخ .... » .

وممن يجدر ذكره فى هذا الباب من المتأخرين الشيخ عبد الغنى النابلسى ، فإن

---

(١) طبقات الشافعية ج : ٣ ص ٨٦ .

أهل الشام تألبوا عليه ووصموه بوصمات لم تكن من الشيخ رحمه الله فى شىء . وما دعا أولئك الرعاع إلى ذلك إلا حسدهم لمنزلة الشيخ حتى اضطروه إلى مغادرة دمشق والسكنى بالصالحية حيث دفن ثمة . وفى ذلك يقول من قصيدة مطلعها :

يا من تكلم فينا بالذى فيه وقعت فى كف ضرغام وفى فيه

إلى أن قال :

فقد جحدت الغيور الحق ماته هيهات انك تنجو من أياديه
وإن جهلت فما بالكفر يعذر ذو جهل لذى الشرع والشيطان يطغيه
دم فى ظنونك مفتوناً فسوف ترى من الذى منه قبح الفعل يرديه
ولا تقل أى جاه للضعيف يرى فإن للبيت ربا سوف يحميه
يا مستبيحين أعراضاً محرّمة بسوء ظن وتلبيس وتمويه
أهكذا ملة الاسلام تأمركم ؟ أم قد سلكتم عن الاسلام فى تيه ؟
تباً لكم ولمن قد عاد يتبعكم والعبد مولاه فى الأعداء يكفيه

وبعد فان التاريخ يعيد نفسه ، والحوادث لا تفتأ تتعاقب على ممر الأيام ، وإن الحال صورة من الماضى ، وإن طرأ عليه من مؤثرات التجديد ما أدخله فى طور جديد . ولا يخلو كل عصر من شرذمة نفاق واختلاق حتى فى هذا العصر يعترضون كل عمل نافع يقوم به المصلحون فى مصر وسورية والعراق ، ويعينهم فيما يطلبون أولئك الرعاع الذين هم أتباع كل ناعق .

ألا فليعلم أولئك الأغرار أن موت المصلحين فى سبيل نصرة الحق بعثٌ ونشور ، وإن رمى الآخرين بالكفر والزندقة هو حياة لهم وذكرى . ولقد كانت لأولئكم الجهلة الأغمار حياة مادية ، ولكن كانوا يتجرعون منها الحنظل ويموتون فى كل يوم مراراً . وكانت لهؤلاء العلماء المصلحين شعلة حياة مادية أطفأها الحسدة فخلت محلها حياة أدبية مملوءة ضياء ونوراً ! . .

— ٢ —

بين هذا الجيل الناشىء نفر (*) لم يكتب لهم الوقوف على حضارة المشرق وآدابه ، بل غاية ما وصلت إليه أفهامهم من البحث والتدقيق أخذهم بغثاء من العلوم الغربية الحديثة فقط ، فراحوا وهم ثملون بحثالة تلك الثمالة يهذون بما لا يعرفون ، زاعمين أن المشرق وحده منبعث الأعمال البربرية كما أن البعض حتى من علماء المغاربة يصورون الشرقى بصورة « الغر المجرد » والعربى بأنه الذى يخوض بحاراً من رمال محرقة ، وأشعة الشمس المذابة قطراتها تتصبب عليه فتصهر رأسه فى فضاء صحارى جرداء تكاد لا تتناهى . . .

ولو تهيأ لذلك العربى ما تهيأ للغربى من التربية والبيئة (المحيط) ومن تكاثر الوسائل والوسائط ما كان مدعاة للتأثير فى أخلاقه وأفكاره وخيالاته وقوته العقلية وطبيعته الحيوية الخ . . . لاستعاض عن ظلال الخيام التى كان يستحضر فى زواياها[1] بدور الكيمياء ذات البنيان الضخم والمعامل الكبيرة ، ولكانت له ضفاف الأنهار مباءة يتفيأ ظلالها الخضراء .

ولقد رأينا العرب — لما اختلفت عليهم مؤثرات التربية والبيئة ، وأنشأوا يدوخون الممالك ويمصرون الأمصار — أمة ناهضة بلغت فى التحضر والتمصر شأوا بعيداً ، وضربت فى المدنية والعمران بسهم وافر . ونبغ بين ظهرانيهم من الدهاة من ألفوا فى العلم والاجتماع والآداب على اختلاف ضروبها فبرّز الكندى وجابر الكوفى والطوسى وابن رشد وابن سينا والفارابى وابن أبى أصيبعة والسمرقندى فى الرياضيات والطب والفلسفة . والغزالى والرازى وابن حزم وابن باجة وابن خلدون والمتنبى والمعرى فى الاجتماع والتاريخ والأخلاق والشعر ، وأخذ العظماء من الأمراء يسرفون فى إنشاء معاهد العلم فى بغداد وسمرقند والشام والأقطار

---

(١) جابر الكوفى الكيماوى العربى المشهور .

الأخرى ، وعهدوا بوظيفة التعليم إلى من تأفقت شهرتهم فى العلم فى ذلك العصر ، مما يدل على نهضة علمية كبرى نشأت فى المشرق ، وبقى من آثار القائمين بها أطلال بالية ومن نتائج قرائحهم بقايا ملئت بها مكتبات المشرق والمغرب على كثرة ما عدا عليها من عوادى الأيام .

ألا وإن الأمم تسير فى تقدمها وتأخرها على نواميس عامة قد لا تختلف فى الغالب إلا بقدر الاستعداد الفطرى وتأثير الإقليم . وما يصح أن يقال عن تلك الأمم من الأعمال البربرية إن هو إلا أمر طبيعى لابد من وقوعه بين أى شعب أسف للانحطاط فى العلم وأخلد للجمود فى الدين .



مرّ على أوروبا من أدوار الظلم والظلمات ما سجل لنا التاريخ من آثارها فى الأمم الغربية ما يصح أن يكون عبرة همجية وذكرى سوء . وذلك فى الغالب يرجع إلى عوامل ثلاثة كانت علة العلل لما نجم عنها من سقوط وصعود : الملوك ، ورجال الكنيسة ، والنبلاء .

أما النبلاء : فلم يؤثر عنهم فى الأعم الأغلب من حالهم سوى أنهم كانوا يسعون وراء تأييد نفوذهم ونيل مشتهياتهم وملذوذاتهم بأية طريقة كانت سواء دعا سعيهم هذا إلى إهراق دماء الشعب وابتزاز أمواله واكتساح الأراضى الشاسعة من مستعمراته ، أو إلى مقاومة الملوك إذا آنسوا منهم ما لا ينطبق على ما ينزعون إليه من حب السلطة والجاه الذى كان ديدنهم وديهم ، حتى أتيح لهم نفوذ قوى كان لهم عوناً فى عامة ما تذرعوا من الذرائع لحفظ سلطتهم وإحرازهم ميزة على غيرهم من بنى البشر حتى فى المحاكم ومسائل القضاء .

وأما الملوك : فان استئثارهم بالملك وإغراقهم فى البذخ والترف حملهم على مبالغتهم فى الإرهاق والعسف وإتيانهم كل أمر منكر لمطاردة قادة الأفكار

من رجال الأمة ، فكان الملك يذيب أيامه ولياليه ـ التى كان يجب أن يقضيها فيما يعود على الأمة والوطن بالمصلحة العامة ـ فى اختراع صنوف الحيل والدسائس تارة وفى أحلام الموبقات مرة أخرى ، فمن طنطنة أقداح إلى إراقة ابتسامات بين وصيف وبغا ، وكثيراً ما كانت « الحرب فى الباب والسلطان فى لعب » .

ومما ساعدهم على عملهم هذا غفلة الشعب ، واتخاذهم من اعتقاده بالملوك والقياصرة والأقيال والأكاسرة أنهم آلهة الأرض ، والآمرون الناهون فى العالمين آلة صماء لتنفيذ آمالهم وأعمالهم . فكان الشعب مغلول اليد والفكر واللسان ليس له من الأمر شىء إلا الطاعة العمياء . وفوق هذا كله فانه كان يرى فى هذه الطاعة خيراً يصيبه أو ثواباً يناله . ولم يكن من الشعب الغافل إلا أن وسمهم بالألقاب السماوية ، ووصفهم بعامة صفات الربوبية .

وأما رجال الكنيسة : فكانوا يبالغون أيضاً ـ حفظاً لسلطتهم واستبقاء لعزيز جبروتهم ـ فى اضطهاد العلم والعلماء ، وتم لهم ذلك بما أسدلوه على الأبصار من السجف المبرقشة ، وهى ليست سوى خيالات خداع وختل ونفاق وتلاعب قالوا عنها إنها الدين وليست منه فى شىء ، حتى كان منهم أن كانوا يقسمون الممالك ويوزعونها ويخلعون من الملوك من يشاءون ، وكانوا كما قال « أحمد شعيب بك » حكام أوروبا المطلقين (ديكتاتور) .

غضب مرة الأب (هلدى بران) على هنرى الرابع وحاشيته فحرمهم جميعاً ، حتى اضطر الامبراطور هو وزوجته إلى أن يقصدوه ليغفر لهم سيئاتهم فقطع جبال الألب فى أيام الشتاء وقد ارتدى قميصاً أبيض أعد للمجرمين ، ووقف ثلاثة أيام أمام القصر الذى كان جالساً فى صدره ذلك الأب وهو يرتجف من صبارّة القرّ وأخيراً أذن له بالحضور فتمثل بين يديه وقبل قدميه ، وهكذا استطاع أن ينال العفو[1] .

---

(١) عن « الحرية الدينية » بالتركية . لأحمد شعيب .

وإن أعمال رجال الكنيسة فى محكمة التفتيش لا تكاد تمحى آثارها من صفحات الوجود ، فقد كان الغرض من إنشاء هذه المحكمة مقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعى تلاميذ ابن رشد وتلاميذهم خصوصاً فى جنوب فرنسا وايطاليا . وفى مدة ثمانى عشرة سنة من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ حكمت محاكم التفتيش على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعربية . (١)

وقد قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد ، وطفق الآباء الدومنيكانيون يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده « لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شىء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره » ثم قال « وأوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوروبا ماخيل لكل من يلمع فى ذهنه شىء من نور الفكر إذا نظر حوله والتفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه ، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية اليه » .

هذا ولا تنس ما كان للحروب والثورات بادىء بدء من التأثير السىء فى الحركة العلمية فى المدارس ، فالثورة الفرنسية دعت إلى إلغاء الجامعة التى ظل يختلف إليها الطلبة منذ زمن مديد . وألغيت بالقرار المؤرخ فى ١٠ آذار عام ١٧٩٤ كلية باريس وثلاث وعشرون جامعة فى الولايات الأخرى ، وصودرت أوقافها وأملاكها ، وان حروب التتار الشعواء أغارت على الجامعات التى أنشئت فى مدينة

(١) الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده ص ٣٨ .

(نوفوغوردو) و (كرسون) و (موسكو) من بلاد روسيا لما فتحها التتار بحد سيوفهم .

ولما دبت الحياة فى بولونيا وقامت تطالب باسترداد حريتها أخذت الحكومة الروسية تتذرع بكل جليل وتافه لصد هجماتهم ، وأول ما بدأت به إغلاق الجامعات والمدارس ، ومن ذلك جامعة (فرسوفيا) الشهيرة التى أغلقت عام ١٨٣٢ وظلت موصدة سنين وأعواماً . وإنه وإن أذن للجامعات بعدئذ أن تفتح أبوابها بيد أنه لم يعد يراعى فيها أصول الحرية فى التربية والتعليم فى حال من الأحوال .

وإنك لترى الجامعات والمدارس فى حالة النزع والاحتضار إدارة وتعليماً بعد ما توالت على أوربا الأزمات العلمية والفكرية . فأما ما كان من أمر التعليم فإنها كانت تسلك الخطة التى كانت متبعة فى القرون الوسطى ، وكان المتطفلون على موائد العلم يتصافقون الرتب العلمية على رءوس الاشهاد ، ولم يكن من المعلمين الحقيقيين من يستطيع أن يدرب التلاميذ على أصول التربية الحديثة ، وإن كان يوجد فانهم كانوا يتقاضون مرتباً نزراً يسيراً .



فى ذلك الزمن الذى اشتدت فيه الأزمة كانت أوربا تتمخض بالثورات السياسية والدينية . بيد أنها لم تستطع أن تضع حملها إلا بعد أن نبغ فيها فريق من أهل العلم والأدب فبدأوا يجدون بما فى طوقهم وطاقتهم وراء مكافحة أولئك الخونة المارقين ومنافحتهم بالقلم واللسان ليستردوا لبنى البشر حقوقهم المغصوبة ، فكان فيهم العلماء والحكماء والأدباء والقصصيون والشعراء أمثال نيوتون وباكون وديكارت وهيكو وفولتر ولامارتين وتولستوى ولوك وفيختى وكانت وموليير وميرابو وغيرهم من رجال الإصلاح ، وكذلك كان بين هؤلاء من رجال الإصلاح الدينى كثيرون ، ومن أشدهم جهاداً وجلاداً (لوثيروس) زعيم المذهب

البروتستانتى فى البلاد الأوربية والأميركية جمعاء .

إن هؤلاء العظماء سدوا العجز فى تربية الشعب وتعليمه ، واغتنت النفوس بما تجدد فى البلاد من الأوضاع ، وما ظهر فى عالم المطبوعات من المصنفات العلمية والأدبية ، واكتسبت بما اكتسته من الحلل القشيبة ميلاً خاصاً من القلوب فتهافت الناس عليها وهم فى أشد الحاجة إلى ما يمحو ما تلطخ على صفحات الأفكار من الشوائب المبهمة . وكان أول انقلاب وقع فى نظام الأسرة والمعتقدات . وتمثل هذا الانقلاب بأكمل مظاهره فى المبادئ والأفكار ، وعلم الشعب حق العلم أنه مهضوم الجانب مهيض الجناح ، وأن الملوك والأمراء بأجمعهم ليسوا سوى أجراء له ، وآنئذ نزع إلى استرداد حقوقه بما مازج روحه من قوة الحرية فى القول والعمل .



شعر الملوك ورجال الكنيسة ــ لما آنسوا من الشعب ميلاً إلى الإصلاح ورجاله ــ بالخطر الذى يتهدد سلطتهم المطلقة فأخذوا يضيفون إلى مظالمهم الأولى ضروباً من الجنايات والخيانات . ألا وإن قصر الباستيل والآلة المدعوة المقصلة : (كيلوتين) ومحكمة التفتيش وفيافى سيبريا وقصر التويليرى(١) أعظم شاهد على ما أتوا به من الفظائع والفجائع لمناهضة العلماء والحكماء ورجال الإصلاح .

هذا « لافوازيه » العالم الكيماوى المشهور الذى عنى بهذا الفرع من العلم عناية خاصة واكتشف عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ووضع نواميس عامة أبان فيها ما خفى تعليله على المتقدمين حتى دعى بـ (واضع الكيمياء الجديدة) ، هذا الرجل على فضله وعلو كعبه فى العلم وخدمته الإنسانية جمعاء ، حكم عليه بالإعدام وسيق إلى ساحة القتل حيث ذهب ضحية الجهل والغدر والخيانة .

---

(١) هو أشبه بقصر يلدز فى عهد السلطان عبد الحميد المخلوع ، كان مقرا لملوك فرنسا فى باريس ، وأحرق فى مايو عام ١٨٧١ .

وهذا « غاليله » العالم الايطالى الفلكى المشهور عقدت من أجله جلسات متوالية فى إيطاليا ضمت أهم رجال الكنيسة وغيرهم وأجمعوا بخروجه على تعاليم الدين فى قوله بحركة الأرض ، ثم حكموا عليه بالإعدام ، فالتفت إلى الجمهور وهو جذل فرح وقال : « هى تدور ، وفوق ذلك هى كروية » .

وكذلك « دانتى » حكيم إيطاليا وشاعرها أمر الكردينال « بورجينو » عام ١٣٢٩ باحراق بعض مؤلفاته فى بولونيا جهاراً ، وطلب إخراج جثته من القبر وإحراق عظامها انتقاماً منه على إلحاده ، ثم لم تمض على هذه الأحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الإيطالى بمنزلة هذا الرجل ، ففى سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا أن تدفع مبلغاً من النقود إلى ابنة له راهبة تدعى « بتريس » ، وفى عام ١٣٩٦ قررت أن يبنى له ضريح ويقام له تذكار فى فلورنسا ، على أنهم ما زالوا يحاولون مثل ذلك إلى أوائل هذا القرن ، فابتنوا له ضريحاً وقد احتفلوا بافتتاحه فى ١٤ تموز عام ١٨٦٥ وهو تذكار مضىّ ستمائة سنة من يوم ولادته .

ومثله « فولتر » حكيم الأدباء فى فرنسا نظم قصيدة هجا بها لويس الرابع عشر ملك فرنسا فحكم عليه بالسجن فسجن فى الباستيل سنة نظم فى أثنائها قصيدة سماها التعاهد ، ورواية دعاها (أوديبوس) قالوا إنها أحسن ما كتبه من حيث شرح العواطف الحقيقية وذلك عام ١٧١٨ ، ثم أطلق سراحه بدعوى أنه مريض يحتاج إلى تبديل الهواء فى (بولومبيار) ، فسار وقد عول على أن لا يعود إلى فرنسا ، ولكن قلمه ثنى عزمه فعاد إلى مثل ذلك ، فأعيد إلى السجن مهاناً بالضرب واللكم عام ١٧٢٦ ، فلبث هناك ستة أشهر ، ثم أطلق سراحه والتجأ إلى انكلترا لعله يتخلص من دسائس الفرنسيين .

ولقد كتب مقالات فلسفية قيل إنه تعرض فيها للدين والسياسة ، فأحرقت بأمر مجلس الأمة (البرلمان) ، واضطر إلى مغادرة باريس خوفاً على حياته ، وقد

ذهب بعضهم إلى أنه ملحد لأن الكهنة لم تأذن بدفنه على العادة المألوفة ، وإن أحد أبناء أخيه كان رئيساً لدير ، فأخذ الجثة سراً إلى ديره ودفنها فى الكنيسة . وفى سنة ١٧٩١ نقلت الجثة إلى البانتيون مدفن الملوك والعظماء والكبراء .

وكذلك « روسو » فانه نال من نبال الطعن والاحتقار مالا يكاد يخطر على بال ، وما ذنب هذا الرجل — كما قال أحد حكماء فرنسا — سوى أنه خالف سنة أهل النظر فى عصره ، وهى اعتمادهم فى إصلاح المجتمع الإنسانى على الرجال ومخاطبتهم إياهم فيه بأن وجه خطابه إلى الوالدات والأطفال ، وهو أمر هداه اليه ما فطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة ، ثم قال : « وإن أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الأطفال خاصة بما نشره فى كتبه من الانتصار لهم قلت إن ذلك إنما كان بما ألقته تلك الكتب فى نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها به لها » .

ومثله « لوثيروس » المصلح الدينى الألمانى فانه قام بالدعوة إلى ما صح عن المسيح طبق ما ورد فى الانجيل ، ضارباً تلك الأوهام التى تعلقوا فعلقوا بها عرض الحائط . وأول ما ناهضه هو مسألة الغفران ، ولم ير داعياً للأبوة فألغى الرتب الروحانية وشركات الدنيا والقاعدة التى تخول الرهبان عدم الزواج ظهرياً .

وحملته طبيعة الحال على أن يدّعى ويثبت مدّعاه بأن كنائس الكاثوليك جمعاء تناقض أحكام الدين المسيحى على خط مستقيم ، وقد دعا الامبراطور « شارلكان » المجلس العام فى ألمانيا إلى الالتئام ، فالتأم وطلب المجلس بأكثرية الأصوات إحراق « لوثيروس » ، وقد كاد يقع ذلك لولا أنه أقام سنة كاملة فى دارنبورج مختفياً عن أعين الرقباء ، وأتم خلال هذه المدة ترجمة الإنجيل الذى كان شرع بترجمته بادىء بدء ، وأحدث انقلاباً كبيراً فى الأدب الإنكليزى والأفكار .

وبلغ بالقسيسين التعصب فى إسبانيا على عهد سكسيمون الثالث مبلغاً جاوز حده ولم يكن منهم إلا أن أبعدوا عامة من كانت تهزهم أريحية الوطنية أيام كان القسم الأعظم من واردات الحكومة مخصصاً لصندوق الكنيسة . وإن شعور التعصب قد بلغ فى أوروبا أشده حتى كان الوباء إذا فشا نسب إلى الموسوبين ، ومن ثم ترى هؤلاء يستهدفون من ضروب الإيذاء والجفاء ما الله به عليم (١) .

وبعد فأن سلطة العلم لا تقاوم ، ومن قاومها كان خليقاً بكل أذى يلحقه إن لم يكن عاجلاً فآجلاً . وصوت العلم النافع — كما قال رنان — كثيراً ما يتضاءل أمام هجمات المهاجمين وقحة الدجالين ، وللعلم صوت متى سكن ضجيج تلك الظواهر يظل ذاك الصوت يسمع فلا يعود أحد يسمع غيره ، قال : « ومن أجل هذا ترى المجامع العلمية على كثرة شكوى أهل الأفكار المنحطة منها فائزة بفضل الغلبة لأنها حارسة حسن الترتيب الحقيقى ، وهى قليلة ولكنها مفلحة ، وليس لغير العقل سلطة تبقى » .

وان رجال الإصلاح كلما أغرقوا فى الدعوة اليه صموا آذانهم عن جلبة الوشاة والمشائين ، ولم يحفلوا بما ينزل بساحاتهم من الكوارث ، وإنهم ليعدون ما يصيبهم من إهانة واحتقار شرفاً لهم وفخراً ، كما قال ذلك الكاتب الافرنسى : « كل قبضة من الوحل تلقى فى جبهة صاحب صناعة فهى أكليل من الفخار » وقد سيق من سيق من هؤلاء المصلحين إلى القتل وعلى شفاههم تلوح ابتسامة السرور ، ولسان حالهم يقول كما قال لازوروس : « نحن نموت الآن لأن الشعب نائم ، وتموتون أنتم غداً متى استيقظ الشعب » .



هذه آثار الأدوار السوداء ونتائجها ، ولقد كان للأمم الشرقية من آثار مثل هذه الأدوار حظ وافر ، ولولا أنه لم يزل فيهم من القوة بقية ومن الذكاء

---

(١) الحرية الدينية — أحمد شعيب

الذماء لأودت بحياتهم الأدبية منها والمادية . ومما يقوى آمال رجال الاصلاح ويشد عزائمهم ما رأوه من نهضة المشارقة فى هذه القرون الأخيرة ، فقد تناولت الحركة الاصلاحية بلاد الشمس المشرقة « اليابان » ، ففارس ، فالامة العثمانية ، مما يدل على أن الاستعداد كامن فى نفوس البشر ، التربية تظهره والاهمال يخفيه .

ولا بدع اذا قامت تلكم الأقوام بنهضة حديثه اهتزت لها الأرض من أقصاها الى أقصاها ، وهم الذين كانت لهم فيما مضى حضارة ضخمة فخمة قضت عليها النواميس الطبيعية بالاندثار والعفاء ، وقيضت من رجال الغرب من عنى بأمرها فبزّوا بها وبرّزوا . وما على الامم الشرقية اليوم إلا أن تطرس على آثار الغربيين فى العلم والاجتماع ، وتأخذ بالامور المعقولة من حضارتهم ومدنيتهم ، ليكتب لها عمر مديد ، وتاريخ مجيد ! . . .

« كتبت فى دمشق »

مومسن[1]

المؤرخ الألمانى

— ١ —

عصره وبيئته ومعاصروه

حدث فى أوربا منذ عام ١٨٣٥ ، بما تجدد فى الحياة الاقتصادية من النواميس ، انقلاب هائل ، بفضل تمديد الاسلاك البرقية وتمهيد الطرق الحديدية وتكاثر الآلات الميكانيكية واستخدامها فى العمليات أكثر من النظريات ، فقامت الصناعة والتجارة والطرق البحرية والسكك الحديدية والبواخر والمرافئ والترع والمعامل والمصنوعات والمستودعات بل وكل ما يدعى بلسان الاقتصاد الصناعات الكبرى ، وأخذت كلها تظهر على الولاء بظهور الافكار والآثار . حدث هذا الانقلاب فى المانيا بعد أن تأخر قليلا أى بعد عام ١٨٤٠ . قال هنرى تريشك : « كانت الانتخابات ـ فى ذلك الزمن ـ والمناقشات فى الأمور الإدارية مطمح أنظار الرجال وموضوع تأملهم ، حتى جفت الحياة العائلية أو كادت ... أما النساء فانهن أخذن بالاشرئباب الى الدخول فى الأعمال التى كان قد قبض عليها الرجال الى ذاك الحين ، وتطاللن للتنقيب عن السبيل المؤدية بهن الى مضارعتهم ، ضاربات صفحا عن دعوى ما يحدث مما اتصفن به من صفات الأنوثة وحدها فقط من التأثير فى حياة المجتمع

---

(١) معربة عن التركية ، من كتاب « المصنفون والمصنفات » (حيات وكتابلر) ونشرت فى الجزء الثامن من المجلد الثالث لمجلة (المقتبس)

الانسانى . وكانت المطبوعات العامة والآداب قد أيقظت فى الخلق لذة العمل والهمة والثبات ، حتى ان ميزات ذلك الزمن العظيمة قد تمثلت فى الأثاث والرياش » .

وقع هذا الانقلاب فى حياة الشعب العملية والفكرية والصناعية أيضا أيام كانت ألمانيا وطن الفلسفة والادبيات والعلوم التاريخية فقط ، وكان لها بعض الصيت فى فروع العلوم الطبيعية الأخرى .

فلم يمض على الألمانيين بعد أن وجهوا نحو هذه العلوم وجهة السعى والتفكير حقبة من الزمن حتى أخذوا منها السهم الأوفر ، فبزّوا بها وبرزوا ، واتيح لفريق منهم بعض ماهو جدير بالدهشة من المخترعات والمكتشفات : فما ظهر من مستحضر « Giessn » أعنى ذلك المكتشف المهم فى تحويلات المادة العضوية بدل نواميس الحياة ، وما وجده « دوف » من ناموس سير الرياح فى الفلسفة الطبيعية ، كان أسا لعلم الظواهر الجوية الجديد .

وتبدلت الفلسفة أيضا تبدلا كبيرا ، فقد بدأت أولا بتعديل نظريات الفيلسوف هيكل بعض التعديل باخراجها من دائرة الفلسفة المحضة على أيدى تلاميذه الأفاضل وتطبيقها على الحياة العامة ، وعلى أثر هذا أخذ مُلشوت ينظر فى قوى الدماغ وحركاته حتى وفق الى تحليله تحليلا كيماويا ، وقام العالم كارل فوغت وأسس قبل داروين مذهب التحول « ترانسفورميزم » فى كتابه أوقيانوس والبحر ، بينا كان داود استراوس يحدث ثورة هائلة بمصنفه حياة عيسى ، وتناول نظريات ديدرو وهلوشيوس المادية ناظراً فى الجزء الفرد والهيولى ، وأثار العالم فؤرباخ فى ذاك الزمن عالمَ البابوية بمؤلفه المسمى حقيقة النصرانية .

هذه هى نسمات الأفكار التى كانت تهب فى عامة أنحاء المانيا ، والآداب أول ما استهدفت لمؤثراتها ، فقد حل محل ذلك الجيل الخيالى جيلٌ مفتتن بالحقائق

غير المجردة ، مولع بالوقائع والحادثات الطبيعية ، هو الجيل المادّى الذى لا يعرف غير التحقيق مشربا .

وإنك لترى حينئذ الأدبيات الخيالية أشبه بألهية بسيطة تتلهى بها الفتيات ، وقد نضبت مياه الشعر المترقرقة وجف نبعه السيال .



أعظم أدباء هذا الدور غستاف فريتغ الذى كان نابغة فى بث روح الحقيقة على ما هى عليه ، فيما كان يرويه عن سذاجة حيـاة الطبقة الوسطى من الناس فى قصصه الهزلية ورواياته ، وكثيرا ما كان يكافح مذهب الخياليين Romantisme .

ولقد همّ فريتغ بالقضاء على هـذا المذهب ، فقام وأسس فى ليبسيك ـ بمعونة صديقة جوليان اشميد ـ مجلة تدعى . كرانزدوتن ، وكانت صبغة هذه المجلة سياسية ونزعتها بروسية علناً .

دخل غستاف فريتغ عالم الـكتابة عام ١٨٤٤ بمؤلفه القصصى المسمى « العالم » وهو عبارة عن سلسلة أبحاث فى التربية العـامة . وكان رجلا من أقوياء الفـكر وعباد الحقائق ، غيوراً ، ليس فى نفسه أثر للرحمـة فى مقاومة ما بطل من الأفـكار والخيالات ، وبه أصبحت بلدة ليبسيك مركزا ناريا لاذاعـة الدعوة البروسية ونشرها فى الانحاء ، فاجتمع حول مجلته عام ١٨٤٨ شرذمة من أولى الفضل الواسع ممن يحبون بروسيا وأوضاعها حباً جماً .

إن فريتغ واشميد شهرا على مذهب الخياليين الإقطاعى والـكاثولـيكى حرباً عواناً أدارت رحاها الأقلام ، وأزمعا كما قال اشميد أن يبترا تلك القطع الفاسدة من آداب الألمان وينبذاها نبذ النواة ، فكان يجدّان فى أن يكتبا القول الفصل للسياسة البروسية فى كل صقع ، آتيين على كل مافيه أثر التصنع ومسحة التكلف والتعمل ،

وغير ذلك مما كانا يعدانه من الآفات المجتاحة لعواطف الجرمان وأخلاقهم ، ومباينا لسعادة الأمة وحسن نظامها . وعندهما أن لبروسيا فكرا سيحمل عن ماضيها تاريخ مجد مؤثل بالرغم من مقاطعاتها الناقصة وحدودها المتنائية ، ولهذا فان الألمانيين راغبون من أجل سعادتهم عامة وسلامتهم فى اعلاء اسم الجرمان باتحادهم تحت لواء تقدم بروسيا ، نابذين امتيازاتهم وشعورهم الشخصى ظهريا . ولما أثنى فريتغ لأول مرة فى ليبسيك على مهمة بروسيا وموقعها من ألمانيا حوّل قسم كبير من منورى الافكار فى ألمانيا أنظارهم نحو بروسيا التى كانت جندية الحالية أرستقراطية المنزع ، غير مفكرين فيما يتخلل نظرياتهم السياسية ومذاهبهم من التناقض . على أن الفرق طفيف جداً بين عالم الألمان ـ ذلك الجيل الناشئ على أفكار داروين واستراوس الفلسفية ، وبين جنود بروسيا : فكلاهما مولع بالتقاط الحقيقة ومن ذوى القوة والبطش والاقتدار . أما بروسيا فقد كانت هيئة مسيطرة على ضروب المذهب الحقيقى : على السياسات والادارة والجندية والاقتصاد ، وبالجملة فقد كانت متشبعة الروح بجميع أنواع مذهب الحقيقيين . وامتازت بخصلة هى فوق ذلك كله ، وهى أنها كانت تحس بوجود ميل خارق لسحق الفرنسيس كلما اقتربت منهم .

ذلك هو الفكر الذى جال فى خاطر طلاب كلية ألمانيا الجديدة « بروسيا » منذ عام ١٨٥٠ ، وأول من كان موفقاً لايفاء هذه الوظيفة على غاية ما يمكن أن يكون من الاتقان والكمال هو المؤرخ « مومسن » .

— ٢ —

حياة مومسن

وكفاحه العلمى والثقافى والقومى

تيودور مومسن من أغرب الألمانيين خَلقاً وخُلقا ، اجتمعت فى نفسه الأضداد بأجمعها ، فهو عالم كبير كما هو خيالى كبير ، ومع هـذا فقد كان يوصى الناشئة الجديدة فى أن يتلقوا ماله من الخيالات نموذجا ليس من ورائها فائدة تذكر . وهو ديمقراطى ، على حين لم يوفق أحد الى خدمة المذهب القيصرى « سزاريزم » خدمة تماثل ما عمله فى مصنفه (تاريخ روميـة) .

ولد عام ١٧١٨ (ومات سنة ١٩٠٣) فى مقاطعة غاردينغ من أعمال شلزويك حيث كان أبوه راهباً .

نشأ على هذه القطعة الساحلية الغربية التى كانت تُرى بمراعيها الواسعة وحقولها الشاسعة ذات غضارة ونضارة من الداخل أشبه بلون بحيرة تضطرب بأمواج كالجبال من الخارج ، وإذا عملنا بآراء أحد القائلين بمذهب تِين من المؤرخين كان من تنفجر عنهم الحياة فى محيط كهذا مكتئبين مكدرين ، فى حين كان مومسن من أبدع نمـاذج الابداع البشرى حياة وابتهاجا وابتساما . والصحيح أن هذه النماذج غير نادرة فى ألمانيـا .

يظن الفرنسيس أن إقليم البلاد الشمالية البارد الذى يتخلل سكوته حزن

مهيب يلد أناسا قد لعبت بهم الهموم وتقسمتهم الغموم ، على العكس من اقليم البلاد الجنوبية الزاهر المستنير بأشعة الشمس المشرقة فانه يلد عنصرا خفيفا أرعن . والحال أن عكس هذا فى الغالب واقع فى ألمانيا ، ولا سيما فى الجنوب ، فان فى صحارى سواب الخصبة المعشبة وفى الكروم التى تروى بنهرى الرين والموزل قد نشأت عقول واسعة رصينة فى وسعها أن تحيط بالعالم بأسره . والشعراء الذين نبغوا ثمة قد تغنوا بماهية حياة الجرمان وحقيقتها باناشيد لطيفة خفيفة ، غير أنها ثقيلة الأوزان . أما فى الأنحاء الشمالية فان صحارى بومِرانيـا وبراندنبوغ المبتورة حدودها قد أنشأت قادة عاملين وساسة جسورين ، وكانت هنا حتى الأدبيات تلعب بها أميال الحرب والجدال ، وسرعان ما كانت تدخل فى شكل المعارضة .



مومسن هذا من نابتة ذاك الجنس ، إذا رأيته رأيت رجلا مقداما ، إن تحرك فكأنما يتهيأ لعمل جديد . وإنه بسيمائه العصبى الذى ينم عن كل خير ، وعينيه اللتين تبرق منهما أشعة الحيلة والمكر ، وشفتيه اللتين ترتسم عليهما ابتسامة الاستخفاف والاستهزاء ، يذكر بفولتير العظيم ، وهو ببعض أطواره المنبعثة منها عوامل القسوة والغدرحتى فى حالة السرور والنشاط وبوجهه الذى نال منه المقراض فلم يبق ولم يذر ، أشبه بمولتكه القائد حذو القذّة بالقذّة . أما سيماؤه الذى يتراءى من خلال مصنفاته فهو عبارة عن شخصية غريبة مؤلفة من طبيعة متسرعة منفعلة متوقدة ، أى من حدة المزاج ، ممزوجة بطبيعة أخرى حقيقية ماهرة فى استخراج المغالطات المادية العملية ونفخ المناطيد التى وسع نطاقها حب التفاخر والغرور .



فى مومسن شخصان لا يجتمعان كل الاجتماع ولا يفترقان : عالم ، وصانع .

ولا شبهة فى أن العالم مومسن هو من خوارق القرن التاسع عشر ، ومن أعظم من هم جديرون بالتجلة والاحترام . فان معارفه وسعة اطلاعه منوعة تنوعا غريباً ، وإنك لترى مجلته التى رأسها خمسين سنة وطابا حفل بما لا يكاد يتناهى من الكتابات فى تلك الموضوعات المختلفة كآثار رومية القديمة وعلم الألسنة وعلم المخطوطات وعلم المسكوكات والحقوق وعلم الأساطير ، هذا عدا مؤلفه العظيم الذى جمع فاوعى من التدقيق والتحقيق العلمى الواسع وغزارة المادة وجودة المصادر مما أهله لبلوغ أقصى درجات الارتقاء .

ولقد كانت للمترجم به ملكة كبيرة وقدرة باهرة فى قراءة الألسنة القديمة الميتة ، ومؤلفاته برمتها شهادة ناطقة بالبرهان على أنه كان موسوعة من موسوعات العلوم .

كان مومسن يرى مع من يرى أن العلم غير منحصر فى دائرة محدودة ، وأنه عامّ مشاع . لهذا كان لا يستحسن تهافت الألمانيين على تعميم فكرة الإخصاء ، ولا يقيم لتهالكهم على انتشاره وزنا . فقد قال فى خطاب ألقاه فى مؤتمر برلين العلمى فى اللغة اللاتينية :

« الإخصاء فى فرع من العلوم فقط واجب ، ولكن ليس من الواجب الاقتصار على ذلك الفرع والضرب دون غيره بأسداد ، بل يجب على الطالب السعى لان تتوفر لديه المعارف فى هذا الفرع ، وأن يصيب حظا من كل شىء . . . فما أصغر هذه الكرة الأرضية وما أحقرها فى نظر من لا يرون غير كتّاب اليونان واللاتين ، وطبقات الأرض ، والمسائل الرياضية فى هذا العالم الفسيح ! ... » .

ومن أغرب التضاد كون مومسن مفنناً خيالياً مع سعة اطلاعه العلمى المدهش . وإنك لتذهل عندما ترى ـ فى وقت واحد ـ هذا الرجل الذى يحمل تلك الجبهة

ذات القوة والتؤدة والوقار ، من الشعراء المتأثرين . غير أنه ليس نظير ميشله المؤرخ الفرنسى الشهير تأخذه الهزة والانفعال لـكل جميل ، فهو لا تأخذه رحمة وشفقة لآلام من يفترشون الأرض ويلتحفون السماء من بني آدم ، ولـكنه صاحب عقل متأثر لا يتبين الا بمتانته وقوة دهائه فقط فى هذا العالم ، وهو من أجل الاشياء التى تنثر ضياء وشررا أشد ما يـكون احتداماً وهياما .

كان من المحتمل بقاء غرائز مومسن فى العلم والصناعة طى الخفاء ، لولا أن قيض الله لها رجلا فى برلين عام ١٨٥٠ يعنى بنشر المؤلفات ، فرغب اليه كتابة تاريخ لرومية ، إذ كان يبحث عن كاتب يشغله فى كتابة أمهات التاريخ . فأصاب ذلك الرجل المرمى فى اختياره هذا ، لان المترجم من المشاهير الباحثين المدققين أرباب الاطلاع على تاريخ رومية . ومن المعلوم أن أساطين العلم لايقدمون فى الغالب على تأليف كتب تتناولها الايدى عامة وتتداولها الطبقات كافة . وقد حصلت له ملـكة سامية جداً عندما كان يعانى من صناعة الصحافة ما يعانى ، ولهذا ظهر تاريخ رومية مؤلفا ثمينا . وليس مومسن من تلك الطائفة الشائخة أساتذة الجرمان التى اتخذت العـلوم المنتسبة اليها ديدنها ، وقضت حياتها وقفاً خالصاً عليها ، بل هو اشد مايـكون تأثرا وانفعالا للمسائل العـامة .

رُبى مومسن فى كلية كيل ، فجهزته بجهاز حب بلاده حباً جما ، ولطالما قرّع أولئك الذين يقولون إنه يجرى فى عروقه الدم الدانياركى بقوله :

« إن من يدّعون أن مدينتى شلزويك وهولشتاين ليستا من تراب ألمانيـا هم فى الحقيقة معتوهون مفتونون » .

ولم يدخل مومسن فى السياسة خلال سنة ١٨٤٨ ، وهو وإن لم يحضر بصفة عضو رسمى فى مؤتمر فرانـكفورت فقد كان من أدهش المحامين عن حقوق

الافراد فى ذلك الحين . فقد دافع اشهراً عن قواعد السياسة الحرة ، وانقطع هو ورفيقان له فى مدينة زوريخ من أعمــال سويسرا عند ما نُحى عن منصب تدريس حقوق رومية وكان استاذاً له فى كلية ليبسيك عام ١٨٥١ ، ولم يعتم أن أعيد الى كرسى التعليم ثمة وأصبح يشتغل بتدريس ذلك الدرس زهاء سنتين . وفى عام ١٨٥٤ غادر سويسرا بدعوة من حكومة بروسيا الى كلية برسلو ، وكان يرجو دائما تقدّم شبان هذه المملــكة ، ولطالما قال :

« إن حياة بروسيا تتوقف كل التوقف على سلوكها سبيل التقدم الذى مهده لها فريدريك الــكبير » .

هــذا وإن بين مومسن وبين أبناء صناعته فرقاً بعيداً ، وذلك أنه ظل صادقا مستقيما حتى نهاية زهو شبابه ، ولم يكن ليحفل مثلهم بفخفخة ما لاح له من أمارات النصر ، ولا عظمة ما ناله من بوارق التوفيق .



كان بدء احتفاظ مومسن بأفكاره على ماشوهد أشد الاحتفاظ بين سنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، والأمر الذى كان يتطلبه هو أن تــكون المانيا عظيما سلطانها ، منيعا جانبها ، تضىء بأشعتها العلمية العالم المتمدن بأسره . ومما حكاه : « ان تلك الشؤون السياسية قد شغلت حتى علماء المملــكة سنين كثيرة . وهذا وإن كان يستند على أسباب معقولة مشروعة ، غير أنه حان زمن الاقدام والرجوع الى الأعمــال بعد ما تبينت نتيجة كل شىء ... » وكان يقول : « من الواجب معالجة ينابيع قوى المانيا بالقوة ، وتوسيع نطاق علوم الألمان ، وكشف غطائها بالعمل » . ولطالما حقر مومسن أولئك المتعصبين الذين كانوا يناهضون الموسويين بأبلغ ما يمــكن تصوره من عبارات التحقير عاداً أنواع هذه المبارزات العنصرية والدينية من رجوع القهقرى

لأظلم أيام القرون الوسطى وأشدها أسى وبؤساً . فمن ثم ندّد ببعض ضعاف الفكر من حسدة حزب الوطنيين مبينا بطلان دعاوى تلك الفئة الواهية الواهنة ممن أدعوا بأن الموسويين عقبة كؤد فى سبيل تكوين أمة قوية المنعة مصونة الحمى ، ويبين بمستندات تاريخية جمة أنهم مستعدون لسكل ضروب التقدم والارتقاء ، وأنهم على العكس مما يظنون . وانتقد سياسة بسمرك انتقادا شديدا فحاكمه الوزير الى المحاكم ، فحكمت ببراءة ساحته ، وكان عضوا فى مجلس الأمة .



ليس بين المؤرخين من يقاس بمومسن فى تحبير الصفحات التاريخية العظيمة أو تحريرها غير ارنست رنان فقط . فتلك التصورات الواسعة واحدة ، والنسبة فيما بينهما واحدة ، كما أن قوتهما فى البيان والأداء سواء . أما المهارة فى إشراب روح الحياة للأشياء كما كانت باظهار دقائق التفاصيل والفروع الواسعة التى من شأنها أن تبقى فى الحافظة منقوشة فواحدة أيضا فى المؤرخين مومسن ورنان .

ولما كان مومسن أيضا كسائر مؤرخى الألمان المتفرعين عن نيبور يهتم كثيرا بحياة الامم الشخصية وكيفية نشوئها وانتشارها ، فانه وجد تاريخ رومية مساعداً جداً لايفاء هذا المقصد الذى يتوخاه ، ولما حل مسألة الوطنية ووضعها رغب فى تعليمها معاصريه ، وكان مثل إيبولت تِن يستمد من المخترعات العلمية والمكتشفات الفنية بأجمعها ، لأن تقدم العلوم ولا سيما ما يتعلق منها بعلم الحياة قد ساعد التاريخ كثيرا . فقد نقب مومسن أولا عن بعض ما خصت به ، ولم يقبل ما فى مذهب تِن من المادية البحتة ، بل ولا جميع أفكار المؤرخين فى هذا الباب ، ومن جملتها إمكان استخراج خصوصيات أمة من أخلاقها الخاصة بها ، بل من الأمور التى هى من قبيل الاسباب المادية كالتراب والهواء ونمط الغذاء .

وكان نظره متجها نحو « الخلية الابتدائية » للامة الرومانية ، لأن بها فقط

أمكن لرومية أن تحكم إيطاليا، فالعالم أجمع . فاجتهد فى كشف أسرار الرومانيين وسبب تفوقهم على الامم القديمة ، متخذا ذلك له أساسا متينا ، فاذا اراد تعليل فوز الرومانيين وغلبتهم يبدأ فى إظهار ذكاء هذا الجنس البراق ، وما فطر عليه من حب الاقدام والعمل ، وما يشعر به من تقديس الواجبات والقيام بها حق القيام ، وهكذا بعد أن تتبع كما رأيت أحوال الأمة الروحية فى سائر مظاهرها أيام كانت عروق الحياة تنبض فى جسمها ، فهو راغب فى أن يجلو تاريخه على هذه الأفكار كلها ثم يزفه للناظرين .

على هذه الأصول نفسها جرى تِن أيضا فى عامة مؤلفاته الانتقادية المهمة ، ولا سيما تاريخ أدبيات إنكلترا . وهذا الأسلوب من جياد الأساليب ، غير أن له محذوراً واحداً وهو أن الحادثات تلد طبيعية ، والرابطة التى فى خلالها تأخذ شكلا منطقياً متسلسلا ، بحيث يخيل أن هـذه كلها قد اعدت من ذى قبل ، والنصر المتوالى الذى بدأ من أبواب رومية ثم وقف فى أقصى تخوم العالم المتمدن يشبه مصوراً « خارطة » قد رسمت بداءة بدء وعول فيما بعد على إدخالها الى حيز العمل .

فالمترجم نظر الى تاريخ رومية من نقطة سياسية تمـاما ، ويشاهد ما بذله من العناية فى جماع مظاهر الحياة القومية للنظرة الأولى . وفصول كتابه فى الزراعة والتجارة والصناعة والآداب أجمع ما كتب فى مثل هاته الموضوعات حتى الآن . ومما كان يرتئيه أن السياسة هى أهم واسطة لبيان أحوال حياة الأمم ، وهى التى تحدث تجديداً وانقلاباً فى جميع الشؤون .



لتتبع التاريخ السياسى وتدقيقه خطتان : الاولى خطة توكفيل الفلسفية ، وهى اتخاذ أوضاع الأمة وقوانينها المادية والفكرية أساساً ، والعمل على كشف أسرار

تولدها ونتائجها ، أكثر من النظر فى حوادثها وكائناتها . ويصح أن يقال : إن هذه الخطة علمية ، لأن الكاتب لا يظهر نفوره أو ارتياحه لحالة سياسية معينة . ومن ثم كان ذلك المؤلف غيرياً لا أنانياً . والثانية تعليل الحوادث التاريخية ببعض أفكار تنطبق على آراء سياسية واجتماعية أو دينية ، وبها يختلف التاريخ حسب النظر ووجهته .

ولقد وقى مؤرخو الألمان أنفسهم فى الربع الأول من القرن التاسع عشر من هذا الأسلوب التاريخى الذى اتخذه كتاب الانكليز والفرنسيس مثالا يحتذونه . وهذا نيبور ورانك المؤرخان الالمانيان يصفان الوقائع التاريخية ويصوّرانها دون أن تشتمّ من تضاعيف سطورها رائحة تحزب أو تعصب بتاتاً .

وفى عام ١٨٥٠ نشأ صنف من المؤرخين على غير تلك الطريقة ، والسبب فى ذلك اجتماع طائفة من الاساتذة الأفاضل فى مؤتمر فرانكفورت واشتغالهم بالسياسة بعض الاشتغال ، حتى إذا ما نقلوا مشاغلهم الخارجية الى أرائك تدريسهم أخذوا يضعون موضع المذاكرة والبحث هاته الأحوال السياسية الحاضرة التى أورثت المسائل السياسية الغابرة تلك الأطماع ، وذلك هو نتيجة الثورة السياسية سنة ١٨٤٨ .

وها هو مومسن قد حاز الأولية بين فريق هؤلاء المؤرخين ، هذا الرجل الذى كان يتخيل حينما يكتب تاريخه أن تعليلاته تنطبق على التجارب الماضية ، على حين أن القسم الأعظم منها كان ناشئا فى الغالب من شعوره الذاتى وتابعا لاحوال محيطه وقوته المخيلة .



زبدة فلسفة تاريخ مومسن « كفاح فى سبيل الحياة » كفاح دائم من أجل تكوين جامعة سياسية وضمان عظمة قومية . وعنده أن تاريخ رومية يمكن تلخيصه بعدة فتن

وحروب بدأت فيها فرط باعداد الجيوش وسوقها ، كما بنيت على أساس تجارى ، ودولة رومية الزراعية التجارية التى تحيط بها قبائل الأعداء من كل ناحية وجهة ، تحارب أولا صونا لتجارتها من أن تبور ، حتى إذا ما انصبغت السياسة إذ ذاك بصبغة حكومية مطلقة تعمل على التهام ما حولها مما لا يزال فتيا .

وكثيرا ما تجد مومسن يرجع الى ناموس حياة الامم هذا فيعتبره بمثابة ناموس الثقل فى موقعه ومساس الحاجة اليه . وكان يقول :

« لما كان المقصود الأعظم من تاريخ المدنية — والمدنية تعمل على تشذيب ما ليس فيه قابلية للنمو واستعداد للنشوء من الاغصان كما ينبغى — كانت الحرب عبارة عن آلة جسيمة من الاصلاح لانشاء الرقى العام ، وان سعادة مملكة ليتوقف على تبدل كفاحها الى حروب ! . . . »

ألا وإن فلسفة تاريخ كهذى تناسب جداً حال أمة — أى بروسيا — تحارب بنفسها مرات ثلاثا متتالية ، وتساعد كثيرا على تعميم الرقى والتقدم فى ألمانيا أولا ثم فى أوربا والعالم أجمع . ومع هذا فالمترجم لا يضم صوته الى صوت الفيلسوف هيكل فى قوله :

« إن وراء كل حرب فكراً أخلاقياً ، والقوة والفضيلة لفظتان مترادفتان »

ولا هو أيضا من أرباب الاشتغال بالأخلاق ، وكان يقول بهذا الناموس التاريخى : « الحق مع القوة ، والتاريخ يحطم فى مهب عواصفه الأمم التى ليس لها صلابة الفولاذ ومرونته ، دون أن يشعر بأثر رحمة أو شفقة مطلقاً »

هذه هى نظرياته التاريخيه التى يظل الانسان حائرا حينما يرى أنها أو أمثالها يدافع عنها ويحامى فى وطن رجل مثل ذلك الفيلسوف كانت . ولكن مظهر ألمانيا عام ١٨٥٠ تغير عما كان عليه على عهد الفيلسوفين العظيمين فيختى وكانت . إذ

أن فلاسفتها المحدثين أروها أن الأحوال والمواقف فى تبدل دائم ، وأن قيمة الحقوق نسبية ، والقابض على أزمّتها هى « القوة » فقط .

ذلك هو الناموس العام الذى ليس فى إمكاننا مهما أحسنا النقد نقضه أو تبديله . وناهيك بناموس كانت فلسفة بسمارك بأسرها معبرة عنه .

أول درس رغب مومسن فى إلقائه على مواطنيه وصيته العظيمة : « لا تكونوا بلهاً أغرارا » . وقد تحققت أمنيته تلك ، فان الجنس الذى أوجد بسمارك لا يمكن أن ينسب اليه بله أو غباوة فى حال من الأحوال . وإن تقدم أمة الجرمان ليصادم النظر فى أغلب فصول كتابه ، فبينا هو يبحث عن الغاليين مثلا إذ يشرع فى وصفهم بقوله : إنهم شعراء أذكياء ذوو قلوب صافية سرائرها ، وليس بهم قوة ولا طاقة ، غير أنهم طائشون يرتاعون من العمل فى الحقول والمزارع ويرتاحون للحانات والعربدة ، ويعتبرون قسيسهم أبا ، ومنه يرجون النصح فى كل شىء . وكان مومسن لا يحبّ الفرنسيين بتة ، ومن أجل هـذا فانه حيا تلك المعركة التى نشبت سنة ١٨٧٠ على أنها للألمانيين مخلص لهم يحررهم من داء تقليد فرنسا . وقد بحث فى كتاب كتبه لارجاع الايطاليين عن فكر اتفاقهم مع فرنسا فى اضمحلال بابل الجديدة « باريس » وسقوط أدبيات فرنسا التى هى أشبه بنهر السين اتساخاً ودنساً .

هذا الميل الذى كان يشعر به مومسن نحو بلاده كان يجول فى خلال كل سطر من تاريخه ، وفوق ذلك فانه كان يرى العناصر الأخرى بجانب العنصر الجرمانى منحطة جداً . ولم يكن يميل للأمة اللاتينية ، وان كان يتظاهر بذلك أحياناً فلم يكن مصدر ذلك حب حقيقى ، زد على ذلك فانه كان لا يرتاح الى أفكار هذه الأمة مع ما أوتيه من المواهب الطبيعية وما فيه من المبادىء السامية وما أتيح له من معرفة العظماء . ومما قاله فى ذلك « إن الايطاليين لا يمكن أن يدخلوا فى مصافّ الامم التى تلعب فى طبائعها الغرائز الشعرية لفقدان تأثر أفئدتهم ، إنما

لا تقاس أمة بالايطاليين فى البلاغة والفاجعات ... »

وإنك لتجد لسانه الجائل فى تلك الأبحاث وهو يحكم حكما باتا قاطعاً مرتبطاً بفكره وشعوره تمام الارتباط فهو مثل تِن حذو القذّة بالقذّة ، لا ينحرف عن الأسلوب الذى تمسك به قِيد شبر . وفيما هو يكتب فى التاريخ يبين الآراء ويثبت ما أتى به من نظرياته الخاصة تراه يطرح من الوقائع كل ما يوشك أن يوقع فى هذه الآراء والنظريات خللا . . . فهو يريد أن تكون الأمة الرومانية سالكة السبيل الذى اختطه لها ، لا تحيد عنه ذات اليمين أو ذات الشمال . خذ اليك مثلا ذهابه إلى أن الدهاء فى غير السياسة لا أثر له فى الرومانيين ، وجزمه بما ذهب اليه جزما باتا ، تجده يعزز هـذا الحـكم باستنتاجات قوية وبراهين جلية متينة . وإن الألمان ليتراءون له من جهة الانتظام أتم من الرومانيين الذين هم وأولئك فى السياسات والمعارك سواء . وكذلك يشعر المطالع من طرف خفى بمدحه الألمان فى خلال حطه من العنصر اللاتينى ، وإنه ليفاخر قائلا : إن القسم الذى وقف سداً منيعا بكل ما فيه من قوة ورباطة جأش أمام هجمات الغول على رومية كان مؤلفاً من جماعة الوطنيين فقط الذين يجرى فى عروقهم دم الجرمان .

وهكذا جاء الـكتاب من أوله إلى آخره على هذا المنوال ، فهو أشبه بقصيدة نظمت للذب عن ألمانيا والألمانيين .

وبعد فليس بالنزر التافه القليل الذين استفادوا من تلك الدروس التى ألقاها مومسن فى تاريخه وأفادوا بما جمعوا من المؤلفات الجمة فى أحوال عنصر الجرمان الروحية التى دعت أساتذة التاريخ والجغرافيا وأهل الإخصاء فى علم الانسان الى أن يبينوا فضل عنصر الجرمان على رؤوس الاشهاد ، فعلت الضوضاء حتى فى الـكتب الجغرافية المدرسية « بأن المانيا قلب أوربا حقيقة ، وأن ما فى فرنسا من كل شيء جميل إنما هو مدين لعنصر الجرمان ! ... »

كتبت فى دمشق

شعر صلاح الدين

هى زفرات من ألحان روح صلاح الدين ، ورنين من نبضات قلبه ، فى زمن الطفولة وبعض سنوات الشباب . . . .

لقد وصفها هو بقلمه يوم كانت السفينة تشقُّ به عباب البحر الأبيض عائدة من القسطنطينية الى مياه الشام ، فسجلها فى إحدى رسائله من هذا الكتاب (١) .

وكان فى القمطر الذى يصحبه أينما كان مجموعات أنيقة من شعره ، ينطوى بعضها على بعض ما تجيش به النفس فى سن الشباب ، ولعلها التى سماها « خفاياى » وتحدث عنها فى رسالة « دمعة شاعر (٢) » . وقد أحرق تلك المجموعة وذرَّها فى الهواء ليخلص قلبه لعشق القومية العربية وحدها وهو فى ظلّ ألدّ أعدائها الشرقيين من طواغيت دولة الترك . وكان ينشد فى ذلك الموقف :

ستبكى قوافى الشعر ملء جفونها   على عربى ضاع بين الأعاجم

وبقيت فى قمطره فى السنة الأخيرة من حياته وهو بالحجاز منظومات أخرى لعلها تبلغ أن يكون منها ديوان أكبر من هذا الكتاب ، لكنها فقدت ، ولا أعلم أنا عنها شيئا .

وأذكر أنه احتفل هو بى عقب عودتى من بيروت إلى دمشق ، وقد أتممت الدراسة الثانوية ، فقضينا يوما سعيدا . وفى صباح اليوم التالى جاءنى بقصيدة طويلة رائعة يصف بها يوم أمس السعيد ، وكانت عندى بخطه ، وأرجأت إصدار هذا الكتاب مدة على أمل أن أجد هذه القصيدة ، فلم أوفق . إنها ضاعت كما ضاع كثير من شعر هذا النابغة ونثره . ولعلنا ـ إذا أعيد طبع هذا الكتاب ـ نوفق إلى إصداره مرة أخرى بأعظم مما استطعنا فى هذه الطبعة .

م

---

(١) ص ١٩٢ — ١٩٣   (٢) ص ١٤٧ — ١٥٠

الدمعة اليتيمة

ـ إلى روح شقيقي الأستاذ السيد جمال الدين القاسمي ـ



ما لجوّ العلوم داجي الذيولِ أترى مال بدره للأفولِ
أم هوى نجمه وغار ضياه ودهاه الردَى بليل طويل
فغدا الناس تائهين حيارى عن طريق بهديهم موصول
ما لهم قد عرتهمُ رعدة الخو ف وباتوا حسرىٰ بطرف كليل
وأقضت بهم مضاجعهم حز نا وباتوا من الأسىٰ فى ذهول



حق للقوم أن يطيلوا عزاء موجعاً حُفَّ بالبكا والعويل
فلقد فوجئوا بموت إمام كان فى العلم آية للعقول
مَن إذا مشكل عرىٰ فى مهمّ قام يسعى لحله بالدليـــل
نال مجدين : مجد علم ، وأصل فسما كل ذى نجار أصيل
قد زكت نفسه بروض فنون هى غرس المعقول والمنقول
أطلعت أرضها زهوراً فلما أينعت آل فرعها للذبول
تلك آثاره تعهدها الفكـ ر فعاشت على ممر الفصول



كان يقضى النهار والليل بالدر س ويحيى الأسحار بالتهليل
قد أذابت حياته لوعة البحـ ث فذاب الضلوعَ داء النحول
لو تراه يسوّد بعد الـــ فجر فى جسمه الدقيق الهزيل

ذبلت عينه وخارت قواه تحت ضوء من الصباح ضئيل
يقظاً للعلوم والناس غرقى في بحور من السبات الطويل
قلتَ : إن الحياة هذى ، وإن الـ ـموت فيما عليه أهل الخمول
ولرمتَ الخلود للشبح السا هر لولا تطلّب المستحيل



ليت شعرى ماذا جنى الشرق حتى أمطرته سحب الأسى بسيول
كلما أنجبت حناياه فذّاً شامخاً بالغاً مدى التحصيل
ورجونا على يديه نهوضاً وصلاحاً لخالق هـذا الجيل
عاجلته المنون كهلاً وأبقت ثلمة ما لسدّها من سبيل
ما لها لا أبالها تخطف العا لى وتبقى على السفيه السفيل
أترى أدركت بأن حياة الـ ـحرِّ ليست إلا كعبء ثقيل
فأطارت روحاً سجينة جسم قد دعاه صعودها للنزول



لهفَ نفسى قضى وآماله الغرّ توارت مزدانة بحجول
فبكته البـلاد شرقاً وغرباً ورثته في عرضها والطول
بديار الشآم باك جزوع وهلوع شاكٍ بوادى النيل
أين ذاك البيان يفعل باللب بما قد يفوق فعل الشمول ؟
أين ذاك الجنان يخفق بالعلـ ـم فيبدى محاسن التأويل[1] ؟
أين منه ابتسامة البشر تعلو وجهه ما لنورها من ضؤول
ذهبت كلها وأودعت الرمس لحظ الجماد حظ القؤول
لم يراعوا فيه العهود وإلا لأحلّوه في السهى لا السهول



(١) فيه إشارة للتفسير الكبير المسمى (محاسن التأويل) تأليف السيد الإمام ، وهو يقع في اثنى عشر مجلداً .

يا أخي بعدك الديار غدت قفـ ـراً وحالت رسومها لطلول
ما مقامي بها وقد غاب عنها أنسها فهي في حداد وصول
آه يا سيدي ومن بعد الله سؤلي وموئلي ومقيلي
يا أحب الأنام عندي ويا من كان ردئي كالصارم المسلول
لم أمتع طرفي وقلبي مليـاً منك حتى آذنتني برحيل
يرحم الله والدي : مات إذ كنـ ـتُ صغيراً ، فبتَّ أنت كفيلي
فلقيتُ الحنان منك وعطفاً كأبي يوم عشت وهو معيلي
وتعلمت في الأخوَّة درساً نافعاً فوق درس ذكرى الجميل
إن أكن قد حفظتُ عنك خلالا ترتضيها فأنت كنت دليلي
أنتَ أدَّبتني فأحسنت تأديـ ـبي وأفهمتني مصير الكسول
أنت غذيتني بفضلك إذ سلّحـ ـتَ مستقبلي بعضب صقيل
لأخوض الحياة فهي عراكٌ فاز فيها القويُّ بالمأمول



نم هنيئاً في ذمة الله نفس طلبت في حماه أسمى مقيل
قد صفت جوهراً وخفَّت فطارت في فضاء الفردوس للتبجيل
فاحرسيها ملائكَ الله دوماً إنه كان كالملاك الجميل
رفرفي فوقها ضحى ، وضعيها من زهور التكريم في إكليل
أنشدي حولها مدائح شعر ذهبيّ يزين شمس الأصيل
إنها لن تموت ما دام في التا ريخ يحيى ذكر الإمام الجليل

شقيقك البائس
الدكتور صلاح الدين القاسمي

دمشق

بعض شعر صلاح الدين
في صباه

داهية دهماء

مصابنا بفقيد الشرق الإسلامي
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

رأيتك يادهر تبدى العجب　　بفعلك إمّا ونى أو وثب
تدير المنية فى ذا الوجو　　د فهى الكؤوس ونحن الحبب
تمزّق أكبادنا فجأة　　بأنباء حزن تشب اللهب
ألا حسبنا داؤنا جهلنا　　فحتى مَ تصدعنا بالنكب
وتفجعنا برجال الصلا　　ح ، رجالٌ همُ المصلحون الشعب
وتمزّق أحشاءنا تارة　　برب العلوم وركن الأدب
كأنك أوجبتَ فى الكائنا　　ت بقاء الغبيّ ومحوَ النُّخب
حنانيك يادهر هل القلب من　　جماد فتصدمه بالنوَب
لقد كان صبرى يردّ القلو　　ب لحمل الخطوب ودرء الغضب
فما لى أراه تحطم من　　مصاب أثار بجسمى الوصب
ومالى أرانى عيونا تفيــض غموما وتقطر دمع الكرب
ومالىَ أبكى ، وكنت إذا　　تبسم مال بعطفى الطرب

هو الموت فاخضع لسلطانه فثورته لا تنى بالأهب
فلو لم يكن فى كتاب مبيـــن ضلالتُ السبيل لهـذا السبب
ولو لم يكن سنّةً قد خلت دعوت النوائح تعلى الصخب
ونُحتُ إلى أن يضج الملا له ، ومَلاك السما باللجب
وكنت لطمت الوجوه لند ب وجوه الفضائل شمّ الرتب
وحقا لـكنت شققت الجيو ب عزاء لفضل غدا مستلب
وأرسلت سيل الدموع دماء لرزء إمام غدا يُنتحب
رُزئنا بفقد عليم الورى رزئنا بموت حكيم العرب
إمام عظيم أقام سنيـــن يهدى أناسا بعزم الدأب
إذا بثّ قولا لدى العالميـــن غدا لفوائده فى نهب
وتجعله سائر الحـكما ء سميرا لها أينما تنقلب
ويروونه حِـكما أودعت صحائف علم وصحف الـكتب
وتدرس فى كل قطر وفى بلاد بها النور لا يحتجب
فوا لهفى قلم يقطر الـ بلاغة فى أى فن كتب
ووا أسفى منطق ملؤه الـ فصاحة من غير ما مرتقب
وواحسرتى لجنان غـدا يجيب اللسان إذا ما طلب
ويا بثّ حزنى لدرس له يميط سناه كثيف الحجب
فأحيا أولى الجهل فى موتهم كقطر السحاب إذا ما سكب



فيا كوكب الشرق أبدى سنا وما كاد يهديهمُ أن غرب
ويا منبع الفضل للمسلميـــن ما كاد يحييهمُ أن نضب
لقد أودعوك ببطن الثرى ولو أنصفوا أودعوك الشهب
فلو أنني ذلك الشاعر الـ ـمجيب[1] وقمتُ بجد النصب
أصوّر يأسى ـ وفضلك ـ ما قضيتُ لحقك ما قد وجب



فرحمة ربى لشخص نأى وخلّد ذكرا ممرّ الحقب
وجادته رحمة أهل النهى كما جاد بالغيوث السحب
كما جاد أعلامهم بالرثا ء بشعر ، وتأبينه بالخطب

الجمعة ، ٢٠ جمادى الأولى ، ١٣٢٢ .

---

(١) يريد فيكتور هيغو .

صحائف الأمل

– من الظلام ، وإلى الظلام –

قلقتُ ، فهل فى الثريا قلق ... أم البدر من ذا الدجى فى أرق ؟
أم اضطرب البحر فى موجه ... فثار لصخر ... وإذ ما انفلق :
ترامىٰ وفى نفسه حسرة ... وأنَّ انكسارا ، كصبِّ شهق
وماج عليه ظلام الليا ... ل ومنه دوىّ الرياح انطلق ...
فهذا يرنُّ ، وذاك يئنُّ ... بوزن ، وألحانه فى نسق
وهذا يميل ، وذاك يسيل ... بمدّ وجزر إذا ما اندفق
فتحسب فى الجوّ بحراً علا ... فعمَّ جميعَ الوجود الغرَق



ينام الدجىٰ ، وتنام العيون ... وذاك الفؤاد يعانى القلق :
أبيتُ وفى الروح يأس سرىٰ ... وها أملى فى الحياة انسحق
أبيتُ وفكرى يخوض البحا ... رَ ويمشى القفار ولا من رفق
يجول ، فنى وهدة تارة ... أراه ، وفى ذروة قد سمق
أراه يقلب صحف الرجا ... ء بهذا الفضاء ، ولا من ورق
فيشهد أسطرها سوّدت ... بأيدى الظلام ، وفيها نمق



صحائف آمالىَ مجهولة ... كهذا الفضاء وهذا الغسق
فلا أدرى إمّا بمستقبلى ... ضياء يكون به فى ألق ،

يكون به أملى زاهرا ... ومبتسما منه إمّا انبثق
وإما يسود عليه الظلا ... م فيطفىء تلك المنى إذ برق



يؤمل كلٌّ بما يشتهى ... وإمّا ينالُ غداً فى حنق
فمن باذل جهده كله ... ويغدو وفى بؤسه قد زَلق
ومن كاسل عمرَه كله ... ويصبح من أمل فى أَنَق
ويصبح فى عزّه سلطة ... وفيها نفوس المعالى رشق :
فذاك على سعيه فى ضنى ... وضنك ، وباب الأمانى انغلق
وأضحى وفى ذله سكنة ... بها روحه وحيـــاةً زهق



فلله ما سرُّ هذى الحيـا ... ة وما القصد من خلقِ خلقٍ خَرَق
يقولون : هذا سبات عميـــق ... وأفعالهم تلك حلم طرَق
وما هو إلا معمىً دقيـــق ... توارىٰ وفى ذا الوجود اعتلق
وكلٌ يبرهن تعليله ... فياليت شعرىَ من ذا صدق ؟
لقد حار فى كنهها خاطرى ... فلِمْ سرُّ هذى الحياة انغلق ؟
أوغدٌ يسود ، وفردٌ يعود ... وفى نفسه اليأس إما غسق ؟
إذا كان ذلك من حكمة ... فهلا — إذن — كان عقلٌ وحق ؟

٢٠ شوال ، ١٣٢٣ .

نفحة الربيع

— إلى زهرة ... —

١

حوى صبحُ الربيع بنشر زهرٍ شعورا في سويداء وشعرِ
وذى روح الطبيعة وهى تسرى تردد شعرها والصوت يجرى
له شجوٌ وحزن فى الفضاء

٢

يحار الفكر من تلك المناظر فيبتسم الصباح من الأزاهر
ويجليها التجلى وهو زاهر وهذا الطير وهو اليها ناظر
يغرّد فى نشاط فى السماء

٣

وهذا الورد يهتزُّ ارتياعا فتزهر فوقه الدررُ التماعا
وحين الجوّ يكسبه شعاعا وروح الريح تلمسه التياعا
ترى أثر الدرارى فى الثراء

٤

ومنّى أيقظت حسا شجيًّا وهيّج خاطرى فجرى مليًّا
بروض زهرةٌ ترنو إلىّ بوجه باسم يزهو نديًّا
يبثُّ إلىّ حبًّا فى وفاء

٥

وإنى إن غدوتُ بها غريقا ولطف خيالها أبدى بريقا
أحسُّ بعمق روحى ذى شهيقا تصاعد مع أنين بى طليقـــا
كما يتصاعدنْ من روح نائى

٦

إذا ما هاجنى صوت الربيع أنوح لنغمة الحبّ البديع
أنوح لنفحة نحو الصريع فها هى نفحة الحب الفجيع
ونغمته تزيد على بكائى

١٠ رمضان ، ١٣٢٤

آخر ما نظمه صلاح الدين

كان روح القومية العربية طفلا يحبو عندما فوجئت الإنسانية بإعلان الحرب العالمية الأولى ، وكان الترك قد شعروا قبل ذلك بأن هذا الطفل إذا تمكن من الحياة والبقاء بعد هذه الفترة فان دنيا العروبة والإسلام ستتألق شمسها ، وستستأنف رسالتها ، وسيكون لها شأن غير شأنها فى ظل الحكم التركى . لذلك أزمعوا أمرهم على سحق هذه الروح وهى فى مهدها ، فجعلوا الصفوة المختارة من الرعيل الأول للبعث العربى تحت رحمة الدواوين العرفية ، ونصبوا لهم المشانق ، وملأوا السجون بزهرات شبابهم ، ونفوا إلى مجاهل الأنضول أعيانهم ووجوه الأسر القوية فيهم . وقد تعرض للافادة من هذا الموقف الأمير فيصل بن الحسين وأبوه ، وتعلقت بذلك الآمال الغريقة يومئذ فى لج من الظلم لجى .

وكان الدكتور صلاح الدين القاسمى قد أخذ يتحسس هذه الناحية من نواحى الأمل ليختبر حقيقتها ، فتوجه إلى تبوك ، كما رأينا فى رسائل الحجاز ص ١٩٨ — ٢١٦ من هذا الكتاب ، ثم وصل إلى المدينة ، ومنها إلى مكة . وفى مكة أصيب بعلة يئس معها من النجاة والبقاء ، وذلك قبيل قيام شريف مكة بثورته على الترك ، فنظم له وهو على فراش الموت القصيدة الميمية التالية ، وبقيت مجهولة من الجميع إلى أن قامت ثورة الحجاز ، وتطوّع شباب العرب لدعمها وتحويلها بقدر الإمكان عن الغرض الفردى إلى الهدف الأعظم الجماعى . وكان كاتب هذه السطور أحد شهود هذه الحقبة من حياة العرب ، وفى مكة علمتُ بتفاصيل ما وقع لرائد العروبة قبلنا صاحب ذكريات هذا الكتاب ، وتلقيتُ من أفواه أدباء مكة يومئذ قصيدته

هذه ، فنشرتها فى العدد ١٣ من جريدة القبلة لسنتها الأولى الصادر فى يوم الإثنين ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٤ (وهى السنة العاشرة لتأسيس جمعية النهضة العربية) . وهذا ما نشرته يومئذ فى ذلك العدد من جريدة القبلة :

ذكرى صديق

قبل أن يعود إلى العرب استقلالهم الحاضر بأيام معدودات استأثرت المنية فى جنان (الطائف) بفتى عربى عاش العقد الأول والثانى ونصف العقد الثالث من حياته وهو يترقبُ بفؤاد خافق ابتسامة فجر يوم الاستقلال . وينظر من وراء سجف الغيب إلى وميضها . فتلمح آماله الشفافة الصافية ذلك الوميض كأنه متلألىء بأنواره بين (الحجون) و (الصفا) ، وقد أسرع فى الارتقاء نحو السماء ليبسط أشعته الذهبية ، فى آفاق البلاد العربية .

هذا الفتى العربى الذى استأثرت به المنية فى الطائف قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، بل قبل أن تقر عينه بتحقيق أمنيته الكبرى فى حياته ، هو الدكتور (صلاح الدين القاسمى) ربيب بيت العلم والفضل . وإنى أكتب عنه هذه السطور بقطرات الدمع السخين وأمامى صورته مجسمة فيها معانى الحياة والذكاء وقد كتب لى عليها بخطه من ضاحية (بيقوز) فى القسطنطينية يوم ١١ رجب عام ١٣٢٧ كلمات هى أدل شىء على رقيق حسه ، ودقيق شعوره ، حيث يقول :

« كما أن الزهرة فى صباح الربيع تبتسم لقبلات أشعة الشمس ، فإن هذه الروح أيضاً لبيثها فى هذا الخيال ما يتأرج من ذكراك أخاك من نفحات الأمل ... »

أجل عرفت (صلاح الدين) منذ كنا صبيين بين جدران مدرسة دمشق الإعدادية نعيش بنفحات الأمل : أمل حياة الأمة العربية ، أمل الاعتزاز بارتقاء الشرق ، أمل الاستقلال . فكان — بنفحات الأمل — شاعراً وكاتباً من أيام صباه . ثم شب وشبت معه آماله الجميلة حتى بلغ حجر أمنا المحبوبة وهى بلاد (الحجاز)

المقدسة . وكاد يكون من تحقيق ذلك الأمل قاب قوسين أو أدنى . ولكنه ـ وا أسفاه ـ لم يشهد الراية العربية تخوض معامع القتال إلى النصر ، ولم يسمع قعقعة سيوف ليوث العرب ماضية إلى نيل المجد والفخر ، إلا وقد كان تحت الثرى .

ولقد أراد وهو على فراش الموت أن لا يودع اليوم الأخير من شبابه وحياته حتى يرفع إلى كعبة الآمال كلمة يشكو فيها ما يعانيه قومه العرب فى الشام والعراق من الظلم والاضطهاد . فكتب ويده ترتجف فى ساعة الاحتضار قصيدة عنوانها (تهنئة وشكوى) . وقد أملاها علىّ أحد أفاضل الحجاز من محفوظه ، فأردت أن أنشرها لقراء (القبلة) برأ بروح انتقلت من عالم الفناء إلى عالم البقاء .

محب الدين الخطيب

تهنئة وشكوى

إليك أيها الأمير الكبير ، والمليك العربى الخطير ، أرفع ما جادت به قريحتى القريحة ، وأنا أسير الفراش من مرض ألم بى فى كبدى (تهنئة) لك بما أوتيته من المجد الباذخ ، والشرف الشامخ . و (شكوى) لك مما يعانيه أبناء الضاد ، من الظلم والاضطهاد ، وأنت يا مولاى أعلم به وأدرى ...

هلّ الهلال وثغر القوم مبتسم ... إذ عاينوا فيه برقاً فيضه عمم
وآنس الناسُ فى إشراقه وضحاً ... جلا غياهب شك ملؤها غمم
باتوا وقد ذهلوا مما رأوا جذلاً ... أن الأمير يحييهم ويبتسم
وأنت تعلو سريراً قد خصصت به ... يحفه الطول والاكبار والعظم
طافت حفافَيْه آمال مذهبة ... لها بكل فؤاد خافق ضرَم
مبثوثة من نفوس شفَّها رَهَقٌ ... وسامها الجور خسفاً وهى تحتكم
متّوا اليك بحبل القرب واتخذوا ... من حل بيتك ظلاًّ كله حرم

شم الأنوف إلى قحطان جدهم ... نموا فكان لهم من أصلهم رحم
كانوا ملوكاً يزين التاج مفرقهم ... حيناً ، وحكمهم تعنو له الأمم
وكانت الراية العلياء رايتهم ... فأصبحوا اليوم لا تاج ولا علم



رأى العدى أن روحاً قد سرت بهم ... تعيد مجداً مضى والجمع ينتظم
فاستضعفوهم وهاضوا من جناحهم ... واستعملوا قوة للحق تهتضم
غالوهم واستباحوا منهم وطناً ... المجد أوذى إذ آذوه والشمم
أسروا بهم وظلام الليل معتكر ... واسودَّ فى الأفق شهب كلها صمم
تحوطهم عصبة للشر حامية ... حماية الذئب سربا كله غنم
وخادعوهم فاعطوا أكؤساً رنقت ... وجرعوها وما فى سمها دسم
أعلوهم وسكون الجو يرمقهم ... والناس غرقى سبات ماؤه حلم
أبقوهم فى فلاة حرة فهوت ... على جسومهم العقبان والرخم
آلوا ليفدنَّ فى العلياء أنفسهم ... فكان ذاك ولم يحنث لهم قسم
ما ذنبهم غير أن الحق هاجهمُ ... كيلا يُرى عربى فوقه عجم



ضموا إلى عضهم بُطلاً بما فعلوا ... فالعدل مضطرب والحق مضطرم
راموا التجرد من دين به شرفوا ... وقد أصابهمُ من فضله نعم
فصرحوا أن (هولاكو) نبيهمُ ... وأن قبلتهم فى دينهم صنم (١)
بثوا اختلافاً وعدواناً وتفرقة ... ويزعمون بأنا نحن ننقسم
إن كان قد عصفت فينا عواصفه ... سيجمع الكلَّ رأس عاقل فهم
كم واعدُّوا ثم جدُّوا فى ممانعة ... لمعشر قط لم تخفر لهم ذمم

---

(١) يشير الى تقديس الاتحاديين صنم (بوز قورت) أحد آلهة الترك الاقدمين

أترتجى نهضة تحيي الشعوب بها ... ويسعد الوطن العانى وهو وضم
وكيف يؤمل للدين الحنيف علىً ... من أمة هى من ذا الدين تنتقم



أيشتكى القومُ عدواناً ومظلمة ... والقانطون بروح منك تعتصم
ويشردون إلى الآفاق من مضض ... وعهد أمنك باق ليس ينصرم
ويصبرون على ضيم وأنت لهم ... نعم المجير ونار البطش تحتدم
هذى بقيتهم تدعوك إذ رمقت ... فى شخصك الفذ تاجاً دره كلم
وإن (رايتك الحمرا) لنا علم ... تموّج الفكر فى الطيات فهو دم
وأنت أكرم ملك زانه شرف ... السيف يشهد إما قلت والقلم
إذا سكت فما فى كوننا أذن ... وإن نطقت فكل الكائنات فم
فامدد لهم من جناح العطف أروقة ... تأوى إليها قلوب مسها ألم
وامنع — وقيت الردى — عنهم لواعجه ... لحدُّ سيفك ماض ليس ينثلم
وفى جيوشك بأس عز مرغمه ... وفى جنانك جيش ليس ينهزم
ما ثم إلا رماح منك مشرعة ... تحمى حمى (العرب) والأقوام تلتحم
فدم لهم كعبة ترجى شفاعتها ... ما دام يُقصد هذا البيت والحرم

زهرات متناثرة

نختتم قسم الشعر ـ وهو القسم الأخير من آثار صلاح الدين ـ بهذه الزهرات المتناثرة ، اقتطفناها من هنا وهناك . من ذلك ما كتب إلىّ به الأخ الحبيب الأستاذ ظافر القاسمى من دمشق بتاريخ ١٧ شوال ١٣٧٨ (٢٥ نيسان) وهو الشهر الذى تزدان فيه دمشق بأزهارها ومحاسنها . قال :

« قضيت عطلة أمس (الجمعة) فى الغوطة ، وفى قرية (حمورة) فى بستان جميل لصديقكم القديم السيد نسيب الكيلانى . وشد ما أدهشنى حينما روى لى بيتا للأمير عبد القادر الجزائرى ، وكان المرحوم صلاح الدين قد شطره فى أيام الدراسة الثانوية ، وهو :

لعمرك ما خشيتُ سوادَ جيش　　　فما لى قد خشيت سواد هُدْبِ

وأما التشطير فهو :

لعمرك ما خشيت سواد جيش　　　يدير الموت فى طعن وضربِ
فما لى قد غدوت قتيل لحظ　　　وما لى قد خشيت سوادَ هدب

وقد أعلمنى أن التشطير للقصيدة بكاملها ، وكان الأخ السيد نسيب يحفظها ، ولكنه نسيها ، فرأيت أن أثبت لكم روايته كما أملاها علىّ .

فى جوّ الغوطة الجميل الرائع ، فى هذا الربيع الساحر ، تحدّثنا مليا عنكم ، وعن ذكريات حلوة ، لعلها من أعزّ ما نملك ، إن لم تكن أعزّ ما نملك »



وكتب إلىّ الأستاذ ظافر من الزبداني بتاريخ ٩ ذى الحجة ١٣٧٨ :

أنا منذ مساء الخميس الفائت فى الزبداني ، ولعلك لم تنس هذا البلد الرائع ، فقد وهبه الله من سحر الطبيعة ، ولطف الهواء ، وعذوبة الماء ، ما جعله — حقا — متعة للمنتجع ، وجنة تختال على المتنزّهات . وقد قصدتها طلبا للراحة ، ولقضاء عطلة العيد ، واصطحبت معى بعض مذكرات المرحوم الإمام الوالد [1] اليومية ، وشرعت فى مطالعتها ، فوجدت فيها كثيرا من فوائد التاريخ والسير والأدب والنقد والحوادث اليومية . ولعلى منصرف فى القريب إن شاء الله إلى تجريد الأهم منها لنشره فى أقرب فرصة .

ولقد عثرت فى مفكرته لعام ١٣٢٤ (١٩٠٦) بخطه الفارسى الأنيق — فى يوم ١٤ صفر ، ٨ نيسان — على العبارة التالية :

« وقع نظرى البارحة على ورقة بخط بنتى ثريا ، وبجانبها خط ضياء الدين ابنى ، فرأيت أخى صلاح الدين كتب فى الورقة هذين البيتين من نظمه ، أسعده الله :

ضياء الدين ذو خط منيف به بارى الثريا فى الكمال
فلا عجب إذا أبدى إلينا جمالا ، فالضياء ابن الجمال

وتاريخه ليلة السبت ١٠ ذى القعدة سنة ١٣٢٣ »

وهو كما ترى من شعر الصبا ، قاله وعمره ١٨ سنة



وفى الدفتر رقم ١٠ ص ١٦ (من دفاتر كانت لصلاح الدين فى أيام الدراسة الثانوية) قطعة منثورة بالفارسية ، ثم ترجمها فى ص ١٧ بالعربية يوم ١٨ ربيع الأول ١٣٢١ ، وعنوانها » فى صورة استعطاف » جاء فيها :

« ألا إن الضياء المشابه للبدر المنير المستقر فى فلك وجهك ، والشعاع

(١) علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمى رحمه الله

اللماع المشاكل للشفق المنور فى دائرة خدك ، والورد الأحمر المزين للعس شفتيك .... »

ثم قال : نمقتها وأنا مستسرّ الوجه ، حزين القلب ، مقطب الجبين ، لأمرٍ مّا . . . . فى درس الفارسى فى الصف الرابع . وما كاد ينظرها رفيقى « عمر » إلا وشقّ الدواة ، ونصب القرطاس ، وأرعف اليراع ، وكتب ما صورته . . .

(والذى كتبه عمر بالفارسية ولا محل له هنا)



وفى الصفحة ٣٢ من هذا الدفتر ترجمة عن الفارسية لبيتين فى الهجاء نظمهما فى ١٨ ربيع الأول ١٣٢١ :

ما وجدت نفســه راحة ولا البرايا قدْ حباها حضور

وراح من دنياه فى ظلمة فايلقينْ أذاه أهل القبور



وفى الصفحة ٤٢ منه :

طلب مني بعض الأصدقاء أن أضمن شطرة : وكلُّ إناء بالذى فيه ينضح . ولأنه من رفقائى فى المـكتب ـ أى مكتب عنبر ، وهو مدرسة دمشق الثانوية الأميرية ـ ضمنت له الشطرة وأنا فى المـكتب ، فقلت :

أبان من الألحاظ سمرا فواتكا وقد راح يغزو القلب فيها فيطرح

فقلت له : ماذا؟ فقال لىَ : اتئد « فـكل إناء بالذى فيه ينضح »



وفى الدفتر رقم ١٦ (من دفاتر صلاح الدين فى صدر حياته) :

اهديتُ إلى صديقى الأديب فائز بك العظم صورتى بعد أن ذهب إلى حماه عام ١٣٢٣ ، وكتبتُ على ظهر الصورة هذه الأبيات :

يا (فائز) الفضل مالى أراكَ ملتَ لهجرى ؟
إليك جسمى ظلا من غير روحىَ يجرى
فاقبله (تذكار ود) عساه يحيى بذكر !



وفى الصفحة ٢٨ من الدفتر نفسه (وهو مما كتبه سنة ١٣٢١ وهو فى مكتب عنبر) :

ماذا يكون نصيب الأمم الحية ؟

أبى الله إلا أن يجعل للأمة نصيبا مما اكتسبت : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر

أمة اكتسبت الفضائل . ومكارم الأخلاق ، فغدا حظها من ذلك الاكتساب الرقى إلى ذروة الكمال . وأخرى جذبتها السفاسف بمغناطيس الجهالة ، فغدا نصيبها الانحطاط إلى أسفل سافلين .

هاتان فرقتان ـ فرقة نالت السعادة الدنيوية والأخروية ، وحازت الشرف الأعلى ، فغدت ممتازة ، منورة بنور المعارف والأخلاق الحسنة ، معظمة لدى كل عاقل .

وفرقة ـ بعكسها ـ كسبت سوء الآداب والطبائع ، فغدت مظلمة بظلام الجهل ، حال بينها وبين ذلك العمى (وما تعمى الأبصار ، ولكن ....)

من سبر أحوال الأمم وجدها فى اختلاف بيّن . رآها مختلفة فى الشعوب ، مختلفة فى الطبقات ، مختلفة فى المذاهب ، مختلفة فى العادات ، مختلفة فى الأخلاق .

لا يشك من له أدنى بصيرة نيرة ، وفكر وقاد ، أن الاختلاف فى الأخلاق ـ حسنة كانت أو قبيحة ـ يعود لما قدمناه . وبعبارة أفصح : ضمير مستتر راجع

إلى تلك الفرقتين ، إذ النفس أشبه بآلة (الفنوغراف) ، فكما أنه يجذب بواسطة آلته كل ما ألقى إليه ، كذلك النفس تلتقط كل ما يرمى إليها ، فان كان حسناً نشأت عليه ، أو قبيحا كذلك . اللهم إلا إن حصل لها مانع يرجعها من الحسن إلى القبح وبالعكس

يعلم الكل أنه لا شيء أحب للانسان من تهذيب نفسه ، وإخراجها من دائرة الوحشية والبهيمية ، إلى دائرة العلم والمدنية ، وذلك لا يكون إلا بالباسها بُرْد الأخلاق الشريفة الذى تعلو به ، وخلعها بُرْد السفاسف والترهات الذى تنحط به .

ثم كتب :

قلت : هذه مقدمة لمقالة فى الحلم نشرتها فى جريدة طرابلس الغراء العدد (٥٥١) جواباً لأحد الكتاب . وها كها عارية عن مقدمتها ، وخطاباً لصاحب الجريدة :

قرأت فى العدد الأخير من صحيفتكم الغراء مقالة حث فيها كاتبها على تحرى الصدق ، وبين فيها مضار الكذب ، مذيلة تلك المقالة بشكركم لصاحبها حيث خاض فى موضوع أخلاقى ، وطلبتم من حملة الأقلام البحث فى هذه المواضيع النافعة للشرقيين ، فأتيت برسالتى هذه تبحث عن تفصيل ما أجملته فى العنوان ، علها تصادف صدراً رحباً ، فتكسب رونقا بهياً ، فأقول :

الحلم

إن من الأخلاق الحسنة العالية ، بل من أعظمها الحلم ، والعفو عند الغضب ، وإن ذلك من شيم الكرام . وأما مقابلة الشر بالشر فهو أمر سهل يمكن اجراؤه لكل أحد ، بخلاف الاحسان للمسىء والعفو عند الغضب فهو بلا شك أعظم

مكارم الأخلاق وأفضلها ، وإن مقابلة الشر بالشر لا تأتى بفائدة بل تحبط عمل المرء وتجعله بمنزلة الأشرار . وكان الأحنف رحمه الله يقول :

ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بأحد ثلاثة أشياء : إن كان فوقى عرفت له فضله . وإن كان مثلى تفضلت عليه . وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه .

وقال على كرم الله وجهه : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه . ولا شك أن هذا هو عين العقل السليم ، والصراط المستقيم . ولقد حوى هذا الخلق فوائد جمة نكتفى بشىء منها فنقول :

إن من فوائده رفع العداوة والبغضاء ، وذلك مقرر لا يحتاج إلى برهان

ومنها رفع الحقد والضغينة . وهذا أيضا مما لا يحتاج إلى برهان

ومنها جلب الصبر ، وذلك من جملة مكارم الأخلاق ، فان الانسان إذا تخاصم مع رجل فآذاه بأنواع الكلام المخالف للآداب العمومية فذلك الرجل إذا سكت وما تكلم ببنت شفة عدّ صابراً لسكوته على الايذاء ، ومتى عد صابراً نال الفضائل . أما حقيقة الصبر فالسكوت عن الإيذاء ، ومنها أن يكون داخلا فى الآيات والأحاديث الشريفة التى وردت فى فضل الحالم نائلا تلك المزية العظمى .

قال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾

٢٩ صفر سنة ١٣٢٢

صلاح الدين القاسمى

فهرس

صفحة

صفحة